دراسات حديثة في اللسانيات والأدب

ثلاثة عشر بحثًا مترجمةً من الانجليزية والفرنسية والألمانية

الفهرس

كلمة أستاذ كرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة 7

كلمة رئيسة لجنة مشروع الترجمة 9

كلمة فريق الترجمة 11

المقالات المترجمة من اللغة الإنجليزية 15

علم اللغة الإدراكي تأليف: أ. فيفان إيفانس، ترجمة: أ. د. سعيد بحيري 17

مقدمة 18

تعهدات علم اللغة الإدراكي 20

التعهد الإدراكي 21

تعهد بالتعميم 22

توجيه فروض علم اللغة الإدراكي 23

فرضية إدراك مجسَّد 24

فرضية علم دلالة موسوعي 25

الفرضية الرمزية 27

فرضية أن المعنى تشكيل تصوري 30

الفرضية القائمة على الاستعمال 31

الرؤية الشاملة لعلم اللغة الإدراكي 33

اللغة تعكس تنظيماً تصورياً 34

اللغة عدسة على العقل 34

اللغة تزود بآلية لنمط التناول 35

اللغة تؤثر في إدراك غير لغوي 37

قدرة إنسانية عامة على التصور 40

خلاصة 41

الأوجه الدلالية والنحوية للأفعال تأليف: أ. الصادق الأمين، ترجمة: أ. هيا المنيف 43

المقدمة 45

العلاقة بين علم الدلالة وعلم النحو 45

وظائف المفردات المعجمية (الكلمات) في العملية الإبداعية 46

الأفعال 46

الأفعال واستدعاؤها للجانب الموضوعي 47

نظرية تصنيفات الفعل 47

المراجع 52

الإرداف في اللغة العربية تأليف: أ. باربرا جونستون، ترجمة: أ. هيا المنيف..... 53
الإرداف في الخطاب..... 54
العرض والإقناع..... 56
الإرداف النحوي..... 58
المناقشة..... 63
المراجع..... 56
إسهام النظريات النفسية في النقد الأدبي تأليف: د. عبد الباقي رضاني أ. سيد حسن رضاني، ترجمة: أ. هيا المنيف..... 67
الملخص..... 68
المقدمة..... 68
الخلاصة..... 74
المراجع..... 75
الدور المعرفي-الأيقوني للأصوات الاحتكاكية والانفجارية: تحليل دلالي صوتي لسورة الفلق تأليف: د. أفنان فطاني، ترجمة: د. فاطمة الشهري..... 77
مقدمة..... 78
هدف الدراسة..... 79
منهجية البحث..... 80
الأسس النظرية للدراسة..... 81
سورة الفلق..... 86
البنية الدلالية للفلق..... 87
التحليل الصوتي الأيقوني..... 91
الخاتمة..... 98
المراجع..... 99
السيميائية الأدبية وعلم الدلالة المعرفي تأليف: أ. هيلي ديفيدسون، ترجمة: أ. ثناء الغباشي 101
الملخص..... 102
المعنى الثقافي..... 103
النموذج المعرفي..... 103
الصور والتشكيل العام لها..... 106
الخلفية الثقافية وانعكاساتها..... 108
إبداع المعنى..... 109
نموذج الربط والدمج..... 110
تحليل عملية الربط والدمج..... 112
المراجع..... 119
الوظائف الدلالية لصيغ المبني للمجهول في القرآن الكريم تأليف: أ. خليل نوفل، ترجمة: أ. ثناء الغباشي 121

ملخص الدراسة 122
المصطلحات 122
مقدمة 122
الوظائف الدلالية 123
الخاتمة 138
نتائج الدراسة 139
المراجع 140
تطبيق لسانيات المدونات تأليف: أ. وانج دونجمي، ترجمة: د. فاطمة الشهري 145
الملخص 146
المقدمة 146
تحليل تقارير المسؤولية الاجتماعية للشركة 147
الخاتمة 155
العولمة في الأدب العربي الحديث تأليف: أ. د. محسن الموسوي، ترجمة: أ. مريم المفضي 157
النصوص كمصانع للصور 161
الدولي والعالمي 162
لمن سيُسمع؟ للعالمي أم للمحلي؟ 165
الخطاب "المتخلف" أو "النامي" 170
الأصوات "المشتقة" والمعارضة 174
الهجرة 178
"المعلوماتية" بوصفها سردًا 179
المقالات المترجمة من اللغة الفرنسية 185
الحِداد في الرِّواية والسِّيرة الذّاتية تأليف: أ. آن ستراسر، ترجمة: أ. روز كلش 187
الرّواية: حِداد "في المعاناة" 190
السّيرة الذّاتية أو الانحياز إلى الحياة 194
نهاية الحِداد: مسألة مرتبطة بالنّوع الأدبيّ 197
ملخّص 202
المراجع 203
اللّغة العلميّة العربيّة: الأمس واليوم تأليف: أ. ليال مرعي، ترجمة: أ. روز كلش 205
التّواصل العلميّ 206
الخطاب العلميّ العربيّ في العصور الغابرة 207
الخطاب العلميّ العربيّ المعاصر 210
دور وسائل الإعلام 212
آفاق لمستقبل اللّغة العربيّة 214
المراجع 217

نحو مقاربة بيو ثقافيّة للرِّوايات تأليف: أ. مارك لابران، ترجمة: أ. روز كلش 219
نحو مقاربة تطوّريّة للأدب 224
نحو منهجيّة بيو ثقافيّة 229
البيبليوجرافيا 233
ملخّص 238
المقالات المترجمة من اللغة الألمانية 239
مفهوم المصاحبات اللغوية وإمكانيات تطبيقه فى طرق التدريس المختلفة تأليف: أ. أنّا ريدر، ترجمة: أ. د. محمد العبد 241
مدخل 242
التفسيرات المختلفة للمصاحبات اللغوية وتطبيقاتها 243
المصاحبات اللغوية بوصفها توافقا لفظيا 244
المصاحبات اللغوية من حيث هي تراكيب شائعة الاستخدام 245
المصاحبات اللغوية يوصفها تعبيرات اصطلاحية 250
الكتب التعليمية والمصاحبات اللغوية 255
مسرد المصطلحات الإنجليزية 257
مسرد المصطلحات الفرنسية 263
مسرد المصطلحات الألمانية 269

كلمة أستاذ كرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة

تعد الترجمة من أهم وسائل التواصل بين البشر، كما تهدف إلى تحقيق التلاقح المعرفي والعملي بين الثقافات.

انطلاقاً من هذه الأهداف سعى كرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة في مرحلته الثانية إلى المساهمة في تنشيط حركة الترجمة إلى العربية في مجالات مختلفة أدبية ولغوية فدشن مشروع الترجمة في بداية العام الهجري 1435هـ

الذي تناول عددا من الأبحاث والمقالات المنتقاة على أسس ومعايير علمية دقيقة والتي تمثل الأدب والبلاغة وعلم الدلالة والصوتيات وعلم السيمياء....إلخ.

وجاءت الترجمة لتشمل ثلاث لغات هي: الإنجليزية والفرنسية والألمانية حيث نقلت إلى العربية وقد تم تشكيل عدد من اللجان استشارية وعلمية وغيرها عملت بصفة تكاملية في منظومة واحدة لتحقيق الأغراض المنوطة بها.

هذه اللجان برئاسة سعادة أ.د. نوال الحلوة ومساعدتها سعادة د. فاطمة الشهري عملت بجد واجتهاد لإخراج العمل حسب المعايير المحددة.

أشكر كل من عمل على هذا المشروع وساهم في بنائه ليخرج بصورته النهائية التي أتمنى أن تحقق الفائدة العلمية للباحثين وطلاب العلم.

والله الموفق،،،

أستاذ كرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة

د. نوال بنت سليمان الثنيان

كلمة رئيسة لجنة مشروع الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء وقدره تقديرا ، والصلاة والسلام على المعلم الأول محمد بن عبدالله هاديا وسراجا منيرا.

أما بعد ؛ فتعد الترجمة رافداً من روافد المعرفة ووسيلة لسد الهوة العلمية في بعض العلوم التي تعاني شحا ، بل هي مصب يزيد المخزون المعرفي لأي علم فيسهم ذلك في تلاقح الحضارات بما يتبع الترجمة من نقد وتصحيح وتفسير، أو دمج وابتكار وإبداع. فتظهر المعرفة الجديدة في كل لغة بشكل مختلف يعكس إبداع المتحدثين بها فكريا وثقافياً.

كما لا يخفى أن الترجمة إلى العربية اليوم تحمى اللغة من العزلة وتجعلها مواكبة لعصرها .

من هذا المنطلق كانت كان مشروع الترجمة التجربة الثانية لكرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة؛ ولكنه ههنا جاء بطرح جديد بحيث يبدو أكثر شمولية؛ إذ تجاوزنا فيه الترجمة من الانجليزية إلى الترجمة من اللغة الفرنسية والإنجليزية والألمانية؛ كما تجاوزنا المسار الواحد لتكون الترجمة في عدة مسارات صوتية وصرفية ودلالية وأدبية. رغبة في المرور على أغلب التوجهات اللسانية الجديدة في دراسة اللغة.

فالشكر الجزيل لأساتذة الكرسي د. نوال بنت سليمان الثنيان التي ثمنت قيمة هذا المشروع وجعلت من الترجمة ركيزة أساسية في مجالات العمل في الكرسي في مرحلته الثانية، ولفريق العمل في الترجمة برئاسة الدكتورة فاطمة الشهري والتي قادت مع فريقها المشروع

الأول إلى النجاح وها هي تحمل الراية ثانية، والشكر موصول لسعادة أستاذنا الدكتور محمد العبد الذي نصب نفسه مراجعا أمينا على هذا العمل.

وختاما : فإننا نأمل أن يسد هذا الكتاب فجوة علمية في بعض النظريات اللسانية الجديدة ؛ ولاسيما في المجال التطبيقي منها فنحن في أمس الحاجة إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

أ. د. نوال بنت إبراهيم الحلوة

أستاذ علم اللغة – قسم اللغة العربية – جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلمة فريق الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيد الأولين و الآخرين

ها نحن في عامنا الثاني وقد منَّ الله علينا بإنجاز مشروع الترجمة الثاني لكرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن. و هذا المشروع كسابقه نافذة على علوم الغرب إلا أنه أوسع مدى وأرحب أفقا، إذ ارتأى القائمون على إدارة الكرسي استهداف شريحة أوسع من القراء تتعدد اهتماماتهم وتتنوع مشاربهم ولا تنحصر في تخصص واحد. ولتحقيق هذا الهدف يممَّنا الوجهة هذه المرة نحو منابر علمية متنوعة إذ وقع الاختيار على مجموعة من المقالات العلمية والدراسات في مجالات مختلفة كالأدب والبلاغة وعلم السيمياء والصوتيات وعلم الدلالة وغيرها من علوم اللغة، بدلا من كتاب واحد يتناول موضوعا واحدا موجها لثلة قليلة من القراء.

ولقد خضع اختيار المقالات لعمليات بحث مستفيضة ومشاورات مع عدد من الأساتذة كالدكتور محمد العبد والدكتور سعيد بحيري. ومن معايير الاختيار أن تكون المقالات حديثة ومنشورة في مجلات محكمة وتطرح أفكارا جديدة لضمان إضافة الجديد للمكتبة العربية وإثراء معرفة القارئ العربي ومساعدته على مواكبة المستجدات في هذه المجالات خارج الوطن العربي.

و قد بذل فريق العمل في هذا المشروع جهدا كبيرا في الترجمة و تحرّي الدقة في نقل المعاني و المصطلحات. و حرصنا كذلك على أن نطمئن إلى رضا كل مؤلف يتقن العربية عن الترجمة النهائية لمقالته، فاستطلعنا آراءهم و استنرنا بملاحظاتهم قبل النشر. و كان منهجنا في النقل هو الالتزام بالنص الأصلي قدر الإمكان مع الحرص على أن تكون الترجمة ذات أسلوب عربي واضح خال من الركاكة أو الغرابة، فقد يحدث أن نحذف أجزاء من النص الأصلي لا تهم القارئ العربي كالجزء الذي يتحدث فيه المؤلف عن طريقته في ترجمة مفردات سورة من سور القرآن. أما المصطلحات العلمية فقد اعتمدنا على عدد من القواميس

والمعاجم المتخصصة كمعاجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعند تعدد المقابلات آثرنا الشائع منها. وعندما لا نجد للمصطلح مقابلا في المعاجم المتخصصة لجأنا إلى الدراسات العربية المختصة عَلَّنا نجد من اجتهد قبلنا وأوجد مقابلا لذلك المصطلح. وعندما لا نجد له أثرا اجتهدنا في الترجمة بشرحها بإيجاز بناء على معانيها في القواميس المتخصصة في اللغة الأجنبية (مثل مصطلح coda الذي يشير إلى الصوت الصامت في نهاية الكلمة).

ومعاناتنا في هذا الشأن تتكرر في كل مرة نترجم فيها مادة علمية متخصصة، إذ نضطر لمواجهة سيل من المصطلحات العلمية التي كما ذكرنا قد تتعدد مقابلاتها في العربية أو تكون ركيكة غير مقنعة وقد لا نجد لبعضها مقابلا أصلا، ولا يخفى على أحد أهمية التعامل مع هذه المصطلحات بحذر وحرفية لأنها أساس المادة العلمية بل هي مفاتيح العلوم – كما يصفها الخوارزمي – و لابد من نقلها بدقة متناهية حتى نحافظ على المعنى وعلى السمة العلمية لهذه الدراسات.

ونجدها مناسبة ملائمة نثير فيها أمورا و قضايا قد لا نكون السابقين في طرحها ولكننا نكرر النداء بضرورة أن تتوحد جهود المختصين في العمل على حلها، ونوجزها فيما يلي:

1) أين وصلنا في صناعة المصطلح؟ عندما درس أسلافنا اللغة وأدركوا بعض ظواهرها ابتكروا لها مصطلحات و لغة علمية خاصة ليسهل الحوار بين العلماء؛ فتحدثوا عن السجع والمقابلة والإدغام والقافية والإقلاب والحروف الساكنة وحروف العلة والجناس والطباق والتصريع. ونحن لما صادفنا مصطلح coda في العصر الحديث عجزنا أن نأتي بما يعبر عنه في العربية (و هو كما أسلفنا يشير إلى الصوت الصامت في آخر الكلمة). والأعجب من ذلك أن نجد أمورا نفعلها في حياتنا ولكننا لم نستحدث لها ألفاظا تعبر عنها (مثل كلمة (peekaboo) التي تعبر عن مفهوم لعبة تخفي الأم فيها وجهها بيديها أو بقطعة قماش عن طفلها ثم تظهر وجهها له فيضحك. ولكن ليس لهذا المصطلح مرادف في اللغة العربية). إن لغتنا التي وعت وحي ربنا واختارها الله لتكون وعاء مفاهيم الدين والحياة لقادرة – ولا ريب– على التعبير عن تجاربنا اليومية ومفاهيم حياتنا ولكنها تحتاج منا إلى بذل الجهد وإعمال الفكر. كيف لهؤلاء الأعاجم أن يبتكروا مصطلحا يعبرون به عن هذه التجربة الإنسانية أو عن مفهوم هذه اللعبة –على بساطته- ونعجز نحن عن ذلك ولغتنا هي

التي عرفت بأنها الغنية بمفرداتها وتفوق كل اللغات بقدرتها على توليد الألفاظ والتعبير عن المفاهيم. أهو عجز فكري إذن؟ هو لا ريب كذلك، لأن توليد الألفاظ والتعبير عن الأفكار المجردة بمصطلحات محددة مقياس يدل على تقدم الحضارات وتطور فكرها ونضجه وعلى رقي مستواها الثقافي.

لابد وأن ننهض بفكرنا وبلغتنا وثقافتنا لنلحق بالركب عَلَّنا نسبقه يوما، ولنا ذلك إن اجتهدنا ووفقنا الله. ومعاجم اللغة كما ذكرنا مقياس يدل على الرقي الفكري فلابد أن تكون معاجمنا عصرية مواكبة للتطور الحضاري وشاملة لأحدث المستجدات في شتى الفنون، ولن يكون ذلك حتى تتضافر جهود المعجميين وأهل اللغة والعلماء في المجالات المختلفة، فيعكفون على تحليل المصطلحات الجديدة واستيعاب دلالاتها وتوليد ما يعبر عن تلك الدلالات في اللغة العربية بدقة.

2) كيف نتعامل مع المصطلحات الوافدة التي تعكس مفاهيم فكرية قد تتعارض مع القيم الإسلامية؟ هل ننتزعها من خلفيتها الحضارية ونتجاهل حمولتها الثقافية ومسلماتها الفكرية والفلسفية ونستنبتها في ثقافتنا –رغم عُجْمَتها ودلالتها الدينية أو الثقافية- كمصطلح "الأيقونة" (و منها "الأيقونية")؟ فكلمة icon في اللغة الإنجليزية تحمل معنى دينيا يشير إلى رسم يمثل صورة المسيح أو أمه عليهما السلام أو مشهدا دينيا (حسب ما تذكره قواميس عديدة مثل قاموس Collins وقاموس American Heritage). وورد من معانيها في معجم اللغة العربية المعاصر ما يلي:

أ- صورة أو تمثال مُصغَّر لشخصيّة دينيّة يقصد بها التَّبرُّك .
ب- غلافة صغيرة من فضّة أو ذهب تُحفظ فيها ذخيرة من ذخائر القدِّيسين وتعلَّق في العنق عادة .

وهب أنا فعلنا ذلك –على فرض أننا في اللغة العربية نقصد بها معنى علميا محددا– فهل عندما يقرأها القارئ العربي في نص مترجم، يستحضر من معانيها ما يستحضره القارئ الأجنبي الذي يقرأ النص الأصلي للترجمة؟ وهل نجد معاجم لغوية متخصصة –غير معاجم الحاسب الآلي- تشرح معناها العلمي وتبين دلالاتها وسياقات استخدامها بدقة؟ هل

البديل أن نولد مصطلحا جديدا يعكس الفكر الإسلامي أو حتى لا يعكس فكرا دينيا؛ أي أن نخلع عن هذا المصطلح صبغته الدينية؟ وهل نحن إن فعلنا ذلك واستحدثنا مصطلحا بديلا يلائمنا فهل نكون عندها ما نزال نتحدث عن المفهوم نفسه الذي ورد في النص الأجنبي؟ أم هل ننأى عن هذه المفاهيم ونعرض عنها جميعا؟ وإن فعلنا ذلك فكيف نتحاور مع الآخر؟ هذه أسئلة يجر أحدها الآخر وقد تراود غيرنا من الباحثين أو المترجمين المبتدئين الذين يدركون خطورة دورهم في بناء حضارة أمتهم وثقافتها من خلال ترجمة الأفكار.

3) لماذا نعجز عن توحيد مصطلحاتنا؟ لم لا يكون للعرب مرجعية لغوية واحدة تبت في ما اخْتُلِفَ فيه؟ يجد المترجم لكلمة cognitive ثلاثة مرادفات: معرفي، وعرفاني، وعَرْفَنِي (من عَرْفَنَة). فأيها يختار؟ لماذا يتحدث الباحثون عن مفهوم علمي محدد الملامح بثلاثة مصطلحات مختلفة؟ وكيف للقارئ الذي لا يعرف الإنجليزية أن يدرك أن هذه المصطلحات الثلاثة تشير إلى مفهوم واحد؟ لماذا نعجز عن القضاء على هذه البلبلة الفكرية والفوضى المصطلحية؟.

هذه بعض الأسئلة التي خطرت لنا خلال تجربتنا في الترجمة ونحن نطرحها هنا لعلها تجد من يتصدى لها من قراء هذا الكتاب. ونود هنا كذلك أن نعبر عن شكرنا و تقديرنا للقائمين على كرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن بقيادة الدكتورة نوال الثنيان أستاذ الكرسي، والدكتورة نوال الحلوة رئيسة مشروع الترجمة، على الثقة التي أوليتانا إياها والدعم السخي الذي منحتاه لنا. كما نوجه شكرنا العميق إلى الأستاذ الدكتور محمد العبد على ما بذله من جهد كبير في مراجعة الترجمة وتدقيقها.

المقالات المترجمة من اللغة الإنجليزية

علم اللغة الإدراكي[1]

تأليف: فيفان إيفانس

ترجمة: أ. د. سعيد حسن بحيري

جامعة عين شمس

كلية الألسن – قسم اللغة العربية

[1] أصل هذه الدراسة هو: "Cognitive Linguistics" للباحثة Vyvyan Evans. وقد نشرت في العدد الثاني من المجلد الثالث من مجلة WIREs Cognitive Science الصادرة عام 2012 في الصفحات 129-141.

إن علم اللغة الإدراكي هو أحد المنظورات الأسرع نمواً حول طبيعة اللغة والعقل، وعلاقتهما بتجربة اجتماعية فيزيائية (مجسَّدة) .

وهو مشروع نظري ومنهجي رَحْب، أكثر من كونه نظريةً مترابطةً بشكل وثيق. وتعهداته الأساسية موجزة، وهي التعهد الإدراكي: تعهد بتزويد بوصف اللغة، الذي يتلاءم ويتشابه مع ما هو معروف حول العقل والمخ من فروع عملية أخرى.

وتعهد التزام التعميم: الذي يُقدِّم تخصيصاً لوصف مبادئ عامة، تستعمل لجوانب اللغة الإنسانية .

وهكذا هذا فإن المقال يرسم الافتراضات، والصورة الشاملة التي تنشأ من هذه التعهدات، كما أنه مقدمةٌ في عمل علماء علم اللغة الإدراكي الرواد.

مقدمة

يُمثِّل علم اللغة الإدراكي منهجاً معاصراً للغة، وتعلُّم اللغة، والبنية التصورية، ولذلك فسوف أُقيِّد نفسي في هذه المراجعة بفروض لها صلة بهذه المجالات الخاصة بالبحث .

ويُزوِّد علم اللغة الإدراكي - فضلاً عن ذلك - بمنظور حول اللغة والعقل، معارض تماماً لكل من النحو التوليدي، وعلم الدِّلالة الشكلي . فبينما يُطوِّفان تحت مظاهر علم النفس الإدراكي، فإن علم اللغة الإدراكي يواكب في الكثير منه مناهج وظيفية للغة .

ومن المهم كذلك تأكيد أن علم اللغة الإدراكي ليس نظرية مفردة مترابطة بشكل وثيق، بل إنه مشروع نظري ومنهجي رَحب، حيث تكمن في ذلك قوته.

ومما يمد المشروع بالتماسك هو قائمتُه بالتعهدات (الالتزامات)، وفرضيات محورية. وقد زوَّدَت نظريات مؤثرة داخل المشروع ممارسةَ علم اللغة الإدراكي بالأدوات التحليلية والمنهجية التي يبحث بها الظواهر التي تُوجَّه إليها.

وما يجعل علم اللغة الإدراكي فارقاً في العلوم اللغوية المعاصرة هو تعلقُه المحوري

ببحث العلاقة بين اللغة الإنسانية والعقل، والتجربة الاجتماعية الفيزيائية. ولفعل ذلك يستخدم علم اللغة الإدراكي منظوراً محدداً بوضوح ومجسَّداً بشكل حتمي حول الإدراك الإنساني . وبهذا الاعتبار طور علماء علم اللغة الإدراكي عدداً من النظريات المؤثرة داخل مشروع متداخل الاختصاصات لعلم إدراكي، والتي تناضِل بوعي ذاتي من أجل (وتُقيِّم نفسها على أساس) مطلب أن تكون مقبولة نفسياً بتقديم ما هو معروف الآن حول العقل / المخ.

ويعود منشأ علم اللغة الإدراكي إلى دراسات علمية ظهرت في سبعينات القرن الماضي أجراها عدد من الباحثين منهم تشارلز فيلمور، وجورج لاكوف، ورونالد لانجاكر، وليونارد تلمي.

وقد انبثق هذا البحث من عدم الرضى بالمناهج الشكلية - وبخاصة النحو التوليدي، ونحو مونتاجو - السائدة آنذاك في فروع علم اللغة والفلسفة. وبينما كانت أصول علم اللغة الإدراكي – جزئياً - فلسفيةً في طبيعتها، كما هو جلي في المَعْلَم المنشور سنة 1980م ، "الاستعارة التي نحيا بها " للاكوف وجونسون.

فقد تأثر علم اللغة الإدراكي بشدة وعلى نحو دائم، بنظريات واكتشافات من علوم الإدراك الأخرى، وبخاصة علم النفس الإدراكي، كما تأثر حديثاً جداً بعلوم المخ، ولاسَّيما المنظور المتداخل الاختصاصات، المعروف بـ علم الأعصاب الإدراكي.

وقد تبنى علم اللغة الإدراكي بشكل نمطي عدداً من مناطق فارقة (مع أنها معاصرة) للتركيز . وقد تدرَّب بعضُ الباحثين داخل المشروع بدراسة البنية اللغوية وتنظيمها. وهذا يُشكِّل فرعاً لعلم اللغة الإدراكي يُشار إليه أحياناً بـ "مناهج إدراكية" في النحو . وتضمن أمثلة جديرة بالذكر كالنحو البنائي الذي يمثل في الواقع مجموعة من نظريات (ذات علاقة) مشتملة على النحو البنائي الجذري، والنحو البنائي الإدراكي اللذين طوَّرهما جولد برج، ولاكوف، بالإضافة إلى النحو الإدراكي الذي طوَّره عمل لانجاكر، وتلمي، ومشتملة على الفصل بين أنظمة قسم – مفتوح ، وقسم – مغلق للغة . وقد وظَّف آخرون اللغة بوصفها

وسيلة لدراسة جوانب التنظيم والبنية التصوريين. ويُشار أحياناً إلى دراسة جوانب العقل - مثل التمثيل المعرفي وبناء المعنى باستخدام اللغة بوصفها عدسة لفعل ذلك - بـ "علم الدِّلالة الإدراكي". وتضم النماذج نظرية الفضاءات العقلية، ونظرية المزج التصوري، ونظرية الاستعارة التصورية . وثمة فرع آخر متصل بدراسة معاني الكلمات، يُشار إليه أحياناً بـ "علم الدِّلالة المعجمي الإدراكي". وتشمل نماذج جديرة بالذكر نموذجَ تعدد المعنى الأساسي، وعمل جيرراتس حول علم الدِّلالة التعاقبي للنمط الأساسي. وحاول بعض الدارسين دمج الدراسة لكل من المجالات (LCCM) الثلاثة. وثمة نموذج حديث هو نظرية التصورات المعجمية والنماذج الإدراكية.

ويُقدِّم المقال نظرةً عامة في التعهدات (الالتزامات) النظرية الأساسية، والافتراضات، والصورة الشاملة (الكلية) لعلم اللغة الإدراكي . وسوف يخدم هذا في التزويد بمدخل إلى الهموم الرئيسية والتوجه النظري لهذا المنظور الذي يمتد بشكل سريع، ولذلك أُقيِّم المعتقدات المحورية لعلم اللغة الإدراكي.

سأفعل هذا أولاً باختبار التعهدات (الالتزامات) الأساسية التي يتعهد بها علماء علم اللغة الإدراكي الممارسين، وبعد ذلك أختبر الافتراضات الموجِّهة، والفروض القاصرة التي تعقب من هذه التعهدات.

وأخيراً أتدبَّر (أدرس) الصورة الشاملة النظرية والمنهجية التي بُنِيَت على هذه الافتراضات. ثم يُجمَل المقال بنظرة عامة في الاتجاهات الحديثة، والتوجهات الجديدة، في البحث اللغوي الإدراكي .

تعهدات علم اللغة الإدراكي

يُوجِّه علم اللغة الإدراكي تعهدان أساسيان:

أولاً: أنه يأخذ على نحو جاد بالدعامات الإدراكية للغة، وهو ما يُسمَّى بـ التعهد الإدراكي . ويحاول علماء علم اللغة الإدراكي أن يصفوا وينمذجوا اللغة في ضوء دليل تقاربي من علوم إدراكية أخرى وعلوم المخ .

ثانياً : يُقِر علماء علم اللغة الإدراكي بتعهد التعميم: تعهد وصف الطبيعة والمبادئ التي تُكوِّن معرفة لغوية بوصفها حصيلة قدرات إدراكية عامة – أكثر من رؤية اللغة بوصفها مكوِّنةً مثلاً قالباً مغلفاً بارزاً بشكل كلي للعقل.

(انظر تشومسكي، وفودر) .

هذا فضلاً عن افتراض أن اللغة تنشأ فقط من تخصيص سابق فطرى، بآلية تَعلُّم محددة – المجال .

ويفترض علم اللغة الإدراكي آلية تَعلُّم عامة - المجال ذات حساسية عالية للاستعمال والشيوع. وبوضوح يجب أن يُوجَد تخصيص سابق ما لتَعلُّم اللغة، بافتراض أن البشر يُظهِرون أنهم الصنف (النوع) الوحيد القادر على اللغة. ومع ذلك يؤكد علماء علم اللغة الإدراكي أهمية تعلم، في تطور لغوي، وبوجه خاص قدرات اجتماعية إدراكية عامة - المجال.

التعهد الإدراكي

إن إحدى السمات المحددة لعلم اللغة الإدراكي التعهد الإدراكي. وهذا يمثِّل تعهداً بالتزويد بوصف للغة يتلاءم مع ما هو معروف عن العقل والمخ من فروع أخرى. وهو هذا التعهد الذي يجعل علم اللغة الإدراكي إدراكياً، ومن ثم منهجاً تتداخل الاختصاصات أساساً في طبيعته .

ويمثل التعهد الإدراكي رؤية أن مبادئ البنية اللغوية يجب أن تعكس ما هو معروف عن الإدراك الإنساني من العلوم الإدراكية الأخرى، وعلم الأعصاب الإدراكي، والفلسفة. وبتعبير آخر يؤكد التعهد الإدراكي أن نماذج اللغة المقترحة يجب أن تعكس ما هو معروف عن العقل الإنساني بشكل أحرى من أن يملي بشكل جمالي بحت، مثل استعمال أنواع خاصة من الشكليات أو اقتصاد التمثيل.

وللتعهد الإدراكي عددٌ محدد من التشعبات:

أولاً : لا يمكن أن تتضمن نظريات لغوية أبنية أو عمليات تنتهك ما هو معروف عن الإدراك الإنساني، وعلى سبيل المثال إذا انتهك اشتقاق متوالٍ لأبنية نحوية قيوداً زمنية، اتخذتها معالجة لغة إنسانية فعلية، فإنه يجب أن يُنبَذ.

ثانياً : تعد نماذج تستخدم (توظف) خواص إدراكية راسخة لشرح ظواهر اللغة أكثر اقتصاداً من تلك التي بُنِيَت من قياسات بساطةٍ بشكل افتراضي (مثل الأناقة لدى تشومسكي - رؤية أن نموذجاً نظرياً يجب أن يتجنب إطناب التمثيل لصالح الاقتصاد بوصفه مسألة مبدأ، دون اعتبار أيٍّ لمثل ذلك المدعم بالحقائق التجريبية) .

مثلاً بافتراض قدر كبير من التقدم الذي حققه علماء علم اللغة الإدراكي دراسة التصنيف المقولي (انظر: لاكوف وتايلور بالنسبة للمراجعات) ، وتُعَد نظرية تستخدم الآليات ذاتها المتضمنة في التصنيف المقولي في مجالات إدراكية أخرى لكي تُنمذج بنية لغوية أبسطَ من تلك التي تفترض نظاماً منفصلاً .

أخيراً، إن الباحث اللغوي الإدراكي مَعْنِي بإنشاء دليل تقاربي للواقع الإدراكي لمكونات أيّ نموذج مفترض، سواء أكان هذا البحث قد قام به اللغوي الإدراكي أو لم يقم.

تعهد بالتعميم

يمثل التعهد بالتعميم تكريساً لوصف مبادئ عامة تُستخدَم لكل جوانب اللغة الإنسانية. هذا الهدف يعكس التعهد المعياري في العلم لينشد أوسع التعميمات بقدر ممكن. وعلى النقيض من ذلك تفرِّق بعض المناهج في دراسة اللغة غالباً بين ما يُصطلَح عليه أحياناً بالقدرة اللغوية إلى مجالات متميزة مثل: الفونولوجيا (الصوت)، وعلم الدِّلالة (معنى الكلمة والجملة)، والبراجماتية (المعنى في سياق الخطاب)، والمورفولوجيا (بنية الكلمة) ، والنحو (بنية الجملة) وهلم جرًّا.

(انظر: بينكر بالنسبة لحالة وثيقة الصلة بالموضوع) .

ونتيجةً لذلك يوجد في الغالب أساس صغير للتعميم عبر هذه الجوانب للغة أو بالنسبة لدراسة علاقتها الداخلية . وبينما يُسلِّم علماء علم اللغة الإدراكي بأنه ربما يكون من المفيد

معالجة مجالات مثل النحو، وعلم الدِّلالة، والفونولوجيا، لكونها متميزة نظرياً - فإنهم لا يبدؤون بافتراض أن "الأنظمة الفرعية " للغة منظمة بطرق مختلفة بشكل دالٍ. ومن ثم يُمثِّل تعهد التعميم تعهداً ببحث مفتوح لمسألة كيف تنبثق الجوانب المختلفة للمعرفة اللغوية من قائمة عامة من القدرات الإدراكية الإنسانية التي تعتمد عليها ؟ بشكل أحرى من افتراض أنها أُنتِجَت في قالب مغلف للعقل، مكوِّنة أنماطَ معرفةٍ متميزة للأنظمة الفرعية.

لقد حدَّد "التعهد بالتعميم" استنتاجات بالنسبة لدراسات اللغة .

أولاً: تركز الدراسات اللغوية الإدراكية على ما هو عام بين جوانب اللغة، بحثاً عن إعادة استعمال مناهج ناجحة، وتفسيرات عبر هذه الجوانب . على سبيل المثال كما يصور معنى الكلمة تأثيرات نمط أساسي، فهناك أمثلة جيدة وسيئة لصور المحال إليه لكلمات معطاة، ذات علاقة بطرق خاصة. وهكذا طَبَّقت دراسات مختلفة المبادئَ ذاتها لتنظيم المورفولوجيا، والنحو، والفونولوجيا . ولا يُعد تعميم تفسيرات ناجحة على مجالات متميزة للغة ممارسةً علمية جيدة . وهذه إذن الطريقة التي تعمل بها البيولوجيا على إعادة استخدام أبنية موجودة لأغراض جديدة، كلاهما على مقاييس زمنية نشوئية ومتطورة.

توجيه فروض علم اللغة الإدراكي

إضافةً إلى التعهدين الأساسين لعلم اللغة الإدراكي، يُبرز المشروع كذلك عدداً من الافتراضات الموجِّهة، وهذه تكوِّن فرضيات قاصرة، وتنشأ على أساس التعهدات الأساسية، وهي :

1 – فرضية إدراك مجسَّد.

2 – فرضية علم دلالة موسوعي .

3 – الفرضية الرمزية.

4- فرضية أن المعنى تشكيل تصوري .

5 – الفرضية القائمة على الاستعمال .

وتُفَصَّل هذه الفرضيات فيما يأتي :

فرضية إدراك مجسَّد

هذه الفرضية مكونة من جانبين .

الأول: يُلزم أن طبيعة الواقع ليست مقدمة بشكل موضوعي، ولكنها وظيفة لتجسيدنا النوعي – الخاص والفردي - الفرضية الفرعية لتجربة مجسدة.

الثاني: أن تمثيلنا العقلي للواقع أساسه في حالتنا العقلية المجسَّدة، فالحالات العقلية منتزعة من تجربتنا المجسدة – الفرضية التحتية للإدراك المؤسَّس.

وتحافظ الفرضية التحتية للتجربة المجسَّدة على ما يرجع إلى طبيعة أجسامنا، مشتملاً على بنائنا الهندسي العصبي التشريحي، فنحن نمتلك رؤية نوعية خاصة للعالم، وهذا يعنى أن تشكيلنا للواقع يُتوسَّط - بقدر واسع - بطبيعة تجسيدنا.

وثمة مثال للطريقة التي يؤثر بها تجسيدنا في طبيعة التجربة – في حقل الألوان، فبينما يكون للنظام المرئي الإنساني أنواعٌ ثلاثة لمستقبلات الصورة (مثلاً قنوات لونية)، فإن للكائنات الحية الأخرى غالباً عدداً مختلفاً. مثلاً النظام المرئي للسناجب، والأرانب، ومن المحتمل القطط، يستفيد من قناتين لونيتين، في حين أن الكائنات الحية الأخرى، بما في ذلك السمك الذهبي، والحمام، لها أربع قنوات لونية . وبامتلاكنا سلسلة أخرى للقنوات اللونية تؤثر تجربتنا مع اللون في ألفاظ سلسلة الألوان التي يمكن وصولنا إليها بطول نطاق اللون.

وتستطيع بعض الكائنات الحية أن ترى طبقة دون الحمراء، مثل الحيات المجلجلة، التي تصطاد فريستها في الليل، وتستطيع بشكل مرئي أن تكتشف الحرارة التي تصدر عن الكائنات الحية الأخرى . ولا يستطيع البشر أن يروا في هذه الطبقة (النطاق) – وتُحدِّد طبيعة جهازنا المرئي جانباً واحداً من تجسيدنا – طبيعة تجربتنا المرئية ونطاقها - مداها).

وثمة نتيجة أخرى للفرضية لتجربتنا المجسَّدة هي مثل تجسيد فردي داخل أنواع مختلفة، كذلك تصير تجربة مجسَّدة عبر أعداد فردية من الأنواع ذاتها . ولا يوجد الآن دعم

تجريبي لموقف أن البشر لديهم تجربة مجسَّدة فارقة راجعة إلى متغيرات فردية مثل استعمال اليد. وهذا يعنى أن أياً من المستعمل اليد اليمنى أو الأعسر يؤثر في الطريقة التي يُقيِّم بها المرء تصورات مثل: حسن وسيء، ومن ثم جوانب مهمة للطريقة التي يختبر بها الواقع .

إن لحقيقة أن تجربتنا مجسَّدة – أي مُشكَّلة جزئياً بطبيعة الأجساد التي لنا، وبتنظيمات العصبي –نتائج بالنسبة للإدراك– الفرضية التحتية لإدراك مؤسِّس. لتطرح طريقة أخرى للتصورات التي نمتلكها مدخلاً إليها، ولطبيعة "الواقع " الذي نفكر فيه، ونتحدث عنه، مؤسَّسةً في التمثيلات المتعددة النماذج التي تنبثق من تجربتنا المجسَّدة. وبشكل أكثر تحديداً تُشكِّل التصورات صور إعادة تنشيط لحالات المخ، التي سُجِّلت في أثناء تجربة مجسَّدة . مثل هذه الصور لإعادة التنشيط تشير تقنياً إلى نحو صور التظاهر – وهي فكرة سأوضحها فيما يأتي. فصور التظاهر مؤسَّسة في حالات متعددة النماذج للمخ، تنشأ من فعلنا وتفاعلنا مع محيطنا الاجتماعي الفيزيائي. مثل هذه التجارب تشتمل على تجربة حسية – حركية وتقبليه ذاتية، على نحو حالات تنشأ من تجربتنا الذاتية لمحيطنا الداخلي (الجسدي)، مشتملة على حسِّنا العميق، وكذلك تجارب متصلة بتجربة زمنية . ومن منظور الإدراك المؤسَّس يحمل العقل الإنساني بصمة تجربة مجسدة. وتُشكِّل التجربة المجسدة ومنظورات الإدراك المؤسسة معاً فرضيةَ إدراك مجسَّد .

فرضية علم دلالة موسوعي

إن فرضية علم دلالة موسوعي مكونة كذلك من جانبين:

أولاً ، فهي تُلزِم أن تمثيلات دلالية في النظام اللغوي، وما يُشار إليه غالباً بالبنية الدلالية يُقابل بتمثيلات في النظام التصوري. ويمكن، بل في الواقع تختلف التفاصيل المحددة فيما يتعلق بطبيعة العلاقة، مع ذلك ، عبر نظريات لغوية إدراكية مميزة . فعلى سبيل المثال فإن لانجاكر في نظريته في "النحو الإدراكي" يساوي بنية دلالية ببنية تصورية. في حين إيفانس، في نظريته التصورات المعجمية والنماذج الإدراكية، يدافع عن أن البنية الدِّلالية والبنية التصورية تشكلان شكلين تمثيليين بشكل مميز، وبتسهيل البنية الدِّلالية يمكن الوصول إلى (بعض جوانب) للبنية التصورية. ولا يجدي فتيلاً أن تكون الرؤية "التمثيلية " مترابطة

بفرضية علم دلالة موسوعي بشكل مباشر في نزاع مع منظور "المعنى الأساسي "، وهو ما يشير إليه علماء علم اللغة الإدراكي أحياناً بـ علم الدِّلالة الموضوعي، كما يُمثَّل له ببعض مناهج شكلية (مثلاً خاصة بشرط الصدق) في علم الدِّلالة.

أما الجزء الثاني من الفرضية، فيتصل برؤية أن البنية التصورية التي تتصل بها البنية الدِّلالية تُشكِّل شبكة واسعة من معرفة بنيوية – هذا قد أُشير إليه " بقدرة دلالية " تلك التي لها من ثم شبه بالموسوعة في طبيعته وفي مداها. وبطريقة التصوير تأمَّل في المادة المعجمية "أحمر"، فالمعنى المحدَّد الناشئ من أي مثال مقدَّم لاستعمال المادة المعجمية "أحمر" هو وظيفة لطبقة لتدرج ألوان مدركة حسياً مترابطة بقائمتنا الموسوعية لتمثيلات عقلية للأحمر، كما هو مقيَّد بسياق المنطوق المدمج فيه أحمر. فمثلاً تأمل الأمثلة الآتية (مأخوذة من إيفانس):

(1) كتب المعلم المدرسي بحبر أحمر في كل كتاب تدريبات التلميذ.

(2) السنجاب الأحمر منقرض تقريباً في الجزر البريطانية.

في كُلٍّ من هذين المثالين ثمة إعادة تنشيط بشكل مميز لتجربة إدراكية حسياً، تظاهر، قد حُضَّ عليه . ففي المثال الأول (1) التظاهر الإدراكي الحسي متعلق بأحمر زاهٍ، في حين أنه في (2) يُحَثُّ على تدرج بني /قاتم للأحمر . وبتعبير آخر ينشأ معنى المادة المعجمية "أحمر" عن تفاعل بين تمثيلات لغوية وتصورية، إلى حد أن أغلب المعرفة التصورية ذات الصلة تُنشط عند كل مثال للاستعمال . وتُوحِي أمثلة مثل هذين المثالين في (1) (2) بأن معنى الكلمة لا ينشأ بتفريغ تمثيل لغوي بشكل محض. الأحرى أنه يتضمن مدخلاً إلى جزء أساسي واسع بشكل محتمل لمعرفة موسوعية. التظاهر إذن هو إعادة تنشيط لجزء من هذه المعرفة الموسوعية غير اللغوية.

ونتيجة ذلك فإن كل مثال فردي لاستعمال كلمة يقود إلى تفسير متميز، فعلى سبيل المثال تعني كلمة "سريع" شيئاً مختلفاً بعض الشيء في: سيارة سريعة، وطعام سريع، وفتاة سريعة، ومجاز سريع، لطريق المحركات. ويتبع هذا كأي مثال للاستعمال يشكل حدثاً استعمالياً مميزاً، يمكن أن يُنشِّط جزءاً مختلفاً للمعرفة الموسوعية بشكل محتمل،

تُسِّهل مادة معجمية مدخلاً إليه (إليها) .

الفرضية الرمزية

تلزم الفرضية الرمزية أن الوحدة الأساسية للنحو مزاوجة لصيغة – ومعنى أو وحدة رمزية. ويُصطلَح بشكل مختلف على الوحدة الرمزية بـ تجمع رمزي في النمو الإدراكي للانجاكر، أو تكوين في مناهج نحو التكوين . وتواصل وحدات رمزية السلسلة الكاملة من المعجمي بشكل تام إلى التخطيطي بشكل كامل، فعلى سبيل المثال (كره، نفور) Disate (غير) في dis ، تتضمن أمثلة الوحدات الرمزية مورفيمات مثلا (مات) HeKicked the bucket وكلمات كاملة (مثل: قطة، يجري، غداً)، وتعبيرات اصطلاحية، مثل:

John baked Sally Acake وتكوينات مستوى الجملة التكوينُ المتعدي لمفعولين، كما يُمثّل له بالتعبير : (خبز جون لسالي كعكة).

(انظر: جولدبرج) . وقد قدمت بعض أمثلة لوحدات رمزية في الجدول (1)

نمط الوحدة الرمزية	المصطلح التقليدي	مثال
مركب وتخطيطي (غالباً)	النحو	beالصيغة م س – بـ م سen زمن فعل - لمعنى : فعل من منظور المتقبِّل .
مركب وخاص (غالباً)	تعبير اصطلاح	Pull الصيغة: - زمن سا ق م س (يخدع) المعنى : يضايق كمزحة
مركب لكنْ مقيد	مورفولوجيا	Sالصيغة : اسم - (علامة الجمع) المعنى : أكثر من شيء واحد الصيغة : فعل – زمن المعنى : إحالة زمنية فيما يتعلق بتشفير الزمن الصيغة : اسم المعنى : شيء
نووي وتخطيطي	أقسام الكلمة	الصيغة : فعل المعنى : علاقة مؤسَّسة – زمنياً
نووي وخاص	مواد معجمية	الصيغة : أل المعنى : كيان خاص الصيغة : قطة المعنى : حيوان أليف

جدول 1 أمثلة لوحدات رمزية

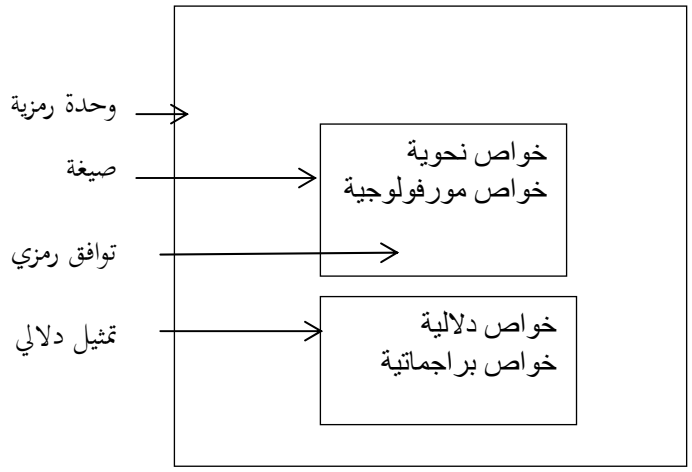

شكل 1 وحدة رمزية

وبشكل أكثر تحديداً، تُلزِم الفرضية الرمزية بأن النحو العقلي يتكون من صيغة، ووحدة دلالية، وتوافق رمزي يصل بينهما. هذا مقيد في الشكل (1) . وبتعبير آخر تُلزِم الفرضية الرمزية بأن النحو العقلي يتضمن وحدات تتكون من مزاوجات بين صيغة ومعنى. وإحدى نتائج الفرضية الرمزية أن ثمة وحدات لا تكوِّن مزواجات من صيغة ومعنى، مثل القواعد المجردة المفترضة في الإرث التوليدي، على سبيل المثال، مستبعدة من نحو عقلي لمستعمل اللغة.

ويفترض لانجاكر مطلباً مضمونياً، مبدأ يؤكد أن وحدات النحو يجب أن تتضمن مضموناً فعلياً: وحدات بنية دلالية، وصيغة فونولوجية (حتى إن كانت تخطيطية فونولوجياً) وهي موصولة بتوافق رمزي. وعلى نحو مهم تمثل الفرضية الرمزية – كما هي متجلية مثلاً في المطلب المضموني للانجاكر – عودةً لبعض جوانب للأفكار النووية للإرث البنيوي الأمريكي، ولكن مع تجديد دالٍ لمفهوم المعنى .

لتبني الفرضية الرمزية عدد من النتائج المهمة لنموذج للنحو، لأنَّ العنصر الأساسي هو الوحدة الرمزية، ويحقق المعنى وضعاً محورياً في مناهج لغوية إدراكية في النحو. وتبعاً لهذا – بوصفها الوحدة النحوية الأساسية – تكون وحدة دلالية : لا يمكن أن تُدرس صيغة بشكل مستقل عن المعنى.

والنتيجة الثانية هي أنه كما لا يوجد فصل مبدئي بين دراسة علم الدِّلالة والنحو، فإن

دراسة النحو هو دراسة النطاق الكامل للوحدات التي تشكل اللغة من المعجمية إلى النحوية . ويفترض علماء علم اللغة الإدراكي " تسلسل المعجم – النحو" ليقيّد هذا المنظور. وبينما يُشكّل نحو لغة ما من وحدات رمزية، فإن الوحدات الرمزية تُظهِر اختلافات كيفية في مصطلحات التخطيطية الخاصة بها. وفي أحد الأطراف وحدات رمزية مخصَّصة بقدر كبير في مصطلحات صيغها المعجمية وفي مصطلحات ثراء محتواها الدِّلالي . مثل هذه الوحدات الرمزية – على سبيل المثال الكلمات – تقع في الطرف " المعجمي" لتسلسل المعجم – النحو. وفي الطرف الآخر تقع بقدر كبير وحدات رمزية تخطيطية، تخطيطية كلتاهما في مصطلحات محتوى فونولوجي ودلالي. ومثال وحدة رمزية من هذا النوع التكوينُ المتعدي في مستوى – الجملة، الذي دُرِس بالتفصيل على يد جولد برج . إن قوالب نحوية في مستوى – الجملة غير مملوءة معجمياً مثل التكوين المتعدي لمفعولين ملازمة لأن يكون لها صيغة تخطيطية ومعنى تخطيطي، مرتبطة بهما عرفياً على نحو ما هو ممثل في (3) :

(3 أ) الصيغة : مسند إليه فعل م س 1 م س 2

(3 ب) المعنى : س يسبب لــ ص أن يتلقى ى

(جون خَبَز لسالي كعكة)

تقع وحدات رمزية من هذا النوع في الطرف "النحوي " لتسلسل المعجم – النحو. وبينما تختلف وحدات رمزية معجمية ونحوية بشكل تام في مصطلحات كيفية، فهناك الأمر نفسه في الأساس لكونه موصوفاً رمزياً في طبيعته ومعناه . وفضلاً عن ذلك فإن أمثلةً مثل هذه هي أمثلة طرفية . ويوجد نطاق لوحدات رمزية في كل اللغات التي تشغل مواضيع مختلفة بطول التسلسل، هي أقل طرفية .

ثمة نتيجة ثالثة هي أن الوحدات الرمزية يمكن أن تتعلق إحداها بالأخرى، كلتاهما في مصطلحات البساطة للصيغة والصلة الدلالية . وإحدى التجليات لمثل هذه العلاقات في مصطلحات تخطيطية أو تخصيصية نسبية . ويمكن أن تكون وحدة رمزية مثل هذه أكثر (أو أقل) تمثيلاً خاصاً للأخرى .

وينمذج علماء علم اللغة الإدراكي العلاقات بين وحدات رمزية في مصطلحات شبكية، مرتبة بشكل متدرج متصلة بمستويات التخطيطية – وهذه مسألة أعود إليها فيما يأتي حين أناقش الفرضية القائمة – على الاستعمال. وأخيراً، إن بنية التأسيس – ومن ثم الطبيعة التأليفية للغة – هي وظيفة وحدات رمزية صارت مدمجة أو منصهرة لكي تُوجِد وحدات نحوية أكبر، مع منظرين مختلفين مقترحين آليات مختلفة بصورة طفيفة بالنسبة لمسألة كيف ينشأ هذا ؟ فعلى سبيل المثال يُلزِم لانجاكر أن بنية التأسيس تنبثق مما يُصطلح عليه بصور إسناد مستقلة (أو علاقية) تصورياً مثل الأفعال، مشفرة خانة تخطيطية، يُصْطَلح عليها بـ موقع تفصيل . ويُملأ موقع التفصيل بصور إسناد مستقلة (أو اسمية) تصورياً، مثل الأسماء .

وعلى النقيض من ذلك يبرهن جولد برج، في نظريته لنحو التكوين الإدراكي، على أن الدمج راجع إلى عملية انصهار، تشغل مكاناً بين خانات مستوى – الفعل، التي يُصطلح عليها بأدوار مشاركة وأدوار متغير مستوى – الجملة – انظر إيفانس لمزيد من النقاش لهذه المسائل.

فرضية أن المعنى تشكيل تصوري

يتضمن فهم اللغة التفاعلَ بين بنية دلالية وبنية تصورية، على نحو ما تتَوسَّط بواسطة آليات وعمليات لغوية وتصورية مختلفة. وبتعبير آخر إن تكوين معنى متوسط لغوياً لا يتضمن ببساطة التأليفية، بمعنى فريجه حيث تُشِّكل فيها كلمات معاني مدمجة في نمط رتيب، مثل أن معنى الكل ينشأ من مجموعة الأجزاء – انظر إيفانس بالنسبة لنقاش نقدي لهذا المفهوم للتأليفية. ويتعهد علماء علم اللغة الإدراكي بموقف أن معنىً متوسطاً لغوياً يتضمن تشكيلاً تصورياً، يقال إنه معالجة إدراكية لنظام أعلى، بعضها (أو أكثرها) غير لغوي في طبيعته.

وبتعبير آخر، إن فرضية أن المعنى تشكيل تصوري تُلزِم بأن الطريقة التي تؤلَّف بها وحدات رمزية في أثناء فهم اللغة تُسبِّب وحدةَ المعنى التي هي غير لغوية في طبيعتها – مفهوم التظاهر المقدَّم فيما سبق – وتعتمد جزئياً على عمليات غير لغوية للدمج .

وهناك منهجان جديران بالذكر في تكوين المعنى الذي تطور داخل علم اللغة الإدراكي. الأول متعلق بأنواع آليات غير لغوية محورية لتكوين المعنى، إنها غير لغوية أساساً في طبيعتها. وتشير عمليات تكوين المعنى من هذا النوع إلى ما هو مثل الإدراك الخلفي.

وهناك نظريتان متميزتان، ولكنهما متعلقتان بصورة وثيقة، للإدراك الخلفي: نظرية الفضاءات العقلية، ونظرية المزج التصوري. وتُعد نظرية الفضاءات العقلية متعلقة بطبيعة الفضاءات العقلية وخلقها، فمجموعات صغيرة للبنية التصورية مبنية على نحو ما نفكر ونتكلم. أما نظرية المزج التصوري فمتعلقة بالآليات والشبكات المدمجة التي تعمل عبر مجموعات من الفضاءات العقلية لإنتاج جوانب منبثقة للمعنى- معنى بمفهوم ما جديد.

وثمة منهج أحدث هو نظرية التصورات المعجمية والنماذج الإدراكية المسمَّى حسب المكونين المحورين في النظرية: التصور المعجمي والنموذج الإدراكي.

وتعد نظرية التصورات المعجمية والنماذج الإدراكية LCCM متعلقة بدور قرائن (مثيرات) لغوية وعمليات لغوية في تكوين المعنى (تصورات معجمية)، والطريقة التي تُسهِّل بها هذه التصورات المعجمية المدخلَ إلى معرفة غير لغوية (نماذج إدراكية) في عملية فهم اللغة.

وتبعاً لذلك فكما يكون التأكيد على طبيعة مشجعات لغوية ودورها في تكوين المعنى تمُثل نظرية التصورات المعجمية والنماذج الإدراكية، محاولةَ التزويد بمنهج الدرجة الرئيسية في الآليات الإدراكية وبوجه خاص دور اللغة في تكوين المعنى.

الفرضية القائمة على الاستعمال

الفرضية الأخيرة المناقَشَة هي الفرضية القائمة على الاستعمال. هذه تُلزِم بأن النحو العقلي لمستعمل اللغة مُشكل بتجريد وحدات رمزية من حالات موقفية لاستعمال اللغة: منطوقات-أحداث-استعمالٍ مميزة متضمنة وحدات رمزية لأغراض الإشارة إلى مقاصد محلية واتصالية وثيقة الصلة سياقياً.

وثمة نتيجة مهمة لتبني الفرضية القائمة على الاستعمال هي أنه لا يوجد فصل مبدئي بين معرفة اللغة واستعمال اللغة، لأن المعرفة تنبثق من الاستعمال. ومن هذا المنظور معرفة اللغة هي معرفة كيف تُستعمل اللغة ؟. ويقع هذا المنظور في تناقض قوي مع افتراض تشومسكي، وهو أن المحيط اللغوي مُفقِر، وهو المسمى بفقر المثير.

وفي حقيقة الأمر هناك نطاق واسع للقرائن يستعمله الأطفال عند تعلم اللغة، وقد أظهر أطفال وبالغون بشكل متكرر حساسيةً كبيرة لهذه القرائن (المثيرات). وبالإضافة إلى ذلك هناك دليل على آليات تعلم عامة-المجال، في مقابل أداة خاصة – المجال لتشومسكي. وزيادة على ذلك أنه من الواضح الآن كيف يكون أناس مُحنكون عند تعلُّم إحصائي قائم على مدخل لغوي. وليس من الضروري افتراض وجود معرفة لغوية فطرية (النحو العالمي)، ولا حاجة لنا إلى أداة اكتساب لغوي.

وتنبثق الوحدات الرمزية التي تنتهي إلى أن تُختزَن في عقل مستعمل اللغة من خلال عمليات تجريد وتخطيط قائمة على نماذج إعادة إدراك وقدرات قراءة المقصد.

وهكذا تُكّون وحدات رمزية ما ربما يفكر فيه على أنه روتينيات عقلية مكوِّنة، كما رأينا لمزاوجات عرفية للصيغة والمعنى.

إن إحدى نتائج الفرضية القائمة على الاستعمال أن وحدات رمزية تُظهِر درجات التطويق – الدرجة التي أُسِّست بها وحدة رمزية بوصفها روتيناً إدراكياً في عقل مستعمل اللغة. وفضلاً عن ذلك ربما يكون تطويق الاستعمال وتأثيراته مختلفاً بالنسبة لمستعملين مختلفين. وإذا كان النظام اللغوي وظيفة استعمال اللغة، فإنه يتبع هذا أن الشيوع النسبي الذي يُواجِه به المتكلم كلمات خاصة أو أنواعاً أخرى من وحدات رمزية سوف يؤثر في طبيعة النحو. يعني هذا أن وحدات رمزية تُواجَه بشكل أكثر شيوعاً تصبح أكثر تطويقاً. وتبعاً لذلك تميل الوحدات الرمزية المطوقة في الأغلب لتشكيل النظام اللغوي في مصطلحات نماذج الاستعمال، على حساب الكلمات أو التكوينات الأقل شيوعاً، ومن ثم الأقل تطويقاً بصورة جيدة. وهكذا النحو العقلي، فبينما هو مشتق من استعمال اللغة، فإنه يؤثر كذلك في استعمال اللغة.

وثمة نتيجة أخرى للفرضية القائمة على الاستعمال هي أنه بمقتضى النحو العقلي الذي وحدات رمزية موجودة في الاستعمال، والمستخدم لقدرات إدراكية مثل التجريد لاستخلاصها من الاستعمال، يُظهِر نظام اللغة إطناباً، وهذا يعني أن الإطناب متوقع في النحو العقلي.

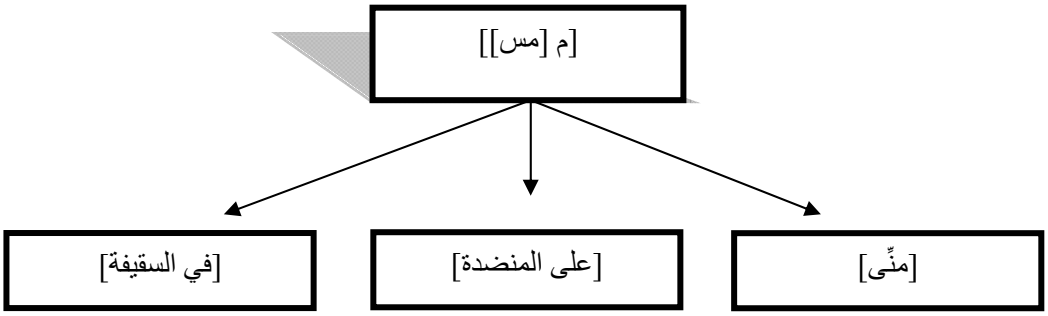

شكل (2) مخطط – حالة علاقات

وكما ذُكِر آنفاً ثمة وحدات رمزية منمذجة في مصطلحات شبكة عنكبوتية. والإطناب بين وحدات رمزية مقيَّد في مصطلحات ترتيب متدرج لعلاقات مخطط حالة، ملتزمة بين وحدات أكثر تخطيطية ووحدات رمزية أكثر خصوصية. وعن طريق التصوير يُقيِّد الشكل (ص) علاقات المخطط- الحالة التي تلزم بين وحدة رمزية أكثر تجريداً [م [م س]]، والحالات الأكثر خصوصية لهذا المخطط المجرد، مثل [منِّى]. وتتنبأ الفرضية القائمة على الاستعمال بأنه مثلما [م [م س]] سمة لحالات كثيرة (أكثر خصوصية) للاستعمال، فإنها تصبح مطوَّقة في ذاكرة المدى البعيد، منسجمة مع صور تمثيلها الأكثر خصوصية. وفضلاً عن ذلك فإن المخطط [م[م س]] وحالاته [مثلاً]، مختزنات في النمط ذي الصلة، كما هو مصوَّر في شكل (2).

الرؤية الشاملة لعلم اللغة الإدراكي

تُحدِث التعهدات الأساسية، وتعهدات علم اللغة الإدراكي رؤيةً شاملة مميزة وفارقة، لها عدد من الأبعاد. وبشكل كلي هذه تُحدِث منظوراً لغوياً- إدراكياً فارقاً حول طبيعة اللغة وتفاعلها مع جوانب غير لغوية للإدراك. وفي هذا الجزء حُدِّدت وفُصِّلت خمسة أبعاد للرؤية الشاملة لعلم اللغة الإدراكي.

اللغة تعكس تنظيماً تصورياً

تبعاً لفرضية الإدراك المجسَّد، يرى علم اللغة الإدراكي اللغة عاكسة للطبيعة المجسدة لبنية وتنظيم تصورين.

ولذا يدرس علم اللغة الإدراكي اللغة بالأخذ بجدٍ بالطريقة التي تجلي بها اللغة بنية تصويرية مجسدة.

وثمة مثال بارز لها هو دراسة الاستعارة التصويرية. فمثلاً يدعي منظرو الاستعارة التصويرية أن البشر يستخدمون اللغة متصلةً بمزيد من مجالات مجردة مثل الزمن في مصطلحات الفضاء كما هو مُمثَّل في (4)، أو الحالات في مصطلحات الأماكن كما هو مُمثَّل في (5)، وبشكل محدَّد لأنه في مستوى البنية التصويرية يُبنَى الزمن بشكل منظم في مصطلحات بنية تصويرية معزَّزة من مجال الفضاء، والحالات مبنية في مصطلحات الأماكن في فضاء.

(4) عيد الميلاد يدنو.

(5) وقعتُ في الحب.

اللغة عدسة على العقل

ثانياً، تعمل اللغة بوصفها عدسة لدراسة جوانب العقل. إنها تفعل هذا، كما يبرهن علماء علم اللغة الإدراكي، بشكل محدَّد، لأنها تعكس مبادئ تنظيمية لإدراك مجسَّد. فاللغة لا تدور على مبادئ مترابطة بقالب مغلف يُفصل عن بقية الإدراك، كما التزم تشومسكي. فعلى سبيل المثال بدراسة نماذج استعارية في اللغة، يكون عالم علم اللغة الإدراكي قادراً على أن يُدرِك نماذج في طبيعة بنية تطورية وتنظيمها. والاستعارات التصورية، بوصفها تخطيطات عابرة للمجال- تخطيطات تتصل بمجالات تصورية بشكل مميز بطريقة غير متساوقة- تُثبَت بفضل اختبار نماذج فارقة ومنتجة في اللغة للكشف عن وجودها.

بديهي أنه بالحفاظ على التعهد الإدراكي يجب أن يُكمَل دليل لغوي على بنية تصورية بدليل تقاربي من العلوم الإدراكية الأخرى. ودليل داعم لبعض المطالب الرئيسية التي

تشكلها نظرية استعارة تصورية، مثلاً مع اعتبار لاستعارات زمن- بوصفه- فضاء، قد نشأ على أساس دراسات إيمائية وتجارب سلوكية (صندوق1).

صندوق (1)

دليل تقاربي

بافتراض الطبيعة الخاصة يتداخل الاختصاصات لعلم اللغة الإدراكي يستخدم علماء علم اللغة الإدراكي غالباً دليلاً تقاربياً لتدعيم منظوراتهم ونظرياتهم. وبالإضافة إلى الاعتماد على المناهج التقليدية لعلم اللغة- الحدس والتحليل النظري- لتوليد افتراضات، تعتمد ممارسة علماء علم اللغة الإدراكي بشكل متزايد على اكتشافات من نطاق خارجي لمناهج أخرى من نطاق علوم سلوكية وعلوم المخ لإثبات مزاعمهم النظرية. وتمد تلك الثانية بخطوط تقاربية لدليل لدعم مطالبهم. وبالاعتماد على اكتشافات بشكل عام تشتمل على تلك المستنبطة من مدونات لغوية، ودراسات للإيماء، ولغة العلامة، وتحليل خطابي، ومناهج تجريبية في فرع علم اللغة النفسي، وتجارب سلوكية من علم النفس الإدراكي، ومسح المخ، ومناهج تصويرية من علم الأعصاب الإدراكي، وكذلك النمذجة الحاسوبية.

اللغة تزود بآلية لنمط التناول

إن لغة محددة مكونة من مخزون خاص باللغة لوحدات رمزية. وباتباع الفرضية الرمزية، فإن أي لغة موجودة تُزوِّد بوسائل رؤية الحالة ذاتها، موقف أو حدث، من نطاق منظورات يكون متاحاً عرفياً لمستعمل اللغة – إتاحة مصادر رمزية خاصة باللغة، وبتعبير آخر تُزوِّد لغة مستعمل اللغة بمصادر لرؤية المنظر نفسه بطرق متعددة، ومن ثم خيارية. هذا يُكوِّن آلية لنمط التناول. فنمط التناول مصطلح تقني داخل علم اللغة الإدراكي، للسهولة التي بها يمكن أن يُشفَّر الموقف نفسه لغوياً بطرق متعددة. على سبيل المثال، شخص ما لا يكون منفصلاً بسهولة عن ماله (أو مالها) يمكن أن يُوصف بـ "بخيل"، أو بـ"مقتصد". وبالحفاظ على فرضية علم دلالة موسوعي تُهم كل كلمة من هاتين الكلمتين فيما يتعلق بإطار خلفي مختلف أو نموذج إدراكي، يُزوِّد بقائمةٍ مميزة لصور التقويم.

وبينما تُمثّل "بخيل" زعماً سلبياً ضد إطار تقويمي للإعطاء والمشاركة، فإن "مقتصد" تتعلق بإطار إدارة حَذِرة للمصادر (اقتصاد في النفقة)، ضد ما يُمثَّل زعماً إيجابياً. ولذلك يُزوِّد خيارٌ معجمي بطريقة أخرى للتأطير بشكل ظاهر للموقف نفسه، محدثاً نمط تناول مختلف. وفي الحقيقة إن أي لغة محددة، بفضل احتواء على قائمة خاصة بلغة لوحدات رمزية، تُزوِّد بتلك الوسيلة بمخزون جاهز خاص- باللغة لتناول تجربة إنسانية، والعالم بطرق مختلفة، على نحو ضروري، وأحد أسباب ذلك أن لغات مختلفة تُشفِّر غالباً أفكاراً، ومن ثم منظورات مميزة للثقافة، فمثلاً الكلمة الكورية "nunchi" التي ربما تُترجَم إلى "قياس العين "في الإنجليزية، تُزوَّد بوسيلة مُشكلة عرفياً لتشفير فكرة أن مُضيفاً يُقيِّم، هل يحتاج ضيف إلى مزيد من الطعام أو الشراب لتجنب أن يُربَك الضيف بحمله على أن يطلبه؟.

بديهي أن لغات تُزوَّد بوسائل عرفية لأنماط تناول متعددة، حتى حين تُنقَل فكرتان متشابهتان كلتاهما إلى لغتين مختلفتين. فمثلاً، الإنجليزية والفرنسية- بينهما علاقة من ناحية الأصل والمنطقة- لهما وسائل عرفية للتعبير عن مفهوم الوعاء: الحرف in (في) بالنسبة للإنجليزية، وdans (داخل/في) بالنسبة للفرنسية. وعلاوةً على ذلك يُنمَّط عرفياً تناول المنظر المتضمِّن طفلاً يسير (في) تحت المطر، في الإنجليزية، بإظهار علاقة "وعاء"، كما هو مدلل عليه بالمثال (6) ولكن بإظهار علاقة "تحت" كما هو مشفَّر بالحرف الفرنسي sous كما هو مدلل عليه في (7).

(6) The boy is walking in the rain.

(7) Le gamin marche sous le pluie

The boy walks under the rain.

The boy is walking in the rain.

(الطفل يسير تحت (في) المطر).

أمَّا ما هو جدير بالملاحظة حول هذه الأمثلة فما تُوضِّحه حول الطريقة التي يُنمَّط بها

عرفياً تناول لغتين بينهما علاقة وثيقة نسبياً، لتجربة مشابهة يومية، فيما يعادل طرقاً مختلفة تماماً.

اللغة تؤثر في إدراك غير لغوي

إن مناقشة المنطوقات الإنجليزية والفرنسية في (6) و (7) تساعد في تصوير البعد الرابع للرؤية الشاملة لعلم اللغة الإدراكي. وكما تُزوِّد اللغة بوسائل تناول الواقع بطرق متعددة، وعلاوةً على ذلك تبقى متصلة بتمثيل تصوري، فإن لها وظيفة تحويلية: وهو أنه يمكن أن تُؤثِّر في جوانب إدراك غير لغوي. يعني أن اللغة لا تعكس فقط تمثيلاً تصورياً؛ بل إنها يمكن أن تؤثر فيها وتتأثر بها.

على سبيل المثال كما أن كلاً من الفرنسية والإنجليزية قد شكلت عرفياً طرائق متعددة لتشفير منظر حَيِّزي خاص، فإن هذا يؤدي إلى ما عنونه سلوبن باختلافات في التفكير من أجل الكلام: يجب أن يولي مستعملو أية لغة محددة انتباهاً لجوانب خاصة لواقعهم المختبَر. وفي حساب الآخرين لكي يحزموا أفكارهم لأغراض تواصل لغوي. ويُلزم علماء علم اللغة الإدراكي بأن هذا "الحزم" المميز للغة قد عمَّق نتائج حول إدراك غير لغوي. يعني هذا أن اللغة تؤثر في كيفية إدراكنا جوانب محيطنا الاجتماعي الفيزيائي، وفي كيفية تفكيرنا حول الواقع واستقلال اللغة.

فمثلاً استنتجت ليرا بروديتسكي - اعتماداً على اكتشافات سلوكية - أن اختلافات لغوية متقاطعة في تناول كل من الزمن والجنس تؤثر في أداء أنشطة غير لغوية. هذه الرؤية بداهةً جزء من انبعاث في عمل للغويين من طرز نظرية مختلفة، صرحاء بشكل متزايد في الدفاع عن منظور (وورفي جديد) حول العلاقة بين اللغة والإدراك غير اللغوي. هذا الانبعاث يمكن أن يُرجَع إلى العمل الرُشَيمى لجون لوسي حول التصنيف المقولي. ومنذ ذلك الحين طُبِّق المنظور- الوورفي الجديد على نطاق واسع للمجالات، ربما الفضاء الأكثر جدارة بالذكر والإدراك الحسي للون. وثمة تصوير كلاسيكي للطريقة التي يمكن أن تؤثر بها لغة في التفكير، يرجع إلى تجربة قام بها وجنتنر. فقد وجَّه جنتنر وجنتنر في عملهما موضوعات مختلفة متحدثة بالإنجليزية في "نماذج قياسية" للكهرباء.

جدول (2) نموذج نظام هيدروليكي

نظام هيدروليكي	دائرة كهربية
أنبوب	سلك
مضخة	بطارية
أنبوب ضيق	مُقاوم
ضغط الماء	فُولتية
ضيق الأنبوب	مقاومة
معدل تدفق الماء	تيار

المصدر: جنتنر وجنتنر (1982، ص110)

جدول (3) نموذج حشد متحرك

حشد متحرك	دائرة كهربية
مسلك/ ممر	سلك
حشد	بطارية
أناس	مُقاوِم
دَفْع أناس	فُولتية
أبواب	مقاومة
معدل مرور الناس	تيار

المصدر: جنتنر وجنتنر (1982، ص120)

ويُعوِّل نموذج قياسي على سيناريو معروف بشكل نسيب، أو نظام لفهم نظام معروف بشكل أقل، حيث تقع أجزاء وعلاقات النظام المعروف في علاقة شَبَه بتلك التي في النظام المعروف بشكل أقل، هناك الكهرباء. ومن خلال القياس يمكن أن تُستنبَط موضوعات

باستخدام النظام المعروف.

وفي التجربة تحدثت مجموعة عن أن الكهرباء يمكن أن تُمثَّل على أنها حشد متزاحم للناس، في حين أن مجموعة أخرى قد تحدثت عن أن الكهرباء يمكن أن تُمثَّل على أنها ماء متدفق خلال أنبوب، كما في نظام هيدروليكي. وقد لخّصت التخطيطات بين هذين النموذجين القياسيين ودائرة كهربية في الجدولين 2و3.

ومن المهم أن كل نموذج قياسي يتنبأ بشكل صحيح بجوانب مختلفة لسلوك دائرة كهربية، ولكن لم تكن مساعدة مع جوانب أخرى. فعلى سبيل المثال سوف تنتج دائرة ببطاريات متصلة بشكل متسلسل تياراً أكثر من دائرة ببطاريات في توازٍ. يُتنبَّأ هذا بالقياس المبني على النظام الهيدروليكي، حيث ستنتج مضخات متسلسلة الواحدة تلو الأخرى معدَّل تدفق أكبر للماء. وفي نموذج حشد متحرك، حيث تتساوق البطارية ببساطة مع الحشد، من الصعب التفكير في تقابل ذي معنى بين اتصال متسلسل واتصال متوازٍ.

وتُقلِّل مُقاوِمات متسلسلة في دائرة كهربية تياراً، في حين أن مُقاوِمات متوازية تزيده. ويعد نموذج الحشد المتحرك أفضل عند التنبؤ بهذا الجانب لسلوك الكهرباء، حيث تنمذج المقاومة في مصطلحات بوابات. فإن بوابات متوازية تسمح باجتياز مزيد من الناس، في حين أن بوابات متسلسلة تسمح باجتياز أناس أقل.

وقد افترض جنتنر وجنتنر أنه إذا استعملت موضوعات نماذج قياسية مختلفة لتستنبط عن الدائرة، فإن كل مجموعة يجب أن تنتج نتائج مختلفة بشكل دراماتيكي تُكوِّن بشكل دقيق ما كشفت. فالموضوعات التي وُجِّهت في النظام الهيدروليكي كانت أفضل عند التنبؤ بشكل صحيح بتأثير بطاريات متسلسلة في مقابل بطاريات متوازية في التيار، في حين أن الموضوعات التي كانت مألوفة مع نموذج الحشد المتحرك كانت أفضل عند التنبؤ بتأثير مقاومات متسلسلة في مقابل مقاومات متوازية في التيار. هذه الدراسة تكشف عن أن "اختيارات" مختلفة للغة تمثيل تصورات يمكن بالفعل أن تُؤثِّر في تفكير غير لغوي مثل الاستنتاج وحل المشكلة.

قدرة إنسانية عامة على التصور

بديهي أن إحدى المهمات التي مهدت لأولئك الذين يشتركون في منظور وورفي (جديد)، أن هذا يستلزم أن اللغة تُحدِّد كيف يُرى العالم ويُصنَّف مقولياً؟.

وإذا كانت هذه الرؤية صحيحة، فإن اللغة سوف تمد بشكل مؤثر بغلاف مستقيم، منتجاً بطرق مميز بشكل كلي للتشكيل التصوري عبر لغات ومستعملي لغات، الذي قد يكون غير قابل لأن يُذلَّل. ومع ذلك تعالج الرؤية الشاملة لعلم اللغة الإدراكي اللغةَ بوصفها مجرد آلية من الآليات التي يبنى بها البشر واقعهم الإدراكي الحسي، والإدراكي، والاجتماعي الثقافي، فإن البشر المعاصرين إدراكياً لديهم قدرة تصورية عامة، فنحن نشارك أنواعنا ذاتها نطاقاً مشابهاً لآليات وعمليات إدراكية، تمدُّنا بطرق متعددة لتناول الواقع.

إن اللغة مجرد كيفية واحدة، ومن ثم، مجرد طريقة نتفاعل بها، ونتعلم حول محيطنا، وواقعنا الاجتماعي الثقافي، وآخرين حولنا وأنفسنا. ويدرك علماء علم اللغة الإدراكي بشكل تام أن هناك طرقاً يختبر بها البشر محيطهم، مشتملة على تجربة حسية- إدراكية والتقبل الذاتي، وتجارب ذاتية، مشتملة على التأثير، والحس العميق، وتقويمات وأحوال إدراكية شتى. كل هذه التجارب تمد بأساس غني لتعدد تمثيلات عقلية، مزودة في الغالب "برؤى" متممة، بل متنافسة للواقع.

ومن منظور علم اللغة الإدراكي فإن بنية دلالية تُشفِّرها اللغة يمكن أن تؤثر في صور تشكيلنا التصوري، ومُخرجَات أخرى لوظيفة إدراكية، مثل التصنيف المقولي، على سبيل المثال، ومع ذلك لا تحددها اللغة.

خلاصة

إن علم اللغة الإدراكي منهج معاصر للمعنى، والتنظيم اللغوي، وتعلم اللغة وتغيرها، والبنية التصورية. هو إذن أحد المنظورات الأسرع نمواً وتأثيراً في طبيعة اللغة والعقل وعلاقتهما بتجربة (مجسَّدة) اجتماعية فيزيائية في المشروع المتداخل الاختصاصات لعلم إدراكي.

وما يمدُّ المشروع بالتماسك هو قائمته بتعهدات وفرضيات محورية. وقد زوَّدت نظريات مؤثرة داخل المشروع بتطبيق لعلماء علم اللغة الإدراكي بالأدوات التحليلية والمنهجية، التي يُبحث بها الظواهر التي تُوجِّهها.

وما يجعل علم اللغة الإدراكي فارقاً في الدراسة المعاصرة للغة والعقل هو أن التغطية تتعلق ببحث العلاقة بين لغة الإنسان والعقل وتجربة اجتماعية فيزيائية. ولفعل هذا يأخذ علم اللغة الإدراكي بمنظور محدد بوضوح ومجسَّد بشكل حاسم حول الإدراك الإنساني. وفي هذا طوَّر علماء اللغة الإدراكي عدداً من نظريات مؤثرة داخل مشروع متداخل الاختصاصات لعلم إدراكي، تُناضِل بوعي – ذاتي (وتُقيِّم نفسها على أساس) من أجل مطلب أن تكون مقبولة نفسياً، بتقديم ما هو معروف الآن حول العقل/ المخ.

ولما كان علم اللغة الإدراكي قد تطور، فإن من المحتم عليه أن يتلمس طريقه مع مشكلات مميزة. وبقي بعض ما هو جدير بالذكر في الأغلب من هذه لم يُحَل. فعلى سبيل المثال: ما الفرق أيَّاً كان، بين معنى لغوي في مقابل معنى تصوري ؟ وقد أظهر بعض علماء علم اللغة المحددين، أحياناً أنهم يقترحون أن المعنى اللغوي مكافئ للمعنى التصوري . بعدئذ، قد تبدو اكتشافات في علم اللغة الإدراكي- مثلاً، الفرق بين أنظمة قسم مغلق وأنظمة قسم مفتوح في التمثيل الإدراكي، على نحو ما حاجج عنه تلمي بشكل مقنع- أنها توحي بفصل أكثر وضوحاً. وحاجج إيفانس، مؤخراً جداً، من أجل فصل أساسي بين تصورات لغوية في مقابل تصورات غير لغوية. مثل هذا الفصل يمكن أن يبدو أنه تؤيده اكتشافات لغوية، وسلوكية، وخاصة بعلم الأعصاب. وبعد يُظهر بعض علماء النفس البارزين أنهم استخفوا بتعقيد تصورات لغوية، بإنكار أن اللغة لها مضمون تصوري مستقل للنظام التصوري. وذهب آخرون في الطريق الآخر، محاججون في موازاة لخطوط إيفانس، من أجل فصل أساسي بين نمطين للمعرفة- انظر أيضاً زوان، وتايلوز، وزوان.

وتُعَد مسألة الإسهام الدلالي النسبي لمعلومة لغوية في مقابل معرفة تصورية لبناء المعنى، مسألة معقدة، ولم تُحَل في الوقت الحاضر. وبوضوح يعتمد معنى اتصالي على اللغة مثل معرفة غير لغوية. وحتى الآن، مع ذلك، فما يزال الإسهام النسبي والطريقة التي يتواجه بها النظامان، لم تُحَل بشكل تام.

وثمة مسألة واضحة أخرى تتعلق بمجال الزمن. يُلزِم افتراض عام داخل علم اللغة الإدراكي بأن نماذج مجردة في التفكير واللغة تُستنبَط من إسقاط البنية غير مجالات- مفهوم الاستعارة التصورية. ومع ذلك، ليس من الواضح في مجال الزمن، مثلاً، أن الزمن يبدع بفضل إسقاط محتوى فضائي على نحو ما يطالب لاكوف وجونسون. وحاجج بعض الباحثين بأن الزمن أساساً مجال مثل الفضاء. وعلاوةً على ذلك فإن اهتماماً مؤخراً في استراتيجيات الإحالة في مجال الزمن يطرح شكاً في إسقاط مباشر للفضاء على الزمن.

وبالإضافة إلى ذلك هناك مسألتان وصلت إلى المقدمة في العمل الأخير في علم اللغة الإدراكي. فهناك مناطق لم تكن بارزة في بحث مبكر داخل المشروع. ويستحق كل من هاتين المنطقتين ذكراً خاصاً. الأولى هي تطور اللغة. فقد طبقت اعتبارات حديثة موجَّهة بشكل إدراكي نظرات عميقة محورية من علم اللغة الإدراكي على طبيعة التغير اللغوي وتطورها. والثانية هي ما تُسمَّى "الدور الاجتماعي"، الذي وفقاً له بدأ علم اللغة الاجتماعي الإدراكي في التطور.

وفي مصطلحات المنهجية لعلم اللغة الإدراكي الآن معايير جيدة التأسيس، وأعمال إطار تحليلية لتحليل ظواهر لغوية وغير لغوية. وتُوجِد مجموعة ممتازة مفصلة مناهج تجريبية في علم اللغة الإدراكي، مثل رؤى قيمة حول المنهجية، وبوجه عام، في المراجع، مثلاً فيما يتعلق بعلم الدِّلالة المعجمي.

ومنذ استهلاله في المنتصف الثاني من السبعينيات نضج علم اللغة الإدراكي في مصطلحات نظريات ومنهجيات ومجال. فقد أُسِّس الآن بشكل حازم بوصفه مجالاً أساسياً ورحباً بشكل مؤثر للبحث داخل علم اللغة وعلم الإدراك. ويبرز عدداً من المجالات البارزة، بما في ذلك مجلة الجمعية العالمية لعلم اللغة الإدراكي (ICLA)، وعلم اللغة الإدراكي. ومنذ عام 1990م، تُجرى سلسلة من مؤتمرات عالمية حولية تحت رعاية الجمعية العالمية لعلم اللغة الإدراكي. ويُعَدُّ علم اللغة الإدراكي الآن، بشكل قابل للجدل، المنطقة الأسرع نمواً لعلم اللغة، ويُمثِّل مجالاً مثيراً بشكل لا نهائي للعمل فيه بالنسبة للباحثين الطموحين.

الأوجه الدلالية والنحوية للأفعال[1]

تأليف: أ. الصادق الأمين

ترجمة: أ. هيا ابراهيم المنيف

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الإنجليزية

[1] أصل هذه الدراسة هو: Syntax and Semantics Interface of Verbs للباحث A. Sathikulameen و قد نشرت عام 2011 في العدد الثاني من المجلد الحادي عشر من مجلة Language in India.

المقدمة

تعد اللغة أفضل وسيلة للاتصال، لأنها تمكن الكاتب من التعبير عن انفعالاته وأفكاره وتصوراته الإبداعية. ويمكن تحليل العمليات الإبداعية لأي نوع أدبي من خلال المعاجم والعبارات المعجمية، والدلالات، وبنية الجملة. ومن ثم إذا حللنا خواص تلك المكونات فسوف ندرك أبعاد العملية الإبداعية لدى الكاتب.

وتلعب الأفعال دوراً حيوياً في النحو والدلالة. وسنتحدث أولاً عن أهمية "المدخلات" المعجمية التي تلعب دوراً حيوياً في إظهار الأفكار الإبداعية والمميزة بمساعدة المقولات المعجمية التي ينسجم بعضها مع بعض لتعطينا "المخرج" النهائي.

وسنستعرض أيضاً الكيفية التي يتم بها ترتيب تلك المفردات وفق نظام معين لتعبر عن المعنى الدلالي الذي يريد الكاتب التعبير عنه في الجملة. وإذا قمنا بتغيير هذا الترتيب فقد نحصل على جملة ذات تركيب لغوي غير سليم.

العلاقة بين علم الدلالة وعلم النحو

يتطلب بناء الجملة الربط بين علم الدلالة وعلم النحو؛ وذلك أن هناك علاقة دائمة بين هذين العلمين لفهم معنى الكلمة ولصياغة أسلوب الجدل في الجملة باستخدام المقولات المعجمية. ولفهم معنى الكلمة دورٌ مهم في فهم أسلوب الجدل المنطوق، والذي يعد عملية معقدة. يقول تون ديكسترا "Ton Dijkstra":

"يجب أن يعتمد تحديد معنى الكلمة الأولي على السمات المعجمية للكلمة نفسها؛ كعدد مرات استخدم الكلمة في الماضي (أي هل تستخدم استخداماً متكرراً؟) وعلى كون المقول النحوي للكلمة مبهماً أو واضحا (فمثلاً، هل تعد كلمة "dance" الإنجليزية ومقابلها العربي "الرقص، و يرقص" اسماً أم فعلاً؟) وعلى دلالة الكلمة (مثلاً هل الكلمة الإنجليزية "Bank" تعني بالعربية "ضفة النهر" أم تعني "مصرف"؟). بالإضافة إلى ذلك، فإن عملية فهم معنى الكلمة قد يتأثر بالجوانب الدلالية والنحوية لسياق الجملة السابقة والتي قد تكون أكثر أو أقل قيوداً وتنبؤا بالمعنى (ديكسترا: 129).

وظائف المفردات المعجمية (الكلمات) في العملية الإبداعية

للمفردات المعجمية في الجملة ترتيبٌ نحوي معين يتناسب مع تفسيراتها الدلالية التي تنتج من المدخلات (الكلمات)، حيث يقدم الكاتب أفكاراً إبداعية ذات أبعاد مختلفة باستخدام مفردات معجمية مرتبة على هيئة جمل منطوقة، بدلاً من عرضها عرضاً مستقلاً. لذا، تتولد الكلمات والمفردات المعجمية من تلك الأفكار الإبداعية والتي يمكن تحليلها لمهام أو وظائف مختلفة بمساعدة المعرفة اللغوية عند الإنسان. وتلك المهام أو الوظائف ليست إلا أدوات تستخدم في تلك العملية الإبداعية.

وتكون هذه المفردات المعجمية مُحَمَّلة بأفكار الكاتب، ومرتبة وفقاً لنظام معين بحسب معرفة الكاتب اللغوية. ويمكننا فك رموزها الدلالية باستخدام كفاءتنا اللغوية. و"إن كان لشخص ما مفرداته المعجمية، فإن لديه معرفة لغوية معينة ومفصلة" (ماك جلفاري " McGilvary": 230).

ويذكر ماك جلفاري:

"تحتوي المفردات المعجمية على معرفة لغوية مفصلة، أي المعلومات التي تظهر على المستوى الدلالي. وقد ذكر تشومسكي عدداً من الأمثلة بهذا الخصوص دون أن يشرح كيفية عرض هذه التفاصيل المعجمية" (ماك جلفاري:213).

الأفعال

تلعب الأفعال دوراً رئيساً في استدعاء الدور الموضوعي على المستوى الدلالي. ويمكن تحديد هذه الأدوار المميزة على ثلاثة مستويات: (1) مستوى الأدوار الدلالية المحددة لفعل معين مثل: سامع، ومحب، ومفكر، ومؤمن، وكاره، وماشٍ،... إلخ. (2) مستوى علاقة الموضوع بفعل معين مثل: فاعل، وأداة، وصاحب الخبرة، وموضوع، ومفعول به.

- ركل الولد الكرة بساقه اليمنى. (الفاعل) و(الموضوع) و(الأداة)

وعندما تكون هنالك عبارة اسمية تصف شعوراً أو إدراكاً أو حالةً لشخص ما، فإنها تعد مثالاً يشرح المقصود من عبارة "صاحب الخبرة". ففي الجملة: "رأت رجاء بعوضة على

الحائط"، فإن "رجاء" هي صاحبة الخبرة. وعندما تكون وظيفة الكلمة، فإنها ستدل على مكان، وعندما تنتقل مفردة من موقع تعني فيه "الأساس" إلى موقع آخر قريب من نهاية الجملة، فسيبقى معناها تقنياً "الأساس".

- رأت رجاء بعوضة على الحائط. (الفاعل) (الموضوع) (المكان).

- تحول رجاء حسابها المالي من استثماري إلى جارٍ. (صاحب الخبرة) (الموضوع) (الأساس) (الهدف).

وتدخل الأدوار الدلالية عامة، والأدوار الدلالية الدقيقة، والقائم بالفعل تدخل ضمن العلاقات الموضوعية؛ فالقائم بالفعل تعميم يندرج تحت الفاعل، بينما يعد من يقع عليه الفعل تعميماً للمفعول به، أو الموضوع، أو المتلقي، ونحو ذلك. ويعد "الفاعل" نموذجاً مبدئياً لمن يقوم بالفعل، كما يعد المفعول به نموذجاً لما (أو لمن) يقع عليه الفعل. ويسمى الفاعل وصاحب الخبرة بـ: القائم بالفعل والمتلقي والمحفز والموضوع، كما أن بإمكاننا أن نطلق على المفعول به عبارة: ما يقع عليه الفعل.

الأفعال واستدعاؤها للجانب الموضوعي

للأفعال دور أساسي في استدعاء الدور الموضوعي على المستوى الدلالي. ويمكن تحديد هذه الأدوار المميزة في ثلاث مراحل، على أن يشارك الكاتبُ القارئَ معرفته اللغوية من خلال البنى النحوية والتي تعد جسراً بين المصدر والهدف، أي بين الكاتب والقارئ.

ونرى في تاريخ النحو الإنجليزي أن العالمة اليزابيث كلوس تروقت " Elizabeth Closs Traugott" شاركت القارئ أفكارها التي تنص على أن "النظام النحوي هو الجسر بين التصور البنائي لمستخدم اللغة، وإظهار هذا البناء على شكل سلسلة من الأصوات" (تروقت: 22).

نظرية تصنيفات الفعل

وفقاً لفان فالين " Van Valin" "يعد التمثيل المعجمي للأفعال الواضح والمبهم نظرية لتصنيفات الفعل". (فان فالين:31). وإذا قمنا بتحليل تصنيفات الأفعال هذه، فسيكون

لدينا خيارات معجمية مختلفة لتقديم قيمة دلالية مختلفة نتيجة لذلك. كما قدم روبرت دي فان فالين"Robet D.Van Valin" تصنيفات الأفعال كما يلى: الحالة، والنشاط، والإنجاز، والتمام، والتنفيذ، والتنفيذ النشط. والحالة هي أفعال ثابتة تعكس حالة الشخص ومشاعره، ككونه طويلاً أو ميتاً أو مريضاً ...إلخ، وهي بطبيعتها متأصلة ولا تتغير مع الزمن.

– وهمست قائلة "لا أصدق ذلك" وهي تمسح بعينيها على جسده. (غوش "Ghosh": 70)

فالفعل "يصدق" لا يتغير مع الوقت، في حين أن الإنجازات عادة ما تكون لحظية مثل (ينفجر، ويتكسر، .. إلخ)، وأما التنفيذ فغالباً ما يكون متأصلاً ومؤقتاً مثل: (يبتل، ويترطب، ويتجمد، ويجف، ..إلخ).

وعندما نرى شخصاً يجلس جلسة القرفصاء مغطياً وجهه نبدأ عمليات التخمين، ونظن أنه غير مرتاح، كما يختبر جيران العريس عروسته الجديدة (غوش:108)

وتكون الأفعال الحركية متأصلة ومؤقتة وليست مستمرة (مثل: يقرفص، يمشي، ..إلخ). أما أفعال التمام فهي ذلك النوع الذي "يحدث فيه الفعل دفعة واحدة لا يتكرر ولا ينتج عنه أية حالة" (فان فالين: 32) مثل: يبرق، ويسعل، ويعطس، ... إلخ:

هنا هامت عينا زاكاري "Zachary" في بوليت "Paulette" التي ابتسمت له ابتسامة شكر خاطفة (غوش:72).

وأما أفعال التنفيذ النشط فهي أفعال حركية. ويجب أن نضع بعين الاعتبار الميزة الأساسية للفعل؛ أي إن كان الفعل ثابتا أو غير ثابت. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن كان متحركاً ومرتبطاً بالنشاط فضلاً عن كون الفعل ذا هدف معين أم لا. من ثم نستطيع القول: إن هناك صلة قرابة بين بنية الفعل ودلالاته، حيث تتولد الأفعال من معلومات الكاتب الدلالية والنحوية وتظهر على شكل الجملة. وتدخل تلك الأفعال في التركيب النحوي للجملة لتحديد المعنى المقصود منها مع العناصر اللغوية الأخرى، فعلى سبيل المثال:

- لقد فحصت (العبارة الفعلية) الزوار فحصاً دقيقاً عن طريق فتحة في الجدار وذلك أثناء النقاش (غوش: 16).

وينبغي لنا تحليل عناصر هذه الجملة، وكيف يمكن لها أن تساعد في تشكيل العبارة الفعلية، وفي إعطاء المعنى الدلالي للجملة من خلال بنيتها النحوية. وهنا نجد في المثال السابق ما يلي:

(أولاً): نجد أن الفعل في الجملة "فحص" وهو فعل مضارعه "يفحص" وقد تم تحويله إلى الزمن الماضي لكي يعطي الفعل المعنى الدلالي المقصود (فان فالين: 32). ولقد وضع أكيونسارت " Akionsart" تصنيفاً للأفعال يصف الأفعال الثابتة، والتي تكون مؤقتة بطبيعتها وغير مستمرة؛ فالفعل "فحص" فعل (+ثابت) و(+متحرك)؛ أي أنه ثابت ومستمر لفترة زمنية.

(ثانياً): نجد أن الفعل "فحص" فعل ماض، والفاعل هو الضمير "هي" ويمثل صاحبة الخبرة ومن تقوم بعملية الفحص، ثم يجيء المفعول به "الزوار". وتتكون الجملة من الفعل "فحص" والذي يعطي الجملة معناها اللغوي ويوصف الفعل بأنه (عبارة فعلية). وهو عنصر أساسي في الجملة بمساعدة مفردات لغوية أخرى، مثل "بدقة" (حال) و "عن" (حرف جر) و"الزوار" (عبارة اسمية) و "من" (حرف جر) و "في الجدار" (شبه الجملة: الجار والمجرور). ويمكننا أن نضع أربعة عشر عنصراً لتكوين جملة ما، ونستطيع معرفة معنى الجملة بمساعدة الأوجه الدلالية والنحوية لها.

- إنها تفحص القصيدة. (+ثابت) إنها تفحص الزوار.(+ثابت) إنها تأكل التفاحة.(- ثابت) إنها تركل الكرة(- ثابت)

نجد فيما سبق أن "إنها" تمثل الفاعل أو مَنْ قام بالفعل، والذي لا يمكنه أن يغير نوع المفعول به. ففي الجملة "إنها تفحص القصيدة" نجد أن المفعول به (- ثابت)، وفي الجملة الثانية (- ثابت)، أما في المثالين الثالث والرابع فنجد أن المفعول به (+ ثابت).

فإذا كان لدينا معرفة جيدة بتصنيفات الفعل، فإن تحليلنا لمعنى الجملة سيكون أكثر عمقاً ودقة، كما يمكننا كشف قيمة تلك الأفعال التي تبدو لنا على شكل مفردات معجمية. ففي الجمل التالية:

- إنه يجري ببطء. إنه يكتب ببطء. إنه يدرك ببطء. إنه يشعر ببطء.

نجد أن الفعلين (يجري و يكتب) ينتميان إلى التصنيف نفسه، ولكن الفعل (يدرك) ينتمي إلى تصنيف مختلف عنهما تماماً، لذا فاختيار الحال لا يمكن أن يكون واحداً لكل تلك الأفعال. ونلاحظ في الجملة الأخيرة أن الفعل (يشعر) قد فشل في إعطاء المعنى الدلالي للفعل. فالأفعال هي التي تحدد (الحال) الذي يناسب وصفه وتفصيلاته الدلالية. فعلى سبيل المثال:

- إنها تغني غناء جميلاً. أنا أفكر تفكيراً جميلاً.

نجد أن "أفعال الحال" مثل (يفكر) تصف موقفاً ثابتاً، (أما الأفعال الحركية والأفعال التي تشير إلى هدف والأفعال الدقيقة) فهي أفعال مؤقتة وغير ثابتة ومتغيرة. وهذا الفعل (يفكر) لا يقبل ملازمة الحال (جميلاً)، حيث نلحظ أن هذه الحال فشلت في إعطاء تفسير دلالي مناسبٍ. ومن ناحية أخرى، نرى أن الفعل (تغني) يقبل ملازمة الحال (جميلا) لأنه فعل (+ حركي) ويعطي معنى ملائماً مع الحال.

- الولد خائف ببطء. (حالة) و (- حركي) ، إن الولد يمشي ببطء. (مضارع مستمر) و(+ حركي)، الولد يمشي ببطء. لقد مشى الولد ببطء.

نلحظ في الأمثلة السابقة أن بنية الجملة الأولى بنية صحيحة نحوياً، إلا أن الحال (ببطء) فشل في إعطاء المعنى الدقيق للفعل والحالة (خائف). وفي الجملة الثانية نجد أن الفعل (يمشي) يعطي زمناً دقيقاً، وهو أن الفعل حدث في الزمن المضارع المستمر، وهو زمن يقبل الحال (ببطء)؛ وذلك لأنه فعل يدل على نشاط. وعلى الرغم من أن جذر الفعل (م ش ي) مشترك في الجمل السابقة فإنه تغير إلى (مشى) و (يمشي)، وهي تصريفات للجذر أدت إلى اختلاف المعنى.

ومن الواضح أن هذا الترابط الدلالي بين الكلمات هو ترابط قوي، وأن أي تغيير في التصريف النحوي للفعل (مشى) و (يمشي) سيتبعه تغيُّرٌ في المعنى. و لنأخذ مثالاً آخر:

- إن ديتي تقرأ الكتاب. تقرأ ديتي الكتاب.

نجد أن الزمن في الجملة الأولى هو الزمن المضارع المستمر، والذي يعبر عن الفعل الحالي للفاعل (ديتي)، في حين أن الجملة الثانية تعطي معلومة عن عادة أو طبيعة اعتاد عليها الفاعل (ديتي). فنلحظ هنا أن الأفعال هي التي تقرر بنية الجملة في اللغة، وهذا يرتبط بالموضوع وبالتركيب المعرفي للغة، والذي يكون على نظام خطي.

- يقفز راجو عالياً. إن راجو يقفز عالياً. *اقفز عالياً.

من الواضح في الجملة الأولى أن الفاعل هو "راجو" والجملة تعطي عنه معلومة واضحة. أما الفاعل في الجملة الثانية فهو راجو الذي يقفز في اللحظة الحالية. وفي الجملة الأخيرة نجد الفعل بصيغة الأمر ويلزم الطاعة ويعطي تفسيراً دلالياً بطريقة مختلفة.

ولتحليل العلاقة بين علم الدلالة وعلم النحو، نحتاج إلى الكشف عن بنية الفعل، وكيف يستخدمها الكاتب لترمز إلى المعنى الذي يقصده بمساعدة عناصر الجملة الأخرى. لذا، فإن الأبحاث العلمية التي تدرس الأفعال في علم الدلالة المعجمي وعلم الدلالة التوليدي، وعلم النحو النظري، تسهم جميعها في وضع المنهج التركيبي لبنية الفعل.

وتسهم تلك التحليلات التجريبية للفعل والمذكورة آنفاً في توضيح العلاقة الهامة بين الدلالة والقواعد النحوية، وهذا ينطبق على تركيب اللغة الإنجليزية، كما ينطبق على اللغات الأخرى. فعندما يريد الكاتب أن يعرض أفكاره ببنى نحوية مختلفة، فإنه يستخدم المراحل الدلالية والمفردات والعبارات المعجمية والقواعد النحوية. وهذا يعد أمراً أساسياً؛ حيث إن الأفكار داخل ذهن الكاتب والهيئة التي تخرج عليها هذه الأفكار تعتمد على تصنيفات الفعل المذكورة آنفاً.

المراجع

Dijstra, Jon. 2003. Lexical Storage and Retrieval in Bilinguals. In Van Traugott Elizabeth Closs. The History of English Syntax. Holt, Rinehert and Wainston eds., Inc, USA, 1972.

Ghosh, Amitav. Sea of Poppies. New Delhi: Penuin Books, 2008.

Hurford, James. R., HSLey, Brendan & Smith, Michael. B. semantics, A Coursebook. New York: Cambridge University Press, 2007.

McGilvray James. 2005. "Meaning and Creativity" in James McGilvray eds., Chomsky, Cambridge: Cambridge University Press, 2005.

Traugott Elizabeth Closs> The History of English Syntax . USA: Holt, Rinehert and Winston, 1972.

Van Valin, Jr. Robert D. Exploring the Syntax Semantics Interface. Cambridge: University Press, 2005.

By A. Sathikulameen, M.A., M.Phil., Ph.D. Candidate

A.Sathikulameen, M.A., M.Phil., Ph.D. Candidate, Department of English, Institute of Distance Education, University of Madras, Chepauk, Chennai–600 005, Tamilnadu, India, sathikmphil@yahoo.com

الإرداف في اللغة العربية[1]

الوصف شكلاً من أشكال الإقناع

تأليف: أ. باربرا جونستون

ترجمة: أ. هيا ابراهيم المنيف

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الإنجليزية

[1] (إضافة من المترجم) الإرداف: إتباع عبارات أو أشباه جمل بأخرى من دون حرف عطف (معجم اللغة العربية المعاصرة). و أصل هذه الدراسة هو: "Parataxis in Arabic: Modification as a model for persuasion"، للباحثة Barbara Johnstone و قد نشرت في العدد الأول من المجلد الحادي عشر من مجلة Studies in Language الصادرة عام 1987.

من المألوف الاعتقاد بأن الاستراتيجيات التي يستخدمها المتكلم لإقناع شخص بشيء بعينه مقيدة بعوامل نفسية وتاريخية فحسب. لذلك سأناقش في هذا البحث مسألة الضوابط اللغوية لاستراتيجية الإقناع، وأن لهذه الضوابط الأهمية نفسها، كما أفترض أن النحو الوصفي على مستوى العبارة أو الفقرة في اللغة العربية المكتوبة يعد شكلاً للتركيب اللغوي على مستوى الجملة والفقرة في الخطاب البلاغي. فالخطاب الإقناعي في النصوص العربية المعاصرة التي قمت بدراستها هو خطاب مؤثر بلاغياً بسبب التكرار الإرادفي. وقد تقبل فكرة ما و يسوق لها من خلال ذكرها وتكرارها وإعادة صياغتها، حيث يستخدم الكُتّاب العرب الجمل التامة كثيراً، في حين يقل استخدامهم للجمل الناقصة، والتي يشيع استخدامها في الكتابة الإقناعية في اللغة الإنجليزية. ويتميز النحو العربي الوصفي أيضاً بالتجاور و التشارك الإرادفي للعناصر. في حين تشتمل الصفات الوصفية على صفات وجمل موصولة معينة، وكذلك الحال مع الوصف الظرفي للصفات وبعض الجمل الموصولة واشتقاقات المفعول به وجملة الحال، حيث تحتوي على تراكيب لغوية كاسم البدل، وتكون العناصر التي تنتمي للفئة التركيبية ذاتها مجاورة بعضها للبعض الآخر. لذلك فإن التشابه التركيبي بين الإقناع والوصف ليس من قبيل المصادفة، حيث يرى كثير أن الإقناع، في واقع الأمر، هو نوع من أنواع الوصف. لذا أرى أن وجود الاستراتيجيات التركيبية كالإرداف اللغوي قد تفسر لنا استخدامها في الخطاب استخداماً تداولياً، والعكس صحيح[1].

الإرداف في الخطاب

إن الخطاب الإقناعي في اللغة العربية خطاب تكراري على نحو معقد، وغالباً ما يتميز بالإرداف، حيث يتم تنسيق الكلمات المترادفة لغوياً لتكوِّن أزواجاً معجمية (كوش"Koch"، 1983 ب) مع تكرار الجذور والصيغ الصرفية. ويخلق لنا التكرار النحوي عبارات وجملاً متوازية، كما يقع التكرار المعنوي أيضا في ذلك الخطاب، فالمثال رقم (1) أدناه والمقتبس من أحد الأعمال في النقد الأدبي يعد مثالاً مناسباً تماماً، لأنه لا يكشف عن هذه الظاهرة فقط، بل يحاول كذلك أن يشرحها.

[1] هذه الورقة نسخة منقحة من تلك التي تم تقديمها في الاجتماع السنوي للجمعية اللغوية الأمريكية (LSA) في ديسمبر 1983، حيث قدم بيكر (Becker)، ,ارنست ماكورس (Ernest McCarus) ومحمود البطل (Mahmoud Al-Batal) خدمة لا تقدر بثمن للتشكيل المبكر لهذه الأفكار. وأريد كذلك أن أتقدم بالشكر لبروس مانهيم (Bruce Mannheim)، وايدث حنانيا (Edith Hanania)، ومراجع آخر لا أعلم من هو لتحديدهم عدد من التراكيب غير المتوافقة في المسودة السابقة. وعند وجود خطأ أو سوء في التفسير فأنا من يتحمل مسؤولية ذلك.

(1) وكأنه يرى أن الأدب الجدير بهذا الاسم هو الذي يروق السمع كما يروق القلب في آن واحد، وهو لذلك يوفر لصوته كل جمال ممكن. ومن الغريب أنه لا يعدّل عبارة يمليها ولا يعد محاضرة قبل إلقائها. فقد أصبح هذا الأسلوب جزءاً من نفسه وعقله، فهو لا يملي ولا يحاضر إلا به. وكثيراً ما تجد فيه الألفاظ المكررة، وهو يعمد إلى ذلك عمداً حتى يستتم له ما يريد من إيقاعٍ وأنغامٍ ينفذ بها إلى وجدان سامعه وقارئه.

ويحتوي هذا النص على عدد كبير من أدوات العطف التفسيرية، وشبه التفسيرية، وعلى وجه التحديد في مسند (خبر) كل جملة. فنجد في الجملة الأولى مسنداً مصاحباً "هو الذي يروق ..... وهو لذلك يوفر"، كما أنه أيضاً مصاحب للتفسير المزدوج: "يروق السمع كما يروق القلب". وأما المسند في الجملة الثانية، فهو مسند مصاحب أيضاً: "لا يعدل ..... ولا يعد". ولهذين الجذرين المعجمين المتشابهين (ع د ل – ع د د) تأثير جلي متوازٍ غير مقصود. ونجد في الجملة الثالثة الثنائية المعجمية "من نفسه وعقله" والإسناد المزدوج، كقوله في الفقرة الثانية "لا يملي ولا يحاضر إلا به". أما الجملة الأخيرة فتحتوي على عبارتين مزدوجتين: "إيقاعٍ وأنغامٍ" و"سامعه وقارئه".

وتبدأ جميع هذه الجمل الأربع بأدوات عطف، ثلاث منها "الواو"، والرابعة "الفاء". كما تحتوي على جملة واحدة تابعة، باستثناء جملتي الوصل النكرتين حيث سأتطرق إليهما لاحقاً.

ويعد النص (2) مثالاً آخر أوضح للخطاب الإردافي، وهو جزء من مقالة عن النقد الأدبي، كما هو الحال في المثال السابق.

(2) الشعر تعبير وتصوير لمشاعر الشعراء وأفكارهم، سواء أكانت التجربة واقعية أم من نسج خيال الشاعر. وفي كلتا الحالتين فإن التجربة صادقة، لأنه ولو كانت التجربة غير واقعية – أي خيالية- فإن الشاعر يعيش فيها مدة طويلة قبل أن ينظم شعره يحسها في نبضات قلبه ويشعر بها تسري في دمه. وبذلك فإن كل ألوان الشعر تعبير عن مشاعر صادقة يحس بها الشاعر ويعيش فيها.

وهذا المثال أكثر تعقيداً من المثال (1) من حيث البنية اللغوية، فهو يشتمل على جملتين تابعتين، إحداهما "سواء كان" والأخرى "ولو كان"، إلى جانب جملتين وصفيتين، إحداهما تعادل الأخرى "يعيش فيها ..... يحس ..... ويشعرها تسري" (وهذه الأفعال العربية أفعال تامة). وعلى العموم، فإن هذا النص أقل إردافاً من كثير من النصوص، بيد أنه يحتوي على روابط لغوية متنوعة. وعلى الرغم من ذلك، يمكننا اعتبار هذا النص مثالاً للتكرار. ففي الجملة الأولى هنالك كلمتان مستمدتان من أصل واحد وهما: "تعبير وتصوير" (وهما ثنائية معجمية مبنية على التوازي الصرفي)، وكذلك "مشاعر الشعراء وأفكارهم". ونجد في الجملة الثانية العبارة "غير واقعية أي خيالية" والتي يتضح من خلالها أن الكلمتين "واقعي" و "خيالي" متضادتان لغوياً، وهي إعادة صياغة معنى الجملة، وتعد إسهاباً لغوياً. وتشتمل الجملة الثالثة على عبارتين مستمدتين من أصل واحد وكلتاهما إعادة صياغة للجملة، والأولى "يحسها في نبضات قلبه ويشعر بها تسري في دمه"، والثانية "يحس بها الشاعر ويعيش فيها".

والجملة الثالثة بأكملها هي إعادة صياغة الجملة الثانية، فكلتاهما تعكس المعنى نفسه: أن الشعر يعبر عن مشاعر حقيقية لأن الشاعر يعيش في تجارب ويشعر بها سواء أكانت حقيقية أم لا. ومما يعوق القارئ عن ملاحظة هذه العلاقة بين الجملتين الثانية والثالثة وجود كلمة "بذلك" في بداية الجملة الثالثة. وكلمة "بذلك" يقابلها في اللغة الإنجليزية كلمة "thereby"، وهي كلمة يقل استخدامها في الجملة التي تعيد صياغة معنى جملة سابقة. ولذا، فمن المستبعد أن يقوم كاتب بكتابة نص معقد على هذا النحو المنظم والمتوازن باستخدام كلمة في مكان غير مناسب نحوياً.

العرض والإقناع

في علم البلاغة الغربي "شبه المنطقي" الذي تحاكي فيه البنية والعبارة في المجادلات غير الأصولية، البنية والعبارة في المجادلات الأصولية (بيرلمان "Perelman"، 1969: 193 ـ 225)، نرى الوظيفة المعيارية لكلمة "إذن" ونظائرها من أدوات الوصل (والتي يرمز لها اختصارا بـ ∴) هي الإشارة إلى نتيجة استدلال قياسي منطقي: كل بني الإنسان ميتون، وسقراط إنسان، إذن سقراط ميت. ومن الناحية التداولية، فإن "إذن" ومثيلاتها تشير

غالباً إلى الدعاوى التي تم التحقق من صحتها بطرق أخرى. فعلى سبيل المثال، أسلوب الإقناع الناتج عن سلوك، وعرض المناقش لذاته أو مشاعره أو عاطفته يمكن وصفها بالإقناع المنطقي:

3 ـ إن إحصاءاتها لا غبار عليها وحجتها لا تشوبها شائبة، لذلك سنقبل نظريتها. (شعارات)

4 ـ السيناتور مصمم على أنه صادق، وهو إنسان محترم جداً وينتمي إلى عائلة معروفة، ويذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، لذلك سنلغي قضيتنا المرفوعة ضده. (سلوك)

5 ـ نائب الرئيس نيكسون يحب كلبه الصغير كثيراً، حتى إن محبته أبكت الناس، ولذلك اعتقدوا بأنه لا يقبل الرشاوي. (عاطفة)

ومن الإنصاف أن نفترض أن الوظيفة الأساسية لأداة الوصل "إذن" هي الإشارة إلى أن ما يأتي بعدها هو نتيجة لما قبلها، وعلى أهل البلاغة استنتاج "كيف كان ذلك".

إذن، كيف لجملة أن تعيد صياغة جملة أخرى؟ ولماذا يعد تكرار العبارة مرتين أو ثلاث مرات أقوى تأثيراً بلاغياً من ذكرها مرة واحدة؟ ولماذا يعد التكرار في اللغة العربية أكثر الأساليب المستخدمة للإقناع؟

إن اختيار أسلوب التعبير عن فكرة ما ـ أي كيف نقولها – له الأهمية ذاتها التي تكمن في كيفية التعبير عن جملة ما ـ أي ماذا تقول. كما أن إعادة صياغة المعنى قد تكون مقنعة في العديد من السياقات البلاغية غير الرسمية (يا إلهي، الآن وضعتها بتلك الطريقة ...)، وفي بعض السياقات الرسمية للمجتمع الأمريكي، (على الرغم من أن النموذج السائد للكتابة المقنعة يدفع العرض أو الأسلوب إلى أن يكون مبتكراً ومرتباً). ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الإقناع مصطلح "العرض" (كوش، 1983 أ). ويسهم العرض في أن يجعل الأشياء معقولة، لأنه يدفعها إلى المجال الوجداني للمستمع ويحفظها هناك، كما يسهم التكرار في جعل الأفكار حاضرة "هنا والآن" في سياق الحديث، فاستخدام زمن المضارع في اللغة الإنجليزية يساعد في الحفاظ على الأفكار "هنا والآن". ويحدث ذلك عندما يستخدم

زمن المضارع للتعبير عن الماضي. ولقد ناقش العالم شيفرين "Schiffrin" هذا الموضوع مؤخراً، وتحديداً في عام (1981م) في مقالته عن الحاضر التاريخي في "الدعوة العاطفية" السردية (لاكوف "Lakoff"، 1974). وتعني فكرة "هنا والآن" أن "هنا الفكرة" و "الآن تأتي الفكرة التالية"، وكلاهما يفيد "الوجود". وتعد الاستعارات البصرية وسيلة أخرى تستخدم للتعبير عن "الوجود"، حيث يعطي المتحدث السامع إيحاء بأن الفكرة قريبة منه، ويجعله ينظر إليها، أو أن يزعم أنه يمكن رؤية هذه الأفكار بسهولة. ويستفيد كُتَّاب اللغة العربية من هذه الاستراتيجيات من خلال استخدامها في أساليب الإقناع وخلق "الوجود"، ومن أشهرها استراتيجية التكرار التركيبي أو التفسيري في أسلوب الإرداف اللغوي.

ويعد العرض والتكرار الإردافي المرتبط بالعرض المفاتيح الأساسية لكيفية بناء الخطاب الإقناعي في اللغة العربية. وذلك يعني أن الحاجة إلى العرض تؤثر في شكل الخطاب تأثيراً كبيراً. والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هنا: لماذا تقترن هذه الاستراتيجية المستخدمة للإقناع مع السياقات الرسمية المصاحبة لها؟

الإرداف النحوي

يمكننا القول في السياق العام بأن الطريقة التي نستخدمها لجعل الخطاب محبوكاً معنوياً "coherent" تعكس طريقتنا في جعل العالم الذي نعيش فيه مترابطاً. أما في السياق الخاص للخطاب، فهناك مصدران هامان يتقيد بهما الخطاب. فالمصدر الأول، يقيد الخطاب بوظيفته المقصودة، فالخطاب البلاغي يختلف عن الخطاب غير البلاغي، كما يقيد الخطاب بنظرية المعرفة والقواعد ذات الثقافة المحددة عن "من يستطيع إقناع من" و"كيف يمكنه عمل ذلك" وهذا يرتبط بالمواضيع الخاصة بالخطاب البلاغي واستراتيجيات الإقناع. كما يشمل ذلك دراسة احترام العالم العربي الإسلامي للكلمة، ودراسة تاريخ الخطاب العربي وتراكيبه اللغوية وسياسات الشرق الأدنى لفهم الخطاب الإقناعي العربي، كما تطرقت لذلك مسبقاً (كوش،1983أ).

أما المصدر الثاني فيتعلق بالتركيب اللغوي للخطاب. فالتركيب اللغوي للخطاب له وظيفته في تحديد "ممّ صنع هذا": الكلمات والبنى اللغوية للغة ما، أي أن القيود البنيوية

للغة ما هي إلا قيود الخطاب في هذه اللغة. لذا، أرى أن بعض أساليب التكرار الإردافي في الخطاب الإقناعي في اللغة العربية هي أساليب متأصلة في البناء النحوي للغة نفسها؛ أي أن هنالك بعض أساليب اللغة العربية – باستثناء أسلوب الخطاب الإقناعي – تتطلب التكرار الإردافي. وعلى وجه الخصوص، فإن البنية اللغوية العربية لعدد من الجمل الاسمية والفعلية الموصوفة هي بنية لغوية إردافية.

ومعظم سمات الخطاب العربي التي أشرت إليها في الأمثلة (1) و(2) هي سمات ناتجة عن اختيار واعٍ نسبياً للكتاب. ومن الممكن أن نكتب لغة عربية صحيحة نحوياً دون استخدام الثنائيات المعجمية أو استخدام جملٍ فعلية موازية أو متصاحبة؛ لأن معايير اختيار الثنائيات المعجمية ليست معايير نحوية، ولكنها معايير القبول في مستويات مختلفة: كالمعايير التي قد يستخدمها المحرر لتحديد ما إذا كان نص ما قد كتب بطريقة جيدة أم لا. وعلى الرغم من ذلك، فهناك حالات يتم فيها اختيار الإرداف المتكرر بنيةً لغوية؛ لأنه الأفضل من الناحية النحوية، أو لأنه الخيار الوحيد الذي تسمح به القواعد النحوية. وهناك شيء من حرية الاختيار في الخطاب، ومنها الحرية النحوية المطلقة كاختيار الصور البلاغية الجمالية البحتة متى ما كان ذلك ممكناً، ومنها الحرية النحوية المقيدة مثل اختيار الفعل الذي يتفق مع فاعله.

والبنية النحوية التي تقع في أي مكان في منتصف الجملة هي بنية المفعول المطلق، وهي بنية مشتقة من الفعل (الفعل ، أواسم الفاعل، أو المصدر) ومصاحبة له، حيث يرتبطان بالجذر نفسه.

مثال مقتبس من النص (1) المذكور أعلاه:

6 ـ يعمد إلى ذلك عمداً

فعادة ما يكون المصدر مشتقاً من شكل الفعل، وبذلك يصبح لدينا تكرار بصيغتين مختلفتين (الفعل الأصل وتكرار المصدر المشتق منه). وغالباً ما يتم وصف المصدر باستخدام الصفة (وفي هذه الحالة يكون كل من المصدر والصفة في حالة النصب).

7 ـ تختلف اختلافاً أساسياً

أو عن طريق الإضافة (المضاف والمضاف إليه).

8 ـ التزموا المبدأ أشد الالتزام

أو باستخدام طرق أخرى، حيث تقتصر وظيفة المصدر في هذه الجملة والصفة المصاحبة له على وصف الفعل الرئيس للجملة.

وتحتوي اللغة العربية على عدد قليل من الظروف. ويمكن وصف الظرف بعدة طرق مثل استخدام حروف الجر (لقد حضر بسرعة) مع أفعال معينة (كدت أقع) أو مع أسماء معينة في حالة النصب (أحياناً) مع صيغة الحال التي سأتحدث عنها بالتفصيل لاحقاً. وبما أن للكاتب قدراً من الحرية لاستخدام حالة النصب أو بنية أخرى لوصف الظرف، فإنه نادراً ما يكون لديه خيار بين استخدام المفعول المطلق والظرف.

وللمفعول المطلق وظيفة نحوية جوهرية، حيث تشجع البنية النحوية للغة على استخدام المفعول المطلق حينما تكون الخيارات محدودة، وقد يكون ذلك الاستخدام استخداماً غير إلزامي. وعلاوة على ذلك، فإن بعض الاستخدامات الظرفية للصفات في حالة النصب تكون مشتقة من المفعول المطلق كقولنا "ضربته شديداً" (حيثما تكون كلمة "شديداً" نائباً عن المفعول المطلق) (المترجمة)، وتشرح بعض القواعد النحوية هذ المثال (كما ذكر ذلك هايوود "Haywood" و نهمد "Nahmad"، 1965 : 332) على أنه نتيجة لإهمال المصدر في "ضربته ضرباً شديداً". وإن كان هذا التحليل صحيحاً، في هذه الحالات، فإن تكرار الأصل يلعب دوراً على المستوى النحوي المجرد.

وتعد جملة الحال مثالاً آخر للوصف الإردافي. وتقوم جملة الحال بوصف الظرف، وذلك من خلال ذكر الظروف المصاحبة للجملة. وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك (من كتاب عبود "Abboud"، 1975: 435):

9 ـ وصل وبين كتبه خطاب الرئيس

10 ـ حضر إلى أمريكا وهو صغير

وفيما يلي مثال من النص (2) المذكور أعلاه:

11- يعيش فيها ..... يحسها في نبضات قلبه ..... ويشعر بها تسري في دمه

ويوجد هنا جملتان للحال، إحداهما تصف الجملة الرئيسية، بينما تصف الأخرى العبارة "يشعر بها". ويوجد في جميع جمل الحال ضمير يعود على العبارة الاسمية في الجملة الموصوفة، أو على الفعل أو اسم الفاعل والذي يكون فاعله هو العبارة الاسمية، ويكون ترتيب الكلمات مشابها لترتيب كلمات الجملة المستقلة بذاتها. ويتم تقديم جملة الحال، في معظم الحالات، باستخدام حرف العطف "و" (عبود، 1975: 435) ويطلق عليها في العربية "واو الحال". وسواء أفضّلنا النظر إلى واو الحال على أنها وحدة معجمية مختلفة عن واو العطف في العربية المعاصرة أم لا، فإن هاتين الواوين على ارتباط تاريخي واضح. ويزعم بيستون "Beeston" (1970: 89) أن واو الحال كانت في الأصل أداة عطف وظيفية. وتعد الجملة الانجليزية التالية مثالا للجملة التامة والتي تعطي التأثير نفسه لجملة الحال:

12 ـ لقد تصرف معي تصرفاً مخزياً، ومع ذلك يعتبر نفسه صديقي

كما توجد جملة الحال في الحوارات المنطوقة باللغة الإنجليزية، ومن الأمثلة على ذلك:

13 ـ لم يظهر جون

نعم، وقد وعدني أنه لن يظهر

(ويجعل أوشس "Ochs" [1979] وآخرون هذا المثال دليلاً على إثبات أن الجمل الناقصة تستخدم استخداماً أقل في اللغة المنطوقة عنها في اللغة المكتوبة، ويمكننا أن نكون أكثر دقة حينما نقول إنه لا يمكن ملاحظة الجمل الناقصة نحوياً أو معجمياً). والعلاقة المنطقية بين الجملة الرئيسية وجملة الحال هي علاقة متغيرة؛ حيث إن جملة الحال قد

تكون مؤقتة أو تفسيرية. وعلى الرغم من أن جملة الحال تعد جملة ناقصة من حيث المعنى، فإنها تشبه الجمل المستقلة إلى حد كبير وتصاحب إردافياً الجملة التي تصفها.

وهنالك أنواع مختلفة من الصفات الاسمية الإرادفية بطبيعتها. وتحمل الصفات في اللغة العربية التأكيد نفسه الذي يحمله الاسم الذي تصفه، ويعتقد بيستون (1970: 45) أن تاريخ الصفات يشير إلى أنها كانت اسم بدل، وأن المعنى الدلالي للثنائيات المعجمية مثل "نفسه وعقله" تقدم دليلاً آخر على أن اسم البدل يعد آلية أساسية للوصف الاسمي في اللغة العربية. والشكل اللغوي للثنائيات المعجمية غير الاصطلاحية كهذا المثال يميل إلى أن يكون شكلاً وصفياً (كوش، 1983 ب، 54-55).

وتشبه الجمل الموصولة النكرة اسم البدل من حيث التركيب، وبذلك لا يمكن تمييزها في الجملة المستقلة الكاملة. وفيما يلي مثال واحد من النص (2) المذكور أعلاه.

14 ـ مشاعر صادقة يحس بها الشاعر، ويعيش فيها

فالدلالة الوحيدة على أن هذه الجملة (يحس بها الشاعر ويعيش فيها) جملة موصولة وليست جملة مستقلة هي أنها جزء الوحدة الإملائية نفسها التي ينتمي إليها الاسم الرئيس، كما أنها تشتمل على ضمائر إشارة (ـــها) مع الاسم الرئيسي. ومعظم الجمل الموصولة تربط بجملة رئيسة، وتحتوي على ضمير أو فعل يكون فاعله الاسم الرئيس للجملة الموصولة. ولكن قد تحتوي الجمل المستقلة بحد ذاتها على ضمائر أو أفعال تشير إلى جمل سابقة. إضافة إلى ذلك، فإن الربط الذي هو وظيفة الجمل الموصولة لا يجعلها مختلفة عن الجمل المستقلة. وهذا لا يعني القول بأن الجملة الموصولة النكرة ليست من أنواع الجمل الحقيقية في اللغة العربية. وهنالك العديد من النغمات الصوتية التي تميز هذه الجمل على أنها جمل غير مستقلة في اللغة المنطوقة، في حين تتميز جملة الوصل المعرفة بوجود أدوات الوصل. وبشكل عام، تبدو الجمل الموصولة النكرة، كجملة الحال، وكأنها بدل إردافي.

المناقشة

ويتلخص هذا النقاش في أن الخطاب الإقناعي في اللغة العربية يتميز بالتجاور الإرداقي للأفكار بكلمات، وجمل، وعبارات متوازية. ولهذا التجاور التكراري دور بلاغي عن طريق خلق "الوجود"، وذلك باستخدام المضارع المؤثر في الخطاب البلاغي. ويتميز بناء الجملة الوصفية في اللغة العربية أيضاً بالتجاور الإرداقي باستخدام اسم البدل للعبارات التي تنتمي للفئة المعجمية أو التركيبية نفسها.

0وبالتالي، فإن التأثير الدلالي للتجاور النحوي يتلخص في الوصف، وأما التأثير التداولي للتجاور في الخطاب، فيتلخص في الإقناع. وتعمل الاستراتيجية الإدراكية نفسها على كلا المستويين: فإدراكنا للأشياء يختلف بحسب ما يصاحبها. وقد أثبتت التجارب هذه الحقيقة عند دراسة الإدراك المرئي للأشكال الهندسية والألوان . فعلى سبيل المثال، في الخداع البصري الذي أجراه مولر و لاير "Muller-Lyer illusion" هنالك خطان لهما الطول نفسه، ولكن يبدو أن طوليهما يختلف إن كان أحدهما بين زاويتين تشيران إلى داخل الخط، بينما ينتهي الخط الآخر بزاويتين تشيران إلى خارج الخط (انظر الشكل 1). أو في شكل إبينج هاوس "Ebbinghaus" الذي يحتوي على دوائر متساوية في الحجم، ولكن تبدو غير متساوية إن اختلف سياقها (انظر الشكل 2)، (لوكيش "Luckiesh"،1965: 56). ولا يتفق علماء النفس حول كيفية عمل مثل هذه الصور الخادعة، إلا أن تجاورها يعد عاملاً أساسياً في ذلك الخداع، حيث يتأثر تقييمنا للكمية الهندسية تأثيراً واضحاً وذلك بحسب طبيعة المنطقة المحيطة (تولانسكي "Tolansky"، 1964: 29).

نموذج (١)

نموذج (٢)

وفيما يختص بالإدراك اللغوي للمعنى، يمكن إثبات ظاهرة ما من خلال تحليل دلالات الثنائيات المعجمية مثل كلمة "واضح" وكلمة "مختصر". وبينما تشير كلمة "واضح" إلى الجودة المطلوبة في النثر الإنجليزي، تشير كلمة "مختصر" إلى أمر آخر. ولتجاور هاتين الكلمتين "واضح" و"مختصر" تأثير كبير، حيث ستصف الكلمة "مختصر" كلمة "واضح": إذ يسهم الاختصار في الإيضاح. كما تتأثر أيضا المدارك الاجتماعية بالتجاور، فيتم الحكم على الناس بناء على من يخالطهم من أزواجهم وأصدقائهم.

وللتجاور الوظيفة نفسها سواء أكانت في بناء الجملة أم في الخطاب أم في أي مكان في النص. ويتضح جلياً أن الخطاب العربي يستفيد من هذه الاستراتيجية أكثر من اللغة الإنجليزية. ويكون أسلوب الإقناع في السياقات الرسمية ناتجاً عن إثبات الدليل أو البرهان، كما ينتج عن تبعية الأفكار بعضها لبعض أكثر من طريقة عرضها. ويبدو لي أن التشابه بين استراتيجية الوصف في اللغة العربية واستراتيجية الإقناع ليس مصادفة؛ ذلك لأنها أساليب متكررة كثيراً، وقد تكون أحياناً إلزامية. ويتم استخدام استراتيجية الوصف في السياق العربي والإرداف لأغراض تداولية ولغرض الإقناع. ويمكن تمييز أسلوب الإرداف بوصفه استراتيجية تركيبية تبعاً لأهميته التداولية وفائدة استخدامه في الخطاب. وما يسهل إدراكه يسهل استخدامه، وما يسهل استخدامه يكون سهل المنال. لذا، فإن الإرداف في اللغة العربية يعد مثالاً جيداً ليس لكونه أسلوباً لتقييد الاستراتيجيات البلاغية في البنية اللغوية فحسب، بل لأنه العملية المستخدمة في تكوين البنية اللغوية للخطاب البلاغي.

المراجع

Abboud, Peter F. et al. 1975. *Elementary Modern Standard Arabic, Part I*. Ann Arbor: University of Michigan Department of Near Eastern Studies.

Al-Batal, Mahmoud. 1985. *The cohesive role of connectives in a modern expository Arabic text*. Dissertation, University of Michigan.

Becker, A.L. 1979. "Text-building, epistemology and aesthetics in Javanese shadow theatre." In: *The imagination of reality: Essays in Southeast Asian coherence systems*, ed. by A.L. Becker and Aram Yengoyan, 211-244. Norwood, N.J.: Ablex.

Becker, Judith. 1979. "Time and tune in Java." In: *The imagination of reality: Essays in Southeast Asian coherence systems*, ed. by A.L. Becker and Aram Yengoyan, 197-201. Norwood, N.J.: Ablex.

Beeston, A.F.L. 1970. *The Arabic language today*. London: Hutchinson and Co.

Burke, Kenneth. 1950. *A rhetoric of motives*. New York: Prentice Hall.

Haddad, Ghassan and Michael Kenstowicz. 1980. "A note on the parallels between the definite article and the relative clause marker in Arabic." *Studies in the Linguistic Sciences* 10.141-147.

Haywood, J.A. and H.M. Nahmad. 1965. *A new Arabic grammar of the written language*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Koch, Barbara Johnstone. 1983a. "Presentation as proof: the language of Arabic rhetoric." *Anthropological Linguistics* 25.47-60.

Koch, Barbara Johnstone. 1983b. "Arabic lexical couplets and the evolution of synonymy." *General Linguistics* 23.51-61.

Lakoff, Robin. 1974. "Remarks on *this* and *that*." *Chicago Linguistic Society* 10.345-356.

Luckiesh, M. 1965. *Visual illusions: their causes, characteristics and applications*. New York: Dover Publications, Inc.

Ochs, Elinor. 1979. "Planned and unplanned discourse." In: *Discourse and syntax*, ed. by Talmy Givón, 51-80. New York: Academic Press.

Perelman, Chaim and L. Olbrechts-Tyteca. 1969. *The new rhetoric: A treatise on argumentation*. Trans. by John Wilkenson and Purcell Weaver. Notre Dame: The University of Notre Dame Press.

Schiffrin, Deborah. 1981. "Tense variation in narrative." *Language* 57.45-62.

Tolansky, F.R.S. 1964. *Optical illusions*. London: Pergamon Press Ltd.

Wright, W. 1951 [1898]. *A grammar of the Arabic language*. Cambridge: Cambridge University Press.

إسهام النظريات النفسية في النقد الأدبي[1]

تأليف: د. عبد الباقي رضاني

أ. سيد حسن سيد رضاني

ترجمة: أ. هيا ابراهيم المنيف

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

[1] أصل هذه الدراسة هو: "The Contribution of Psychological Theories in Literary Criticism". و قد قدمها الباحثان Abdolbaghi Rezaei و Seyyed Hassan Seyyedrezaei في المؤتمر العالمي الثالث لعلم النفس و التوجيه و الإرشاد (WCPCG-2012).

الملخص

أسهمت النظريات النفسية في التعامل مع السلوك الإنساني من جميع جوانبه، كما كان لها إسهاماتها كذلك في مختلف الحقول البحثية، لا يُسْتثنى من هذا دراسة الأدب. حيث إن النقد الأدبي يعتمد اعتماداً واضحاً على النظريات النفسية. وللنظريات النفسية أهمية كبيرة في النقد الأدبي، فإذا لم تكن لدينا دراية بالنظريات النفسية فسيصبح فهم الأدب أقرب إلى المستحيل. كما تعد معظم نظريات علم النفس – كنظرية الحركة الإنسانية لروجرز "Rogers"، وماسلو "Maslow" و إريكسون "Erickson"، ونظرية علم النفس التطوري لبولس "Bolles"، وأفكار فرويد "Freud" – ذات أهمية قصوى في النقد الأدبي. وتهدف هذه الدراسة إلى استعراض النظريات النفسية التي تستخدم في النقد الأدبي وإسهاماتها.
الكلمات الدلالية: نظريات نفسية، نقد أدبي، إنسانية، نقد تطوري.

المقدمة

إن مواكبة النقد الأدبي شيء لابد منه لفهم أي نوع من الأنواع الأدبية، لأن ذلك يُعدّ خطوة أولية نحو تطوير فهم بعض المفاهيم الدقيقة، وتطوير مبادئ و منهجيات التحليل النصي. ويعد (المنهج النفسي) من بين جميع المناهج النقدية المستخدمة في الأدب المنهج الأكثر جدلاً عند العديد من القراء. ومع ذلك فقد يكون المنهج النفسي منهجاً رائعاً ويستحق الاهتمام من القارئ على الرغم من الصعوبات التي قد يواجهها عند استخدامه وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً لتحليل المعنى الأدبي. وسوف نناقش في هذه الورقة النظريات النفسية كنظرية الحركة الإنسانية لروجرز "Rogers"، وماسلو "Maslow" و إريكسون "Erickson"، ونظرية علم النفس التطوري لبولس "Bolles" و أفكار فرويد "Freud" المستخدمة في النقد الأدبي.

وإنه لمن الواجب علينا فهم طبيعة النص الأدبي فهماً كاملاً، وأن ننظر في كيفية ارتباط الأفكار بالتجارب الشخصية، وبذلك يمكننا فهم معنى النص الأدبي على نحو أكثر عمقاً. ويطلق العالم روجرز على هذه العملية مصطلح "التحقق البين" (intersubjective verification). فعلى سبيل المثال، هناك مفهوم أساسي للموارد البشرية لماسلو ويُسمى "التسلسل الهرمي للاحتياجات" (A Hierarchy of Needs)، ويعد التحفيز أو ما يسمى

بالدافع واحداً من الاحتياجات المهمة في فهم النص الأدبي، كما يعد المفتاح الأساسي لفهمه واستيعابه.

وتُعد أفكار فرويد أفكاراً مهمة في مجال النقد الأدبي، حيث قال في كتابه "النقد النفسي التحليلي": إن التحفيز والدافع الرئيس للمؤلف ضروري لأي نص أدبي، كما قال أيضاً: إن العمل الأدبي الإبداعي يشبع بعض الرغبات المكنونة في النفس التي نمت أثناء طفولة المؤلف وقُمعت على الفور وحُفظت في العقل اللاوعي، فالمظهر الخارجي لهذه الرغبة المكبوتة سيصبح هو العمل الأدبي نفسه.
وقدم كارل روجرز مجالاً نفسياً آخر، وقد تأثر بمنهج الحركة الإنسانية وهو "تدريب علم النفس". ويشير هذا المنهج – بشكل عام – إلى التركيز على تعزيز الإمكانيات الفردية. وينطبق هذا التعريف على فترة ما بعد الحداثة في النقد الأدبي. وينص على أن المعنى يتطور كلما تفاعل القارئ مع النص نفسه. وقد أكد فلاسفة ما بعد الحداثة أن عواطف الإنسان ومشاعره وحدسه تمدنا بتفسيرات وتوجيهات صحيحة للنص الأدبي. وهذا هو الجهد الذي يقوم به القارئ في عملية النقد الأدبي. كما يؤكد هؤلاء الفلاسفة أن اشتقاق مفاهيم نص يعد بمثابة موت المؤلف.

وهناك تشابه كبير بين وجهات نظر روجرز وماسلو، حيث إن كليهما يهتم بوصف الشخص السليم، ويستخدمان تعبير "العمل بطاقة كاملة" والذي يشتمل على ميزة واحدة؛ وهي "الانفتاح على الخبرة". وهي الفهم الدقيق لخبرة الفرد في العالم المحيط، والمشتملة على مشاعره وقدرته على قبول الواقع. أما في الأدب، فإن "النقد الحديث" يعد من أهم الإسهامات الإنجليزية في تحليل النقد الأدبي من خلال الخبرة الجمالية؛ فالتأثيرات الواقعة على شخص ما قد تقوده إلى الحقيقة. ويعزز مصطلح "الانفتاح على الخبرة" لروجرز وماسلو النقد العملي والنظري، كما أنه يساعد محبي القراءة على أن يكونوا أشد قرباً من النصوص.

وكذلك فقد قدم روجرز نظرية أخرى تسمى "الثقة العضوية"، وهي أنه ينبغي لنا أن نثق في أنفسنا، ونفعل ما نشعر أنه صحيح وما يأتي بشكل طبيعي. ويتضح أن محور نظرية روجرز هو إحساس الفرد وإدراكه. وينطبق هذا أيضاً على فترة ما بعد الحداثة في

النقد الأدبي. وتؤكد تلك النظرية أن جميع تعريفات الحقيقة وتصوراتها تعتمد على إبداعات عقل الفرد وإحساسه، ولذا فإن معنى أي نص أدبي يعتمد على فهم الشخص للحقيقة الموجودة داخل النص.

ويعتقد روجرز أيضاً في نظريته "الحرية التجريبية" بأننا نشعر بالحرية عندما تكون الخيارات متاحة لنا. وتنص هذه النظرية على أن الشخص "العامل بكامل طاقته" يقر بأن الشعور بالحرية وتحمل المسؤولية يرجع إلى اختياراته. وكما ذكر العالم ريتشاردز "Richards" ووفقاً لما تنص عليه نظرية "النقد الموجه إلى القارئ" في الأدب، فإن الإنسان عبارة عن مجموعة من الرغبات تُسمى "الشهوات"، ولكي يصل الإنسان إلى التوافق والصحة النفسية، يجب عليه الموازنة بين تلك الرغبات وذلك بعمل رؤية شخصية مقبولة للعالم، والتي هي من مسؤولية اختيارات القارئ في النص.

و يعد "الإبداع" كذلك أحد مميزات نظرية "العمل بكامل الطاقة" لروجرز. وتنص على أن الشخص العامل بكامل طاقته و دائم الإنجاز سيكون ملتزماً التزاماً كاملاً بالإسهام في إنجاز أعمال الآخرين إلى جانب إنجاز مهام الحياة نفسها. وقد يتم ذلك أيضاً من خلال نظرية الإبداع في الفنون. ومنهج "الإبداع" الذي يستخدمه روجرز شبيه بمنهج "الافتراض الفلسفي الأفلاطوني المحدث" وشبيه بطبيعة عملية القراءة في النظرية الأدبية وتعريف الأدب. وتُمَكِّن هذه النظرية القارئ من دراسة وجهة نظره الشخصية للعالم المحيط به، كما توضح الافتراضات الفردية أو إبداعات الفرد التي تتعلق بالواقع، وتحدد كيف لهذه الافتراضات أن تؤثر تأثيراً مباشراً في فهمه وتفسيره للعمل الفني وتعريفه للأدب أيضا. وتؤكد النظرية "التفكيكية" في النقد الأدبي أن النص الواحد له عدد من التفسيرات التي لا حد لها، كما يؤكد بعض فلاسفة النظرية "التفكيكية" أن تلك التفسيرات هي نفسها تفسيرات إبداعية، حيث إن لكل قارئ فهمه الخاص وتصوراته الخاصة به عن الواقع.

وقدم روجر "Roger" منهج "التركيز على العميل"، وينص على أن العميل هو الشخص الذي يجب أن يحدد ماهية الخطأ، كما يجب أن يجد طرقا لتحديد العلاج وتحسينه؛ فعلاجه مازال يعتمد على "التركيز على العميل". وهذا المنهج شبيه جداً بمنهج التحليل الأدبي والذي يُعرف بـ "النقد الحديث". ويزود هذا المنهج القارئ بالطريقة

الصحيحة لتفسير النص تفسيراً صحيحاً باستخدام النص نفسه. كما يقدم هذا المنهج الطلاب المبتدئين في دراسة الأدب والأكاديميين منهجاً موضوعياً مشابهاً لاستكشاف معنى النص. و من ثم فإن باستطاعة القارئ البارع أن يكشف عما وراء النص والذي يسمى بـ "المعنى المستتر". ويصف كارل روجرز وأبراهام ماسلو الهدف من "الحركة الإنسانية" على أنه تطوير لتحقيق الذات، والمسمى بـ "نزعة التحقيق"، وهو يشير إلى الأشخاص المستقلين بذواتهم، كما يعتقدان بأن التعلم في الحركة الإنسانية هو "التركيز على الطالب" وشخصيته؛ لأن أساس ذلك هو معرفة الاحتياجات المعرفية والمؤثرة.

وتضع نظريات سيجموند فرويد "Sigmund Freud" (1856- 1939) وتطبيقاته أساساً للنقد والتحليل النفسي في الأدب، حيث وضع أساساً لنموذج الكيفية التي تعمل بها عقولنا. وبغض النظر عن العقل الواعي، يعتقد سيجموند أن للعقل اللاواعي تأثيراً كبيراً في تصرفاتنا وتفكيرنا وشعورنا. ويقول فرويد عن عملية التفاعل التي تتم بين عمل العقل الواعي و اللاواعي معا بأننا نحن من نشكل أنفسنا وعالمنا. ويتعامل فرويد مع الاضطرابات النفسية والعاطفية وفقا لهذا المنهج؛ حيث يتحدث المريض (العميل) بحرية مع طبيبه فرويد أثناء التحليل النفسي عن أحلامه وتجارب طفولته المبكرة. وعندما نطبق هذه المنهجية عند تفسيرنا وتحليلنا للأعمال الأدبية، فإننا ندخل في عملية النقد النفسي التحليلي.

وتعرف مراحل سيجموند فرويد لتطور الإنسان بمراحل فرويد "النفسية الجنسية" أو "النظرية الجنسية" لفرويد. وتميل هذه المفاهيم بطبيعتها إلى جذب الانتباه ونقد النوع الجنسي، [...]، والمهام الوظيفية التي يقوم بها الجسم بشكل عام. وباتباع نظرية فرويد في تفسير النص الأدبي، يميل الناقد النفسي التحليلي إلى رؤية جميع الصور المجوفة (المستنقعات، والزهور، والأكواب أو المزهريات، والكهوف، والتجاويف) بوصفها أنثى أو رمزاً [للأنوثة]. كما يرى الصور التي يزيد طولها عن عرضها، مثل (الأبراج، والجبال، والقمم الجبلية، والثعابين، والسكاكين، والرماح والسيوف) بوصفها ذكراً أو رمزاً [للذكورة]. وقد يعترضون على تفسير بعض الأنشطة مثل الرقص، وركوب الخيل، والطيران بأنها رموز للمتعة الجنسية.

وتمد نظرية "النقد الحديث" القارئ بطريقة تساعده على تفسير النص تفسيراً صحيحاً باستخدام النص نفسه، كما يعطي الطلاب المبتدئين في دراسة الأدب والأكاديميين منهجاً موضوعياً مشابهاً لمساعدتهم على اكتشاف معنى النص. لذا يستطيع أي قارئ بارع أن يكشف عما وراء النص ومكنوناته العميقة والذي يسمى بـ "المعنى المستتر".

ويعتقد إريكسون "Erikson" في قاعدته النفسية أنه لابد من هذه القاعدة وراثياً في تكوين تطوير الإنسان، ولذلك فهي تحدث لجميع البشر. كما أشار إلى نظريته باسم "التخلُّق المتوالي"، وتدل قاعدة "التخلق المتوالي" على مفهوم ذي صلة بالتطور (الماضي والمستقبل) وعلم الوراثة. ونظرية إريكسون هذه قريبة من أحد المناهج النقدية الأدبية؛ وهو منهج "المعرفة النصية ومصدر الدراسة"؛ فالنقد النصي يلعب دوراً مهماً بشكل خاص في دراسة الجينات وتطوير النص الأدبي، كما يفترض أن النص يكون قد كتب دون أن يتغير عن شكله الأصلي قبل خلقنا. والسؤال هنا: "هل لدينا نسخة دقيقة لما ندرس؟" هذا يعني أن للنقد النصي مفهوماً في تأسيس النص الأصلي أو النص الذي يقصده المؤلف. وكان إريكسون مهتماً اهتماماً كبيراً – كاهتمام فرويد – بكيفية تأثر السلوك والشخصية بعد الميلاد، خاصة في تكوين التطور الإنساني.

اهتم إريكسون بالجدل حول "الطبيعة والتغذية" (الجينات والخبرة)، وانصب تركيزه على التغذية والخبرة. لذا، فهو يشدد على الوعي الشخصي للعالم والتطور أو العلاقة الخارجية للشخص ببيئته. كما تهتم نظريته بـ "منهج السيرة والمنهج التاريخي" في النقد الأدبي. ويرى هذا المنهج العمل الأدبي على أنه بمثابة انعكاس لحياة المؤلف وأوقاته أو حياة الشخصيات وأوقاتها في هذا العمل الأدبي، وهو في الواقع انعكاس لخبرات المؤلف عن العالم.

وهذه النظرية قريبة أيضاً من "منهج ما بعد الحداثة" في النقد الأدبي، وبهذه الطريقة يعتقد فلاسفة ما بعد الحداثة بأن جميع تعريفات الحقيقة وتصوراتها هي ببساطة إبداعات العقول البشرية والوعي الذاتي ضمن العمل الفني وإبداع العقل، وهي جميعاً معنية بخبرته في العالم والبيئة المحيطة به.

ويعد إسهام بولس "Bolles" في النقد الأدبي، وعلى وجه التحديد في "النقد البلاغي" إسهاماً واضحاً، حيث يركز على استراتيجيات المؤلف وأدواته وتقنياته، تلك التي يستخدمها لاستنباط ردة فعل معينة أو تفسير لنص ما، كما يركز بولس على مصطلح الاختيارات التي يستخدمها الرائي لاكتساب معنى جديد.

ويعد بولس مؤسس "الحركة" لمعرفة الإنسان والحيوان، حيث أضاف أن التعلم والسلوك مُرتبطان وفق نظام وظيفي ملائم لحل المشاكل الطبيعية. وقد كتب بولس في مقاله بعنوان "الاقتباس التقليدي": "... إن مقلة عين الإنسان هي أداة الاختيار التي نستخدمها عندما نريد مراقبة ظاهرة جديدة، لا سيما إذا كنا نرغب في كسب فهم جديد لها". وإن ما نهتم به في عملية "التحليل الشكلي" لـ "المنهج الشكلي للأدب" هو ممارسة القراءة المتأنية؛ حيث تعد القراءة المتأنية نشاطاً مهماً في هذا المنهج ؛ لأنها تبدأ بالدقة في فهم كلمات النص وقيمها التعيينية والإيحائية (denotative and connotative values) وما تتضمنه من معان أخرى يستلزمها ويتبعها (implications). كما أنها تسهم في إظهار المعنى الجديد برؤية رمز جديد في النص. وهذا ما يقصده العالم روبرت بولس حينما قال: "إن ملاحظة ظاهرة جديدة تعني اكتساب فهم جديد لها".

ولدى النظرية "البنيوية" في "المنهج النقدي الأدبي" المفاهيم نفسها التي أشار إليها بولس، حيث تعرف النظرية "البنيوية" البنية النحوية، وأنظمة العلاقات التي تمنح الإشارات (مثل: الكلمات) أو المصطلحات (مثال: الملابس، والسيارات، وآداب المائدة، والطقوس الدينية) مع تعريفاتها ومعانيها، كما توضح لنا الطريقة (أو الوظائف) التي نفكر بها. وتجد النظرية "البنيوية" المعنى في العلاقة بين المكونات المختلفة للنظام. وتصبح هذه القاعدة متطورة عند تطبيقها في الأدب. ويعتقد البنيويون أن دراسة نظام القواعد التي تحكم التفسير الأدبي هي المهمة الأساسية للناقد.

الخلاصة

بعد الاطلاع على النظريات النفسية في النقد الأدبي، نجد أنهما متشابكان تشابكاً واضحاً جداً. وتعد النظريات النفسية ضرورية جداً لفهم النصوص الأدبية، وهو ما قال به أيضاً بعض علماء النفس البارزين. وذكرنا ذلك في هذا البحث. كما تمكننا هذه النظريات أيضاً من فهم أسباب تطور الإنسان والعالم، فكلما كان من الأفضل فهم الناس من خلال النصوص الأدبية، كان من الأفضل التعامل مع ما تعكسه النظريات النفسية في هذا النوع من الأدب.

المراجع

Andersen, D.C. (1993). Beyond rumor and reductionism: A textual dialogue with Erik H. Erikson. The Psychohistory review, 22 (1), 35–68.

Bressler, C.E. (2007). An introduction to theory and practical/ Literary Criticism (4th ed). New Jersey: Pearson Education, Inc.
Cohen, D. (1997). Carl Rogers. A critical biography. London: Constable.

Coles, R., Fitzpatrick, J.J. (1976). The writings of Erik H. Erikson. The Psychohistory review, 5 (3), 42–46.
Crunden, R. M. (1973). Freud, Erikson, and the historian: A biographical survey. Canadian Review of American studies. 4 (1), 48–64.

Douvan, E. (1997). Erik Erikson. Critical times, critical theory. Child psychiatry and human development, 28 (1), 15–21.

Eagle, M (1997). Contributions of Erik Erikson. Psychoanalytic Review, 84 (3), 337–47.

Hoffman, E. (1988). The right to be human: A biography of Abrahm Maslow. New York: St. Martin's Press.

Gay, P. (1988). Freud: A life for our time. London: Papermac.

Guerin, W. L., Labor, E., Lee, M., Reesman, J.C., & Willingham, J.R. (2005). A handbook of critical approaches to literature. New York, OUP.

Maslow, A. (1954). Motivation and personality. New York: Harper.
Rogers, C.R. (1951). Client–centered counseling. Boston: Houghton–Mifflin.

الدور المعرفي-الأيقوني للأصوات الاحتكاكية والانفجارية: تحليل دلالي صوتي لسورة الفلق[1]

تأليف: د. أفنان فطاني

ترجمة: د. فاطمة علي الشهري

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الإنجليزية

[1] أصل هذه الدراسة هو: " The iconic-cognitive role of fricatives and plosives: A phono-semantic analysis of a classical Arabic prayer *Al-falaq*" التي نشرت في كتاب Outside-in, Inside-out: Iconicity in Language and Literature 4 الصادر عام 2005 عن دار John Benjamins. و الكتاب من تحرير كل من: Costantino Maeder, Olga Fischer and William J. Herlofsky

مقدمة

تركز هذه الدراسة على نوع خاص من الرمزية الصوتية وهو الأيقونية الصوتية (phonetic iconicity) أو ما يعرف غالباً بالمحاكاة الصوتية (onomatopoeia)، وهو مفهوم مؤداه أن بعض الوحدات الصوتية (phonemes) سواء أكانت مستقلة أم مجتمعة في ترتيب معين تحاكي أحداث الطبيعة و حركة الحياة و تجارب الإنسان في العالم خارج نطاق اللغة. ولقد تعددت الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة في لغات مختلفة. أما اللغة العربية فلا نعرف عن الأيقونية الصوتية فيها إلا القليل مقارنة بغيرها من اللغات. ومن هنا تنبع أهمية الدراسة الحالية حيث إنها أول محاولة على حد علمي لجمع بيانات وصفية حول الأيقونية الصوتية في نظام اللغة العربية، وتقديم نموذج نظري يصف علاقة الارتباط بين الصوت والمعنى، وهو ما لم يتوفر في اللغويات العربية حتى الآن. كما ترى الباحثة أنه إذا ازداد نشاط البحث العلمي في اللغات السامية كالعربية التي تفيض بشبكة كبيرة من الكلمات الأيقونية ، فسيكون له دور في إثبات أن الأيقونية الصوتية إحدى كليات اللغة أو أنها صفة عالمية مشتركة بين لغات العالم، فضلاً عن دوره في تطوير وسائل و اكتشاف طرق جديدة في المجال الدلالي الصوتي. وبناء على هذا، ينبغي كذلك النظر إلى هذه الدراسة على أنها جزء من البحث الجاري في مجال كليات اللغة الذي يعنى بـالخصائص التي تشترك فيها لغات العالم، وبيان مداها وأنواعها (Archangeli & Langendoen 1997:2). والنص الذي وقع عليه الاختيار لتوضيح ظاهرة الأيقونية الصوتية هو (سورة الفلق) المعروفة بقوة أصواتها وإيقاع كلماتها وهي السورة رقم 113 في القرآن الكريم.

ومما لا ينبغي أن يغيب عن ذهن الباحث في سورة الفلق أن اسم هذه السورة يحمل في طياته الفكرة الأساسية التي تطرحها السورة، وتبعا لذلك، فإن اسمها بمكان مهم جداً في تحليلها، إذ يتيح لنا أن نفكك عناصر الأيقونية السائدة في السورة ونحللها. ومن هنا نجد أن تعريف كلمة "الفلق" تعريفاً دقيقاً أمر لابد منه في بداية الدراسة. وكما يتبين من وزنها الصرفي، فهي اسم يشير إلى وقوع فعل أو حدث، وهي مشتقة من الفعل "فَلَقَ" الذي يعني شق الشيء أو شطره إلى نصفين. ويهمنا في هذا المقام أن نشير إلى معنى الانشطار (fission) كما يعرفه علماء الفيزياء والأحياء، وهو الانقسام الداخلي أو الطبيعي الذي يصحبه انطلاق للطاقة. وهذا المعنى الديناميكي الذي يشير إلى الحركة والنشاط الدائم هو

المعنى الذي سيكون له دور مهم في تحليلنا لمعنى السورة في هذا البحث. ولابد لنا أن نؤكد هنا أن لكلمة "الفلق" كذلك عدداً من المعاني الإشارية (referential meanings) في اللغة العربية لا تتضمنها الكلمات المرادفة لها باللغة الإنجليزية (والقسم 5. 1 مخصص للإسهاب في معاني الفلق). وتعدد المعاني لكلمة "الفلق" وغيرها من كلمات السورة نفسها ليس ظاهرة خاصة باللغة العربية فحسب بل هي موجودة كذلك في اللغة الإنجليزية.

هدف الدراسة

تعتمد نظرية الأيقونية الصوتية الفيزيائية التي أطمح إلى التأسيس لها في هذه الدراسة، على وجود تماثل وتطابق تام بين شكل اللفظ و تكوينه الصوتي، والمعنى الذي يحمله و يؤديه؛ أي بين الخصائص الفيزيائية أو خصائص النطق للأصوات الصامتة (consonants) كالاحتكاك والاهتزاز والانقباض وضغط الهواء والانفجار وبين الأحداث الطبيعية التي تشير إليها هذه السورة (لمزيد من المعلومات حول ظاهرة التماثل أو التشاكل (isomorphism) وخاصة في مجال النحو وقواعد اللغة يمكن الرجوع إلى (Haiman 1980؛ Givon 1985, 1994). وبالتالي فإن الأصوات الاحتكاكية (fricatives) قد تتوافق مع الاحتكاك ومرور المادة من خلال فتحة ضيقة. أما الأصوات الانفجارية (plosives) فتتوافق مع حدوث الضغط ثم انفراجه في النهاية. والهدف الأساسي هو توضيح الكيفية التي تم بها توظيف أنواع من الوحدات الصوتية – وهي الاحتكاكية والانفجارية على وجه الخصوص – من خلال مواقعها وترتيب تواليها في الكلمات الأيقونية ليكون لها وظيفة معرفية في محاكاة صورة الفلق السائدة في السورة وتفسيرها، وهي حركة لها ثلاثة أبعاد فسيولوجية تنطوي على الاحتكاك والضغط والانفجار من تجويف أو نواة مستديرة، وذلك فضلاً عن كون تلك الوحدات الصوتية تعكس النظام والترتيب الخاصين بالأحداث أو التحركات التي تحدث في عالم الواقع والمشار إليها في السورة. وهذا يمثل انحرافاً جذرياً عن التوجه التقليدي في الأبحاث الجارية في المجال والتي تميل إلى نبذ الجوانب المعرفية والتعامل معها على أنها ثانوية مقارنة بالجوانب الجمالية التي يتم التركيز عليها. أما الدراسة الحالية فهي – على النقيض من ذلك – تسعى إلى الرقي بالأيقونية الصوتية إلى المكانة التي يسميها بلاك (Black 1979:39) "الأداة المعرفية" لتكون على قدم المساواة مع الأدوات المعرفية

القوية الأخرى كالاستعارة والتشبيه وغيرها والتي يمكنها أن تظهر لنا حقيقة الأشياء على غرار الرسوم البيانية والخرائط والصور.

منهجية البحث

لكي يتاح لنا أن نكشف عن العلاقة والارتباط بين الشكل والمعنى في السورة، فإن هذه الدراسة تستخدم أدوات تحليلية متنوعة مقتبسة من لغويين عدة هم بالتحديد: Leech (1969) ، Black (1970) ، Lakoff and Johnson (1980) ، Carter and Nash (1990) ، Ross (1991) ، Magnus (1997) ، Hiraga (1994, 1998). وفي رأيي أن سورة الفلق أيقونية على مستويين اثنين: المستوى الأفقي أو التعاقبي (syntagmatic) الذي نجد فيه أن الشكل الصوتي للكلمات نفسها يتميز بتقليد الواقع ومحاكاته. والمستوى الرأسي أو التراتبي (paradigmatic) والذي يعمل فيه التشكيل المتماثل للأصوات الاحتكاكية والانفجارية كأيقونة لغوية (linguistic icon). وأستهل هذه الدراسة باستخدام نموذج كارتر وناش أساساً ننطلق منه في تطوير أداة فعالة تمكننا من تحديد قوانين الربط التي تحدد التوافق التماثلي (isomorphic correspondence) بين الخصائص الصوتية والنطقية لأنواع معينة من الأصوات، وبين حدث "الانشطار" أو "الفلق" الطبيعي الذي يدل على الاضطراب والمشار إليه في هذه السورة. وتصلنا صورة "الفلق" من خلال نوعين أساسيين من الأصوات الصامتة وهي الصوامت الاحتكاكية والانفجارية، ومن خلال تكرار حدوثهما في مواقع معينة في الكلمات ذات المحتوى الدلالي (content words). و تركز الدراسة على ثماني كلمات ذات دلالة نصنفها هنا حسب عدد المقاطع فيها وحسب موقعها في الآيات إلى مجموعتين أو إلى نوعين من المتغيرات كما يلـــــي: 1) متغيرات (س) التي تضم كل الكلمات الخمس ثنائية المقطع (ثلاثية الجذر) والتي تقع في نهايات الآيات وهي: فلق، خلق، وقب، عقد، حسد. 2) متغيرات (ص) التي تضم الكلمات الثلاث متعددة المقاطع والتي تأتي في وسط الآيات وهي: غاسق (بالتنوين وصلاً)، نفاثات، حاسد (بالتنوين وصلاً). ومن الجلي كذلك أن مبدأ الأيقونية يتضح أثره في النص بشدة حتى على المستوى الصرفي أو المقطعي، حيث يمكن لنا أن نرى بوضوح أن البنية الثنائية للكلمات ذات المقطعين والتي تقع في نهاية كل آية تحاكي في بنيتها حدث الانشطار إلى

نصفين. ونظراً لما للمتغير (س) الفلق من أهمية مركزية، فإننا هنا نفترض بأنه استخدم ليكون كلمة جامعة يمكنها أن تكشف لنا الأيقونية الكامنة في الكلمات الأخرى كلها وتزيل غموضها. وتدل النتائج على أن هذا المفهوم النظري للانقسام والذي تجسده الكلمة ملحوظ كذلك في بقية متغيرات (س) و متغيرات (ص) في السورة، وتتوافق معها صوتياً. وفي رأيي أن وقوع الأصوات الاحتكاكية في بدايات الكلمات ووقوع الأصوات الانفجارية في نهاياتها على نحو سائد في السورة أمر مقصود، ذو دلالة، وله علاقة كبيرة بمنطق السورة ومعناها، حيث إنها رمزياً تصور عملية الفلق أو حدث الانقسام كما يقع في عالم الواقع. ومن هنا تأتي أهمية المنهج المعرفي (cognitive approach) في تناول الاستعارة الذي نتبناه في هذه الدراسة. وهو منهج يعتمد على مقاربات كل من: Black (1970) و Gentner (1982) و Lakoff and Johnson (1989) و(1998) Hiraga ويستند إلى مبدأ الربط أو إيجاد التوافق بين خطاطات الصور (images-schemas) أي بين عناصر من المجال المصدر (الملموس وهو المشبه به) و عناصر المجال الهدف (المجرد وهو المشبه).

الأسس النظرية للدراسة

أنواع الأيقونية:

إن التفريق بين الأيقونية السمعية (auditory iconicity) ، أي محاكاة الصوت، والأيقونية الحركية (kinetic iconicity) أي محاكاة الأحداث أو الحركة (Leech 1969: 97، Wales 1989: 226) أمر مهم في هذه الدراسة. ولقد استخدم الباحثون مصطلحين لغويين آخرين هما: محاكاة الصوت (phonomemes) ومحاكاة الحدث (phenomemes) للتفريق بين هذين النوعين من البنى الأيقونية (ولمزيد من المعلومات حول التفريق بين الأيقونية البصرية والأيقونية البنيوية يمكن الرجوع إلى Hrlofsky 2003 ، Higara 2003). و للنوع الأول (الأيقونية السمعية) تطبيقات واسعة. وكما يقول كريستال (Crystal, 1997:176) فإنه يعد عادة من خصائص اللغة الأدبية وبعض الأنواع اللغوية الخاصة كلغة الأطفال (مثل كلمة "واوا") أو لغة الرسوم الهزلية. أما في الأيقونية الحركية، فإن الشكل لا يدل على الصوت، وإنما يدل على الآلية الفعلية للحركة. وبالتالي فهي – في الحقيقة – تقليد أو محاكاة للحدث أو النشاط الذي توحي به على نحو واضح جداً. ولقد

لقي هذا النوع في الماضي تجاهلا من اللغويين (Epstein 1975، Wales 1989: 226) وعلتهم في ذلك أن أهميته محدودة جدا لقلة تطبيقاته وضآلة عدد الأحداث التي يمكن للغة أن تحاكيها. بيد أننا – في السنوات الأخيرة – نجد دراسات كثيرة مهمة قد تداركت الأمر وأزالت هذا الاعتقاد السلبي، فتناولت هذا النوع من الأيقونية بالبحث والتوضيح، وبينت تطبيقاته المختلفة (Anderson, 1998:99–104; Fonagy, 1999:21–22; 2001:115–122). وهدف هذه الدراسة لا ينحصر في توسيع نطاق الأحداث الحركية التي يمكن أيقنتها (أي التعبير عنها تعبيراً أيقونياً) باللغة فحسب، وإنما تسعى كذلك إلى الرقي بالأيقونية الحركية إلى مستوى يحظى بتقدير أكبر لا يقل عما تحظى به الأدوات المعرفية الأخرى للتجريد كالاستعارة والتشبيه والقياس. وبالإضافة إلى الأنواع العامة للبنى الأيقونية المذكورة آنفاً فقد تم تحديد ثلاثة عناصر أخرى للأيقونية وهي الصورة (image) الصورة البيانية (diagram) والاستعارة (mataphor). وقد سبق إلى التمييز بين هذه الأنواع المختلفة الفيلسوف بيرس (1931 المجلد الثاني الفقرة 277) الذي استند في تصنيفه إلى العلاقات المختلفة بين الدال (signans) والمدلول (signatum) أي بين الشيء أو العنصر الدال (item) وما يدل عليه (referent) (Hopper & Traugott 1993: 26). وفي الصورة (image) يمثل الشيء الصفات البسيطة لما يدل عليه (كالصورة الفوتوغرافية أو تمثال الإنسان) في حين أن الشبه بين الشيء وما يدل عليه في الصور البيانية (diagram) ليس له وجود إلا فيما يتعلق بالعلاقات بين أجزائه (مقتبس في كتاب Jakobson 1965: 418) كالمنحنيات الإحصائية والعلامات الجبرية الرياضية. أما في الاستعارة فيتم تمثيل الصفة المميزة للمدلول بشيء آخر كما في المثال التالي الذي يقدمه لنا هوبر وتروجات Hopper and Traugott (1993: 222): "حبيبتي وردة" والذي نجد أنه يصور خصائص معينة للحب كالجمال والمشقة من خلال ما يناظر هذه الصفات في الورد وهي الجمال و الشوك. ولقد أولى الباحثون الأيقونية اللغوية في السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً من أجل تقديم مزيد من الشرح والتوضيح والتعديل لطرح بيرس (Peirce) في التفريق بين الأيقونية الصورية (imagic iconicity) و الأيقونية الصورية البيانية (diagrammatic iconicity). وقد قام كل من فيشر وناني (Fischer and Nanny (2001:6–7 في مقدمتهما حول الأيقونية في مجلد خاص من المجلة الأوروبية لدراسات اللغة الإنجليزية European Journal of English Studies بتقديم وصف للفرق بين هذين النوعين:

في الأيقونية الصورية نجد علاقة مباشرة ندية إلى حد ما بين العلامة اللغوية "sign" (و غالباً ما تكون جذراً أي شكلاً ليس له بنية صرفية منتظمة) والمدلول المشار إليه "signified". والعلامة هي الشكل اللفظي المادي الذي قد يتألف من أصوات (في الكلام) أو حروف (في الكتابة)؛ أما المدلول فهو المفهوم أو الشيء الذي تشير إليه العلامة في العالم الواقعي كما نعيشه. وأشهر أمثلة النوع الصوري هو علامات المحاكاة الصوتية كصوت القطة (مواء) أو الأيقونات المرئية كالرسوم والصور الفوتوغرافية. فهذه العلامات مستوحاة من الشيء الذي تمثله في عالم الواقع، ولهذا فهي ليست اعتباطية.

والأيقونية الصوتية التي نتناولها في هذه الدراسة من النوع الصوري؛ إذ نجد أن البنية الصوتية للكلمات الرئيسة ذات المحتوى الدلالي تحاكي مباشرة النشاط الحركي لعملية الفلق المشار إليها في السورة. والأصوات الاحتكاكية التي تُنْطق من خلال تدفق الهواء عبر تجويف ضيق، والانفجارية التي يقتضي نطقها ضغط الهواء خلف حاجز وتنتهي بالانفجار، تحاكي بدقة هذه النشاطات الحركية الثلاثة للفلق وتتطابق معها تطابقاً تاماً. ومما يثير الاهتمام أن سورة الفلق كذلك يظهر لنا فيها ما يسمى بالنوع الصوري البياني من الأيقونية الذي يوضحه فيشر وناني كما يلي (Fischer and Nanny, 2001:7-8):

أما في الأيقونية الصورية البيانية (diagrammatic iconicity) فإن العلاقة المباشرة الملموسة بين العلامة sign وما تدل عليه signified غائبة. ونجد بدلاً منها رابطاً أيقونياً يربط بين العناصر على مستوى العلامة وبين العناصر على مستوى المدلول عليه. وهذا التعريف يوضح لنا – على الفور – أن الأيقونية الصورية البيانية تتضمن أكثر من عنصر واحد، وذلك على النقيض من الأيقونية الصورية؛ أي أنها تتضمن بنى معقدة صرفياً سواء أكانت مركبة أم مشتقة أم سلسلة من الكلمات. إنها العلاقة بين العناصر اللفظية التي تعكس أيقونياً العلاقة بين الأحداث على المستوى النظري. ومن أمثلة ذلك الأيقونية الزمنية التي هي شكل طبيعي من الأيقونية في اللغة: فتسلسل العناصر على مستوى الشكل يحاكي التسلسل الزمني للأحداث في الواقع.

ونجد في سورة الفلق أن الأصوات الاحتكاكية والانفجارية تنتشر في أجزاء السورة لتحاكي التسلسل الزمني لعملية الفلق في الواقع، بالإضافة إلى كونها تحاكي حركتها من

حيث الاحتكاك والضغط والانفجار؛ أي أن توالي أجزاء حدث الانشطار أو الفلق الثلاثة ينعكس في التسلسل الثلاثي للأصوات الصامتة المتضمنة في كلمة الفلق والكلمات الأخرى التي تناظرها في الموقع وهي: خلق و وقب وعقد و حسد. ومن هنا أقول بأن هذه الكلمات تمثل ما يسمى "الرسوم البيانية الأيقونية" (iconic diagrams) (Fischer and Nanny 2001) لأن العلاقات بين هذه الأصوات الثلاثة في كل كلمة تماثل تلك التي نراها بين الأجزاء الثلاثة في عملية الفلق التي تصورها تلك الكلمات. وسأحاول في التحليل الرمزي الصوتي اللاحق أن أبين الكيفية التي يرمز بها وقوع الأصوات الاحتكاكية في بداية الكلمات والانفجارية في نهاياتها على نحو منتظم إلى عملية الفلق ويحاكيها صورياً (imagically) وبيانياً (diagrammatically) في آن واحد كما تحدث في الواقع.

الاستعارة الصوتية

لقد قدم لنا كارتر وناش (Carter and Nash 1990: 119–129) واحدة من أفضل المحاولات في طرح تحليل أكثر موضوعية للأيقونية يستند إلى البراهين اللغوية. ونظريتهما حول ارتباط الشكل بالمعنى التي أسمياها مبدأ المحاكاة الصوتية (the onomatopoeic principle) مبنية عموماً على الارتباط بين أنواع الأصوات الصامتة والمفاهيم الدلالية التالية: القرع أو الدق (percussiveness) والاحتكاك (friction) والاستمرار أو الديمومة (continuity). وفي بحث جديد عن نظرية الرمزية الصوتية هذه يطرح كارتر وآخرون (1997:48–62) التصنيفات العامة التالية:

المجهورة / المهموسة (voiced/voiceless): الصوت الشديد الجهير المشبع مقابل الصوت الرخو الرقيق اللين.

الانفجارية (plosives): الأصوات القرعية – التي تشبه الخبط أو الطرق أو الدق.

الاحتكاكية وشبه الاحتكاكية (fricatives and affricates): وتعتمد على الاحتكاك ـ وتشبه الهمس والحك.

الأنفية والتقاربية (nasals and approximants): الصوت أو الحركة المستمرة المتواصلة ـ الانسياب والتموج والهمهمة.

وبتطبيق مبدأ المحاكاة الصوتية هذا على نصوص شعرية يستحدث كارتر وناش أداة نظرية سمياها الاستعارة الصوتية (phonetic metaphor) بناء على افتراض مفاده أن التحليل الصوتي للكلمات المهمة يمكن أن يقدم لنا معايير واضحة للبحث في المعاني وسبر أغوارها. ولهذه النظرية شرطان رئيسان لهما أهمية كبرى في طرحنا هنا. وحري بنا أن نقتبسهما بالكامل. وتنبع أهمية الشرط الأول من كونه يمكننا من استيضاح ملامح الأيقونية الحركية وتعريفها تعريفاً أدق على أنها تطابق أنواع الأحداث وليس نشاطاً معيناً فحسب. وبعبارة أدق تشير إلى المقارنات بين عناصر الفئات المختلفة (Glucksberg & Keysar 1990:11) على النمط التالي: أ ينتمي إلى الفئة ب بدلاً من إطلاق عبارات تقريرية تتعلق بالهوية كقولنا أ مثل ب. ونورد فيما يلي ما يطرحه كارتر وناش بهذا الشأن (1990:123):

إن الكلمة التي تتسم بالمحاكاة الصوتية لا تخصص حدثاً منفرداً بعينه، بل تشير إلى أنواع الحدث في العالم المادي. والحدث الذي تعبر عنه كلمة crunch أو "قضم" بالمحاكاة الصوتية يتضمن ثلاثة أمور 1. الأثر المفاجئ لشيء صلب مضغوط يضرب بقوة على شيء سهل التطويع 2. سطح مرن صلب لكنه هش رغم صلابته 3. صوت خشن عال لكنه لا يدوم طويلاً. والكلمة بكل معانيها وشكلها خلاصة تمثل كل هذه الخصائص من خلال التطابق الذي نجده بين هذه الخصائص وبين الخصائص الصوتية لأصوات صامتة وصائتة معينة من الكلام. ويمكن الاحتجاج بكلمة crunch على أنها تتميز بالمحاكاة الصوتية في مقابل الاحتمالات الأخرى مثل crimch, crunge التي ليست مقنعة (و ليس لها وجود في اللغة الإنجليزية).

والشرط الثاني الذي يؤيده كارتر وناش وغيرهم من الباحثين في المجال مثل إبشتاين (Epstein 1975) وتروجت وبرات (Traugott and Pratt, 1980:71) هو أن الصوت وحده لا يصنع المعنى، وأن الأمر يقتضي وجود كلمة رئيسة أو مجموعة من الكلمات تكون قرائن تدل على المعنى وتولد الارتباط بين الشكل والمضمون (المرجع السابق ص: 123):

وفي الخطاب الشعري نوعان من الحراك الذي يتميز بالمحاكاة الصوتية. الأول منهما وهو الأقل شيوعاً، يظهر في الكلمات المألوفة المتكررة نسبياً وتتميز بالمحاكاة الصوتية مثل: خدش، ارتطم، أنّ، تأوه، زمجر، هدر، خر، كسر، صاح، جلجل، أز، عوى، زأر، دندن. والثاني و هو الأهم، يتمثل في تركيب أو نسيج أو تصميم تتمازج فيه الأصوات التي تقدم للقارئ مقرونة بفكرة أو صورة معينة – ويقتنع القارئ بها من خلال الاستعارة الصوتية (phonetic metaphor) – وهو مصطلح يمكن القول بأنه أكثر ملاءمة من الرمزية الصوتية (phonetic symbolism) حيث إن الرمزية تتطلب ارتباطاً ثابتاً وخاصاً بين شيء (الرمز) وشيء آخر (ما يرمز له) في حين يتم خلق التقابل المبني على الاستعارة بحرية. وإذا صح التعبير يمكن مقايضتها والتعامل معها في السياق.

وبالرغم من أن الأيقونات سهلة الفهم لأن وجه الشبه بينها و بين الأشياء مباشر وملموس كما يذكر الباحثون – وهم محقون في ذلك – فإن الإشكال في سورة الفلق يكمن في أن كلماتها ليست أيقونية بطبيعتها و لا يمكن إدراك العلاقة بين شكلها ومضمونها بسرعة أو بصورة مباشرة؛ والذي يحدث أن سمتها الأيقونية لا تنشط إلا عندما تقترن بمفهوم دلالي. والمفردات الرئيسة التي أقول بأنها قرائن دلالية هي اسم السورة "الفلق" و نظائرها الأربعة التي تقع في نهايات الآيات: خلق، وقب، عقد، حسد. وهذه الكلمات الخمس مجتمعة تختزل حركة "الفلق" وتعمل عاملاً صوتياً مرتبطاً بحركة الفلق والإحساس الذي تثيره. وسنطبق فيما يلي المفاهيم والنظريات التي ذكرناها آنفاً في تفسير السورة.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

البنية الدلالية للفلق

إن مفهوم الاستعارة الصوتية – كما ذكرنا سابقاً – مبني على التوليف الذي يزاوج بين الأصوات، ونقدمه للقارئ مقروناً بموضوع معين. لذا حري بنا إذن أن نبدأ بشرح وجيز للمحتوى الدلالي للنص، وأن نبرز الصورة التي تسيطر على المشهد في السورة قبل أن نشرع في إسناد المعاني إلى الكلمات الأيقونية. (ولمزيد من التفصيل حول تحليل المكونات للكلمات الرئيسة التي ذكرناها في هذا الجزء انظر فطاني 2002أ). والفلق من قصار السور، آياتها خمس وكلماتها ثلاثون، مقسمة بالتساوي إلى خمس عشرة كلمة ذات محتوى دلالي (content words) وخمس عشرة كلمة وظيفية أو نحوية (functional words). وهي من المعوذات التي نلجأ إلى الله فيها بقدرته على الفلق ونسأله أن يحمينا ويجيرنا من شرور أربعة. وللسورة بنية دلالية تتميز بالبساطة والتكرار: قل أعوذ برب س من شر ما ص1 ، و من شر ص2 و من شر ص3 و من شر ص4. والفعل الرئيس "أعوذ" فعل معقد يعبر عن الاتجاه المجازي الذي يعني التحرك نحو هدف متباعداً عن مصدر ما. و بالتالي فهو يحتاج إلى شبه جملتين من جار ومجرور: "بـ" + الهدف و "من" + المصدر. فالمستجير هنا كأنه يفر مجازاً من مجموعة من العناصر المؤثرة التي هي بدورها منخرطة في سلسلة من الحراك النشط في الزمان والمكان. وهذه العناصر الفاعلة تشمل ما يلي: ذات أو كينونة تندفع نحو الأسفل (غاسق) وتمثل كل أحداث الطبيعة التي تتجه للأسفل كتدفق الطوفان والمطر والدموع إلخ أو هبوط الظلام. 2) والنفاثات في العقد، وهي كناية عن الساحرات اللاتي يمارسن نوعاً من السحر القديم في عصور الظلام 3) والحاسد عندما يحسد. ونلاحظ أن العنصر الأخير "حاسد" فيه إبهام متعمد باستعمال كلمتين متجانستين جذرهما واحد: "حاسد" و "حسد" مما يخلق فجوة في المعلومات حول نوع الحدث الذي تنطوي عليه عملية الحسد. وسيبين تحليلنا أن السورة تكشف هذا الغموض الدلالي وتزيله ببنيتها الصوتية. ولا يتأتى لنا كشف هذا الغموض إلا من خلال قراءة فاحصة ومتعمقة لبنية السورة الأيقونية التي تتميز كذلك بالتوازي. وفيما يتعلق بالجانب النحوي، فإن بنية السورة تتسم بالبساطة والسهولة وعدم التعقيد لكونها تخلو تماماً من الجمل التي لها محل من الإعراب كالجمل الوصفية أو الجمل الاسمية الواقعة مرفوعة في محل المبتدأ أو الفاعل أو منصوبة في محل المفعول به أو مجرورة بعد حرف جر إلخ. وأهم الوحدات أو

التراكيب النحوية التي استعملت في السورة هي الجمل الظرفية التي تعتمد على نمط واحد، و هو كلمات تمثل "المصدر" و "الهدف"؛ وفي السورة تسع جمل ظرفية، ست منها جار و مجرور، وثلاث موصولة. كما تسود ظاهرة التوازي في السورة لتكرر هذه الجمل على نحو منتظم، وخاصة تلك التي تبدأ بحرف الجر "من"، وتتصل بجملة صلة يأتي الاسم الموصول "ما" في أولها، وكذلك لاستمرار التكرار اللفظي في الموقع نفسه في بداية كل وحدة نحوية. ويمكن توضيح تماثل هذه الآيات من خلال وضعها في جدول حتى نسلط الضوء على العناصر الثابتة والمتغيرة (الجمل الظرفية الثابتة مكتوبة بالخط المائل، أما الأفعال والأسماء المتغيرة فمرقمة ومكتوبة بخط أسود بارز):

قل أعوذ	برب س1
من شر	ما س2
و من شر ص1	إذا س3
و من شر ص2	في س4
و من شر ص4	إذا س5

وإذا أمعنا النظر في عناصر (س)، فسيكشف لنا ذلك علاقة محكمة النسج بين الكلمات الخمس التي تقع في نهايات الآيات الخمس والتي تبدو جزءاً لا يتجزأ من النشاط الحركي للفلق. وسنجد كذلك أن عناصر (ص) المتغيرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً من الناحية النحوية والدلالية بنظيراتها من عناصر (س). وربما كانت الكلمتان الرئيستان "الفلق" و "وقب" هما ما يدفع القارئ إلى أن يستشف الصلات اللفظية بين فواصل الآيات وأن يستشعر وجود المبدأ الأيقوني الفاعل والمؤثر في السورة. وباستخدام مصطلحات كارتر وناش، فإن وظيفة هاتين المفردتين في السورة هي أنهما كلمتان تنبضان بالمحاكاة الصوتية، وبالتالي فهما جديرتان بمزيد من التفصيل والتوضيح.

الفلق : الكلمة الجامعة

إن لكلمة "الفلق" بصفتها اسم السورة وضعاً خاصاً، حيث تبرز أسلوبياً وتأتي في الصدارة على أنها موضوع النص، وتمثل فكرته الأساسية، وبذلك يمكن لها أن تفكك البنية المعجمية للنص بطريقة تشبه ما نراه في لعبة الدمينو. وهذه الكلمة من الناحية الدلالية مفردة جامعة شاملة ترتبط ببقية الكلمات الأربع التي تأتي في نهايات الآيات، أو التي صنفناها على أنها من عناصر (س)في السورة بعلاقة "جزء من كل". وكما ذكرنا في المقدمة، فإن كلمة "الفلق" اسم فعلي مشتق من الفعل "فلق" الذي يدل على الحركة والنشاط والقوة. وبالإضافة إلى معناه الأساسي "شطر" أو "شق"، فإن له معاني إشارية أخرى وهي:

انبلاج الفجر والصبح

انفلاق الحبوب والنوى

كل شيء ينشق أو ينفلق ويظهر للوجود؛ أي كل خلق الله.

وكما يوحي لنا التعريف السابق، فإن المعنى الحرفي لكلمة الفلق يشير إلى عملية الانقسام الحركية وكذلك إلى المعنى المجازي للنماء والازدهار. وكلا المعنيين متداخلان ويرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً واضحاً، حيث يشيران إلى عملية انقسام الخلايا البيولوجية التي تحدث في عالمي النبات والحيوان. وعلى أي حال، فإن المعاني الواردة في المعجم لهذه الكلمة إيجابية ترتبط بالتكاثر وبحركة الانبثاق للأعلى في نمو النبات وإثماره. ويتضح لنا بجلاء أن السورة تحاول أن توسع المجال البيولوجي للانقسام لينضوي تحته ثلاثة مفاهيم سلبية جديدة وهي: كل الأشياء التي تتدفق أو تسقط والسحر والحسد. وبالإضافة إلى ذلك، فإن التماثل الشديد الذي يميز التراكيب النحوية للسورة يثبت أن هذه الشرور الأربعة وردت في السورة لنفسرها على أنها أنواع من الفلق.

وقب: عملية معقدة لها ثلاثة جوانب

تمثل كلمة "وقب" نقطة محورية في السورة بسبب موقعها الاستراتيجي في منتصف السورة تماماً إضافة إلى أهميتها في توضيح معنى السورة. كما أن كون الأصوات التي تظهر في نهايات الكلمات تتبع النمط التالي: (أ أ ب ج ج) يبرز هذه الكلمة حيث نجد أنها فعلياً تقسم النص إلى شطرين وكأنها بيت من الشعر منعزل ومحصور بين أبيات ثنائية لها قافية واحدة. وبالتالي فإن النمط العروضي للسورة يقدم لنا – دون أن نشعر – انقساماً بيانياً أو تصويرياً يمكن رؤيته على أنه يضاهي عملية الفلق بنيويا؛ أي أن هذا التركيب الذي يعتمد على المقابلة العكسية (chiastic construction) يمكن النظر إليه على أنه يشير إلى مستوى آخر من الأيقونية في النص. وكلمة "وقب" من حيث الاشتقاق فعل مشتق من الاسم "وقب" الذي يدل على الحركة، وهو التجويف أو الحفرة في الصخرة تتجمع فيها المياه ثم تنبجس منها وتتدفق (لاحظ سكون آخر الكلمة عند الوقف عليها). كما أن لهذا الاسم الدال على الحركة معنى أوسع وأعم يشمل أي تجويف أو محجر يخرج الماء منه كالدموع من العين والمطر من الغيوم والدم من الجرح والحمم من البركان إلخ. وهكذا يشكل الفعل "وقب" هجيناً معقداً ينتمي إلى نوعين مختلفين من أنواع الكلام: الأسماء والأفعال، ويشترك في قوة كل واحد منهما. وبصفته مشتركاً لفظياً (homonym) فهو يشير إلى كل من التجويف الذي يخرج الماء منه والبداية الفعلية لعملية خروج الماء وانبثاقه. وفي كلا الحالين سواء الفعل أو الاسم يتجلى لنا أن معنى الفجائية والقوة يرتبط بالحركة التي تنطوي عليها الكلمة. وإذا وقعت مع أسماء مجردة كالظلام أو الليل مثلا، فإن معناها الطبيعي هو "وصل" أو "جاء" أو "دخل" أو "حل" كقولنا "حل الظلام" و "جاء الليل" و "دخل الصبح". ولاحظ هنا أن الفعل يفقد معنى الخروج المفاجئ والقوي أو الانبثاق عندما يقع مع أسماء مجردة. ولكن هذا المعنى يبقى مستمراً في كلا السياقين سواء وقع هذا الفعل مع كلمة المطر أو الظلام، حيث يشير إلى عملية الدخول أو الانبعاث . كما تعبر كلمة "وقب" عن حركة مضادة باتجاه الجوانب، أو إلى الأعلى بعكس كلمة غاسق الملازمة لها والتي تشير إلى الحركة إلى الأسفل. وإذا نظرنا إلى الفعل "وقب" على أنه مشتق من الاسم "وقب" فإن استخدامه في السورة يشير إلى عملية معقدة ذات ثلاثة جوانب وهي: 1. الاحتكاك عندما تمر المياه عبر المساحة الدائرية الضيقة لتجويف الصخرة 2. تراكم المياه شيئاً فشيئاً 3. الضغط

ثم الاندفاع أو الانفجار القوي في نهاية الأمر. هذه العملية ثلاثية الأبعاد تتفق كثيراً مع ما نعرفه عن عملية الانقسام البيولوجية التي تتضمن تكدس المادة في النواة أو الخلية وتزايد الضغط، ثم انتهاء ذلك بالانفجار أو الانفلاق. وبالتالي فإن استخدام الفعل غير الاسمي "وقب" له فائدة مضاعفة في أنه يندمج و يتكرر في المفهومين المتلازمين: التجويف المستدير والاندفاع القوي اللذان يشكلان جزءاً مهما من عملية الفلق. وبسبب التركيب الصوتي والنحوي المحكم الذي يربط بين المفردات الخمس التي تقع في فواصل الآيات، فلا بد من أن نفترض أنها دلالياً تشارك أيضاً في القيم الدلالية المختزلة في الفعل "وقب". وهذا يتماشى مع مفهوم ياكوبسون (Jakobson, 1966: 179) الذي أصبح الآن مبدأ من مبادئ التحليل الدلالي الصوتي، ومفاده أن الكلمة إذا دخلت قصيدة تعتمد في بنائها على التوازي اعتماداً كلياً، فإن هذه الكلمة تخضع لقيود النظام الذي نجده يتحد مباشرة مع النسق المتكون بإحكام من القيم الدلالية والأشكال النحوية المستخدمة أدواتٍ للربط.

التحليل الصوتي الأيقوني

كما ذكرنا في المقدمة، فإن السورة تنقل لنا صورة الفلق أيقونيا وتجسدها رمزياً من خلال نوعين أساسيين من الأصوات الصامتة وهي الانفجارية والاحتكاكية، ومن خلال أماكن تكررها في الكلمات ذات المحتوى الدلالي (Lyons, 1977: 43). والأدوات التي اعتمدت عليها السورة في نقل الصورة هي كل الكلمات الأساسية متعددة المقاطع، وهي بالتحديد الكلمات الخمس التي تقع في نهايات الآيات (عناصر (س) المتغيرة) وأسماء الفاعلين الثلاثة المرتبطة بها نحوياً (عناصر (ص) المتغيرة). والكلمة الوحيدة متعددة المقاطع المستثناة من هذا التصنيف هي الفعل "أعوذ"، إذ ليس هذا الفعل جزءاً من المتغيرات (س) أو (ص) في السورة. لكن هذا الفعل يتبع ترتيباً معاكساً أو مغايراً لترتيب الأصوات الانفجارية والاحتكاكية. وهذا من شأنه أن يزيد من حساسيتنا للنمط السائد والمؤثر في السورة . والجدولان التاليان يقدمان لنا تصنيفاً للصوامت في هذه الكلمات الثمانية. وهي مرتبة حسب وقوعها في السورة، بالإضافة إلى تعداد رقمي للأصوات الاحتكاكية والانفجارية والمحبوسة (obstruents) والرنانة (sonorants) في كل كلمة.

الجدول 1: متغيرات (س)

	الصوت الأول	الصوت المتوسط	الصوت الأخير	عدد الأصوات الاحتكاكية	عدد الأصوات الانفجارية	عدد الأصوات المحبوسة	عدد الأصوات الرنانة
فلق	ف	ل	ق	1	1	2	1
خلق	خ	ل	ق	1	1	2	1
وقب	و	ق	ب	0	2	2	1
عقد	ع	ق	د	1	2	3	0
حسد	ح	س	د	2	1	3	0

الجدول 2: متغيرات (ص)

	الصوت الأول	الصوت المتوسط	الصوت الأخير	عدد الأصوات الاحتكاكية	عدد الأصوات الانفجارية	عدد الأصوات المحبوسة	عدد الأصوات الرنانة
غاسق	غ	س	ق	2	1	3	0
نفاثات	ن	ف-ث	ت	3	1	4	1
حاسد	ح	س	د	2	1	3	0

يتضح لنا من الجدولين السابقين تكرر وقوع أنواع معينة من الصوامت وهي: الاحتكاكية وتشمل: (ف ، خ ، غ ، ح ، ع ، ث ، س) والانفجارية المهموسة وتشمل: (ق ، ق ، ب ، د ، د). إذن نلحظ هيمنة الأصوات الانحباسية (22 مرة) بخلاف الأصوات الرنانة محدودة العدد (4 مرات للواو واللام والنون). وبوجه أو بآخر فإن النسبة العالية للأصوات الانحباسية مقارنة بحروف العلة الرقيقة والأصوات الرنانة تتسبب في وجود تنافر صوتي يتوافق بشدة مع الصورة القاسية والمضطربة للفلق. وهذه الأصوات المتنافرة صوتياً لا تسهم في إبطاء وتيرة السورة فحسب، وإنما تزيد من صعوبة نطق الآيات كذلك. وإذا أمعنا النظر في الجدولين السابقين، لوجدنا أن هذه الأصوات الانحباسية موزعة توزيعاً متساوياً بين الكلمات الخمس الواقعة في فواصل الآيات. وتظهر الأصوات الانفجارية في بدايات الكلمات ما عدا كلمة "وقب" التي تقع في منتصف السورة، وتبدأ بالصوت الانزلاقي "و"، في حين أن الأصوات الانفجارية تقع في نهايات كل الكلمات. ويظهر لنا وجود تشويش مدروس لهذا النمط الصوتي من خلال كلمة "وقب"، حيث نجد تحولاً من الصوت الاحتكاكي إلى الصوت الانزلاقي في بداية الكلمة. وكذلك نلاحظ ضمن فئة الأصوات الانفجارية هيمنة الصوت ق الذي نشهد تتابع تحوله من كونه يقع في نهاية الكلمات (فلق، خلق) إلى وسط الكلمات (وقب، عقد) ثم حذفه فجأة في آخر كلمة (حسد). كما نجد من اللافت تكرر الأصوات الصامتة التاجية أو الخلفية (coronal or back consonants)؛ وهي الأصوات الاحتكاكية اللهوية والبلعومية (pharyngeal and uvular fricatives): (ع ، غ ، خ ، ح).

و تكرر الصوت الانفجاري اللهوي (uvular plosive) ق وكل هذه الأصوات نجحت في خلق إيقاع قاس وحنجري (glottal) يتوافق مع استغراق السورة في تحركات الفلق المضطربة. كما نلاحظ أن الكلمات الخمس تتبع خطة تتقدم تدريجيا. ويدل على ذلك الازدياد المطرد في عدد الأصوات الانحباسية من 1 إلى 3 في كل كلمة. وأما الأصوات الاحتكاكية والانفجارية ضمن فئة الأصوات الانحباسية فهي بدورها تحكمها علاقة متماثلة ذات اتجاهين؛ فتبدأ بارتفاع مفاجئ في عدد الأصوات الاحتكاكية (من 1 إلى 2 في كل كلمة) ثم انخفاض مفاجئ في عدد الأصوات الانفجارية (من 2 إلى 1). كما نجد ثلاث نقاط أساسية للتحول ضمن هذا التماثل الصوتي، مما يشير إلى تنوع جديد في النمط: التحول الأول وقع على مرحلتين ممثلاً بالفعل "وقب"، حيث حذف الصوت الاحتكاكي الذي كان يرد في بداية الأفعال السابقة، وحل محله الصوت الانزلاقي و ، والتحول الثاني حل فيه الصوت الانفجاري ق محل الصوت المتوسط أو المائع (liquid) في وسط الكلمة و أخيرا التحول الختامي، وتمثل في كلمة "حسد"، حيث نجد نبذاً مفاجئاً للصوت المركزي ق و استبدال الصوت الاحتكاكي س به. ونلاحظ أن "حسد" وهي آخر تنويع في هذا النمط مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنظيرتها في الآية السابقة عقد التي تشترك معها في الصوت الأخير، حيث تمثلان معاً تركيباً مثيراً للاهتمام، يتصف بالمقابلة العكسية (chiastic). فـفعل "حسد" يقلب ترتيب الأصوات الموجود في كلمة "عقد" (احتكاكي فانفجاري فانفجاري) ويقدم لنا ما يشبه انعكاس الصورة في المرآة بالترتيب التالي: (احتكاكي فاحتكاكي فانفجاري). وحتى نرى نسق التعقيد المتزايد في هذا النمط، وحتى نتمكن من ملاحظة التحول الصوتي بشكل أفضل، فمن المفيد تحويل البيانات الصوتية لكل كلمة إلى قيم نطقية؛ أي تحويل كل حرف ساكن منها إلى فئته الصوتية التي ينتمي إليها. ونقاط التحول الثلاث مكتوبة بالخط المائل:

فلق *احتكاكي - مائع - انفجاري*

خلق *احتكاكي – مائع - انفجاري*

وقب *انزلاقي – انفجاري - انفجاري*

عقد *احتكاكي - انفجاري - انفجاري*

حسد احتكاكي- احتكاكي- انفجاري

والنمط الصوتي السابق يوضح بجلاء أن الأصوات الانحباسية موزعة بين كل الكلمات التي وقعت في نهايات الآيات توزيعاً له دلالة مهمة، وذلك لتحاكي عملية الفلق. وكل تنوع صوتي في النمط يقصد به الإشارة إلى التنوع الدلالي في عملية الفلق المشار إليها في السورة. كما نجد تدرجاً في درجة الشدة أو القوة في هذه المجموعة اللفظية. ونحن نتنقل بين أشكال مختلفة من الفلق. فتعيد المفردات واحدة تلو الأخرى محاكاة عملية الفلق؛ مزاوجة بين العناصر الصوتية التي تتألف منها بطرق مختلفة حتى تصل إلى الانفجار القوي من خلال صوت انفجاري مهموس يقع مزفوراً أو في آخر الكلمة. ومن الواضح أن نمطية بهذا الحجم لا يمكن أن تلاحظ ببساطة، وما نحن بصدده هنا ليس مجرد مسألة تكرار. ولإثبات هيمنة هذا النمط (احتكاكي –انفجاري) لا نحتاج إلا أن نقوم بعملية عد سريعة للأرقام. وسنجد ضمن فئة الكلمات ذات المحتوى الدلالي ومتعددة المقاطع أن العدد الكلي للأصوات الاحتكاكية هو 12، ستة منها في بدايات الكلمات (أي 50%) ولم تظهر أبداً في نهايات الكلمات. أما الانفجارية فمن بين عشر مرات ظهرت فيها نجد ثمانية منها في نهايات الكلمات (أي 80 %) ولم تظهر أبداً في بدايات الكلمات. وهذه الأرقام مقنعة وتدعم فكرة أن المواقع التي تميل الأصوات الاحتكاكية والانفجارية إلى الظهور فيها هي جزء من فكرة السورة ورسالتها، ويجب أخذها في الاعتبار عند تحليل معناها.

حروف القلقلة: القاف وحدة صوتية سائدة

بعد أن أثبتنا الدور المحوري للأصوات الانفجارية المجهورة بالنسبة لمعنى السورة الدلالي، ينبغي لنا الآن أن نناقش مناقشة سريعة الفئة التي تنتمي إليها هذه الوحدة الصوتية. إن كل الكلمات التي تظهر في نهايات الآيات تنتهي بثلاثة أصوات انفجارية مجهورة و هي القاف و الباء و الدال، و هي من حروف القلقلة الخمسة (القاف و الباء و الدال و الجيم و هي مجهورة و الطاء وهو صوت مهموس) كما تتميز بالاهتزاز والجهارة بسبب توفر العاملين معاً: كونها مجهورة وكونها انفجارية. والنطق الكامل لحرف من حروف القلقلة أو الوقف المجهورة يمر بثلاث مراحل: مرحلة الغلق التي تتحرك خلالها أعضاء النطق لتكوين الانحباس؛ ثم مرحلة القبض أو الضغط التي تضغط خلالها الرئتان

الهواء قبل الغلق؛ ثم مرحلة الإطلاق أو الانفجار التي تقوم خلالها الأعضاء التي سببت الحبس بالسماح للهواء المضغوط بالخروج فجأة. ومن شروط نطق الصوت الانفجاري أن جهاز النطق بكامله المتسبب في عملية الغلق الأولى يجب أن يشكل مكاناً مغلقاً لخروج الهواء. وأصوات هذه المجموعة يمكن بالتالي تصنيفها على أنها أصوات خشنة لا يستغرق نطقها وقتاً طويلاً، وذلك بعكس الأصوات الأنفية والجانبية والانزلاقية التي تتميز بالليونة والاستمرارية. ويقصد بها محاكاة نوع من الأحداث ينطوي على الانقسام المفاجئ لشيء صلب (الانفلاق) إلى نصفين. هذا الوصف الصوتي الفيزيائي يكشف التطابق الكبير بين عملية نطق الأصوات الانفجارية وعملية الفلق الحركية التي تختزلها الكلمة الأساسية "وقب" التي تنطوي كذلك على وجود مكان مغلق وعلى ترتيب ثلاثي للحركات مكون مما يلي: 1. تجمع للمادة خلف حائل يحبسها، 2. الضغط ، 3. الخروج المفاجئ والقوي. ومن بين حروف القلقلة نجد أن الوحدة الصوتية التي تكررت كثيراً في السورة هو حرف القاف في المواقع الثلاثة: أول الكلمة (قل) آخر الكلمة (فلق، خلق) و وسط الكلمة (وقب، عقد). ومن هنا وبالإضافة إلى كون هذا الصوت موجود في الكلمة الرئيسة "الفلق" فلقد تكرر في عدة توليفات في كل من الكلمات المتناظرة التي وقعت في فواصل الآيات، إلا في الكلمة الأخيرة حيث استبدل حرف السين بها. ولربما تجدر الإشارة هنا إلى أنه تبعاً لما ذكره النحويون العرب، فإن القاف أقوى الأصوات الانفجارية المجهورة، لأنه مجهور وخلفي ومفخم كذلك. وهكذا فإن له دوراً مهماً في الدلالة على الحركة النشطة في النص. ويمكن النظر إليه على أنه استعارة صوتية للطاقة المحضة الكامنة في عملية الفلق. وحيث إن صوت القاف يظهر متنقلاً في ترتيب يتناقص على نحو متوال من نهاية الكلمة ثم الوسط ثم يختفي تماماً، فلنا أن نطمئن إلى القول بأن هناك محاولة لتقليل شدة كل كلمة، وبالتالي تقليص قوة كل نوع من أنواع الفلق. ومن المثير للاهتمام أن القاف تعني التجويف أو الحفرة في الأبجدية العربية، وذلك لشكلها المستدير الذي يشبه التجويف كثيراً. وبالتالي يمكن النظر إليه على أنه يعزز الفلق بشكل تصويري؛ أي أنه يتضمن وجود مكان مغلق أو تجويف تنبعث المياه منه. فالذي لدينا إذن ليس فقط صورة سائدة لذوات مستديرة، وإنما كذلك وحدة صوتية سائدة يستمر ظهورها خلال السورة وتحدد الشكل الدلالي لها. وحتى نرى أهمية هذا الصوت الساكن لا نحتاج إلا أن ننظر إلى التماثل الرقمي البارز والذي له دور فاعل في

النص. فلكل حرف في الأبجدية العربية قيمة رقمية. وإذا أضفنا القيمة الرقمية للأصوات الأخيرة الانفجارية في نهايات الكلمات الخمس لوجدنا أن مجموعها 210 (ق = 100، ق =100، ب=2، د=4، د=4). والقيمة الرقمية لأحرف كلمة "الفلق" الجامعة هي 210 كذلك (ف=80، ل=30، ق=100). هذه العلاقة الرقمية بين الكلمات الخمس يؤكد ارتباطها الدلالي الوثيق بصفتها تشترك في عملية الفلق.

الصوت الانزلاقي في بداية الكلمة: الأهمية الصوتية الفيزيائية لكلمة "وقب"

إن كسر النمط الصوتي بالكلمة "وقب" يبرز أهمية هذه الكلمة التي لها موقع استراتيجي. وكما ذكرنا آنفاً، فإن لكلمة "وقب" خصوصية نظرية من حيث مفهومها؛ لأنها تجسد لنا ظاهرة الانفلاق على أنها تنشأ بدءاً باضطراب واحتكاك سببه خروج المادة من تجويف ضيق يليه تراكم المادة على نحو متتابع، وأخيراً تزايد الضغط ثم انفراج مباغت. والجدول 3 يسلط الضوء على التوافق التماثلي بين الشكل الصوتي والمحتوى الدلالي من خلال تصنيف الطريقة التي يحاكي بها ترتيب الوحدات الصوتية في فواصل الآيات الخمس حركة الفلق ثلاثية الأبعاد صوتياً، وهذه الحركة تختزلها كلمة "وقب". ففي البداية تحاكي الأصوات الاحتكاكية اللحظة الأولى للاحتكاك والاضطراب الذي يسببه تجمع المادة داخل مكان ضيق مستدير، ثم تعكس لنا الأصوات الانفجارية صورة الحركة الحية لهذه المادة التي لها دوي وهي تنضغط بفعل الضغط الواقع عليها، ثم ينتهي الأمر بخروجها أو انبعاثها. ومن التصنيفات التي يمكن أن تفيد في وصف العملية الثلاثية للفلق المتضمنة في هذه الكلمات هو التصنيف المستخدم في علم وظائف الأصوات (phonology) حيث نجد المصطلحات الثلاثة التالية: الصوامت في بداية المقطع (onset) الصوائت أو الصوامت في منتصف الكلمة (nucleus) والصوامت في نهاية الكلمة (coda) تستخدم لتشير إلى الأجزاء الأساسية الثلاثة للوحدة اللغوية. وسنستخدم هذه المصطلحات الثلاثة بطريقة خاصة في هذه الدراسة لتشير إلى المواقع الأساسية الثلاثة للسواكن في السورة: بداية الكلمة و وسط الكلمة و نهاية الكلمة على التوالي.

وكما يبين الجدول 3 فإن أقوى مظهر من مظاهر الفلق يتبدى في كلمتي "وقب" و "عقد" حيث تضمان أصواتاً انفجارية في وسط الكلمة ونهاية الكلمة. والتحول المفاجئ في

وسط الكلمة من الصوت الجانبي (ل) إلى الانفجاري (ق) يدل أيقونياً على زيادة ملحوظة في الضغط والانفجار. كما يوحي بزيادة في مستوى الطاقة والقوة، إذ تخلو الكلمات الخمس تماماً من الأحرف الرنانة. ومن الناحية الدلالية، فإن هذه الزيادة في الأصوات الانفجارية في كلمتي "وقب" و "عقد" تدل على أن تدفق أو انبثاق السائل من تجويف الصخور والنفث في العقد يمثل ذروة عملية الفلق. وبخلاف كلمتي "فلق" و "خلق" حيث يتوسطهما صوت اللام ليشير إلى التجمع المستمر والخطي للسوائل، فإن البنية المكونة من صوتين انفجاريين هنا توحي لنا بالانفجارات المتقطعة. وهذا بالطبع يتماشى مع الحركة المتقطعة غير المنتظمة التي نشعر بها في انبعاث السوائل من تجويف الصخرة، وفي حركة الساحرات النفاثات التي تكني عنها الآية بـ"النفاثات في العقد". أما أضعف عمليات الفلق فتتمثل في "حسد"، آخر كلمة في السورة، والتي يشير نمطها (احتكاكي فاحتكاكي فانفجاري) إلى مكان أضيق وقدر أكبر من الاضطراب والاحتكاك، وكم أقل من الضغط والقوة المنفجرة. وبشكل عام، توحي لنا السورة بشكل غير مباشر بأنه قد تم تقليص قوة عملية الفلق.

الجدول 3. عملية الفلق الثلاثية

البداية	الوسط	النهاية
اضطراب/احتكاك	تراكم المادة و تجمعها	الضغط و الانفجار
ف	ل	ق
خ	ل	ق
و	ق	ب
ع	ق	د
ح	س	د

الخاتمة

حاولت في هذا التحليل الصوتي الأيقوني الكشف عن الفرضية التالية وتفسيرها وهي: أن مفهوم الانقسام الدلالي إلى نصفين المتجسد في الكلمة الجامعة "فلق" والتي صنفناها على أنها من متغيرات (س) موجود كذلك في بقية متغيرات (س) و (ص) ويتوافق صوتياً معها؛ أي أنه من خلال عملية المطابقة الصوتية نجد أن البنية الفيسيولوجية الطبيعية للفلق تطابق بنى كافة المجالات الهدف، وهي التساقط والنفث في العقد والحسد. وخلاصة القول أن نتائج تحليلنا الصوتي الدلالي تبين أن النسق الصوتي للسورة لا يعتمد إلا على الكلمات الدلالية التي وقعت في نهاية كل آية من السورة. وتحتوي هذه الكلمات مجتمعة على فكرة "الفلق" وهي عملية حركية تنطوي على الاحتكاك والضغط والانفراج. وهذه الكلمات أيضاً تشترك في الحروف الأولى "الجناس الاستهلالي" والحروف الأخيرة، ومن خلالها توثق الارتباط بين الصوت والمعنى. ولربما كان أكثر هذه الكلمات غموضاً كلمة "حسد" التي لا يظهر للقارئ – بادئ الأمر – أي أثر لعملية الانقسام فيها. ولكن لأنها جزء من النسيج النحوي الذي يعتمد على التوازي في السورة، فإن ذلك يدعو إلى نوع من إسقاط الصفات أو مطابقتها. وبمقدور القارئ أن يغوص تحت سطح المعنى الظاهر لكلمة "حسد"، فيجد في العمق نشاطاً حركياً داخلياً تنطوي عليه عملية الحسد. ومن اللافت للانتباه أنه لا يمكن لنا أن نفهم وندرك ظاهرة الحسد الغامضة إلا من خلال تحليل التركيب الأيقوني والصوتي للسورة. وما يجعل السورة مصدراً يبعث الراحة في قلب القارئ هو أنه في النهاية تنكسر حدة النمط الغليظ (احتكاكي- انفجاري - انفجاري) لتصبح (احتكاكي - احتكاكي - انفجاري) وتنحسر هيمنة صوت القاف المتكرر مما يوحي بانعتاق مجازي من عقد السحر الشريرة. ونوعاً ما فإن التوتر العضلي ينفرج في الآية الأخير في الوقت الذي تصبح السورة فيه صوتياً أقل انفجارية ودلالياً أقل تدميرا. ومما نراه ذا بال هنا هو أن هذا النمط (احتكاكي - انفجاري) لم يستخدم لأسباب جمالية كما هو الحال عادة في النصوص الأيقونية، وإنما لهدف معرفي بغية توضيح المفهوم المعقد والصعب للفلق، والنوع الغامض الذي يتفرع منه وهو الحسد. واستخدام الأيقونية الصوتية في سورة الفلق يمكننا من توليد معرفة جديدة وآراء مستنيرة من خلال تمكيننا من رؤية الروابط التي كما يقول بلاك "إذا رأيناها، فهي عندئذ حاضرة حقاً".

المراجع

Ali, A. Y. (Trans.). (1934). *The Holy Quran: Text, Translation and Commentary* (2nd edn.). United States: American Trust Publication, 1977.

Anderson, E. (1998). *A Grammar of Iconism*. London: Associated Press.

Archangeli, D., & Langendoen, D. (1997). *Optimality Theory: An Overview*. Oxford: Blackwell.

Black, M. (1979). More about metaphor. A. Ortony, (Ed.), In *Metaphor and Thought*, (pp. 19–45). Cambridge: Cambridge University Press.

Carter, R. & Nash, W. (1990). *Seeing Through Language: A Guide to Styles of English Writing*. Oxford: Blackwell.

Carter, R., Goddard, A., Reah, D., Sanger, K., & Bowring M. (1997). *Working with Texts: A Core Book for Language Analysis*. London: Routledge.

Crystal, D. (1997). *The Cambridge Encyclopedia of Language* (2nd edn.). Cambridge: Cambridge University Press.

Epstein, E. L. (1975). The self-reflexive artifact: The function of mimesis in an approach to a theory of value for literature. In R. Fowler (Ed.), *Style and Structure in Literature: Essays in the New Stylistics* (pp. 40–78). Oxford: Blackwell.

Fatani, A. H. (2002a). The lexical transfer of Arabic non-core lexicon: Sura 113 of the Quran-*Al-falaq* ("The Splitting"). *Journal of Quranic Studies, 4* (2), 61–81.

Fatani, A. H. (2002b.) A diachronic semantic error analysis (DSEA) of Arabic non-core lexicon: *Annaas* ("The People"). *Language Forum, 28* (1–2), 51–70.

Fischer, O., & Nänny, M. (2001). Introduction: Iconicity and nature. In O. Fischer & M. Nänny (Eds.), *Iconicity* [Special Number of the *European Journal of English Studies* 5] (pp. 3–16).

Fónagy, I. (1999). Why iconicity?" In M. Nänny & O. Fischer (Eds.), *Form Mirning Meaning. Iconicity in Language and Literature* (pp. 3–36). Amsterdam: Benjamins.

Fónagy, I. (2001). *Languages Within Language: An Evolutive Approach*. Amsterdam: Benjamins

Givón, T. (1985). Iconicity, isomorphism, and non-arbitrary coding in syntax. In J. Haiman (Ed.), *Iconicity in Syntax* (pp. 187–219). Amsterdam: Benjamins.

Givón, T. (1994). Isomorphism in the grammatical code: Cognitive and biological Considerations. In R. Simone (Ed.), *Iconicity in Language* (pp. 47–76). Amsterdam: Benjamins.

Gentner D. (1982). Are scientific analogies metaphors? In D. S. Miall (Ed.), *Metaphor: Problems and Perspectives* (pp. 106–132). Brighton: Harvester.

Glucksberg, S., & Keysar, B. (1990). Understanding metaphorical comparisons: Beyond similarity. *Psychological Review, 97*, 3–18.

Haiman, J. (1980). The iconicity of grammar: Isomorphism and motivation. *Language, 56*, 515–540.

Herlofsky, W. (2003). What you see is what you get: Iconicity and metaphor in the visual language of written and signed poetry: A cognitive poetic approach. In W. Müller & O. Fischer (Eds.), *From Sign to Signing. Iconicity in Language and Literature, 3* (pp. 41–61). Amsterdam: Benjamins.

Hiraga, M. K. (1994). Diagrams and metaphors: Iconic aspects in language. *Journal of Pragmatics, 22,* 5–21.

Hiraga, M. K. (1998). Metaphor-icon link in poetic texts: A cognitive approach to iconicity. *The Journal of the University of the Air, 16,* 95–123.

Hiraga, M. K. (2003). How metaphor and iconicity are entwined in poetry: A case in Haiku. In W. Müller & O Fischer (Eds.), *From Sign to Signing. Iconicity in Language and Literature,* 3 (pp. 41–61). Amsterdam: Benjamins.

Hopper, P., & Traugott E. C. (1993). *Grammaticalization*. Cambridge: Cambridge University Press.

Jakobson, R. (1966). Grammatical parallelism and its Russian facet. In K. Pomorska & S. Rudy (Eds.), *Language and Literature,* 1987 (pp. 145–179). Cambridge: The Belknap Press of Harvard University Press.

Jakobson, R. (1965). Quest for the essence of language. In K. Pomorska & S. Rudy (Eds.), *Language and Literature,* 1987 (pp. 145–179). Cambridge: The Belknap Press of Harvard University Press.

Lakoff, G., & Johnson, M. (1980). *Metaphors We Live By*. Chicago: Chicago University Press.

Leech, G. A. (1969). *A Linguistic Guide to English Poetry*. London: Longman.

Lyons, J. (1968). *Introduction to Theoretical Linguistics*. Cambridge: Cambridge University Press.

Lyons, J. (1977). *Semantics I*. Cambridge: Cambridge University Press.

Magnus, M. (1997). Margo's Magical Letter Page: Some Theoretical Stuff. [Online]. Available: http://www.conknet.com/mmagnus/theory.htm.

Newmark, P. (1995). *Approaches to Translation*. New York: Phoenix ELT.

Peirce, C. (1931–1958). *Collected Papers,* Vols. 1–8, C. Hartshorne & P. Weiss (Eds.). Cambridge MA: Harvard University Press.

Pickthall, M. M. (Trans.). (1930). *The Glorious Quran: Text and Explanatory Translation*. Elmhurst, NY: Tahrike Tarsile Quran, 1999.

Ross, J. R. (1991). "Fog cat fog." In R. Hoffman & D. Palermo (Eds.), *Cognition and the Symbolic Process: Applied and Ecological Perspectives* (pp. 187–205). Erlbaum, NJ: Hillsdale.

Traugott, E. C., & Pratt, M. (1980). *Linguistics for Students of Literature*. New York: HBJ.

Wales, K. (1989). *A Dictionary of Stylistics*. London: Longman.

السيميائية الأدبية
وعلم الدلالة المعرفي[1]

تأليف: أ. هيلي م. ديفيدسون

ترجمة: أ. ثناء محمود الغباشي

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم الترجمة

[1] أصل هذه الدراسة هو: " Literary semiotics and cognitive semantics"، للباحثة H. M. Davidsen و قد نشرت في العدد 165 من المجلد 2007 من مجلة Semiotica الصادرة عام 2007 عن دار de Gruyter للنشر، ص: 337-349.

الملخص

يهدف هذا المقال إلى استكشاف الجوانب المشتركة بين السيميائية الأدبية وعلم الدلالة المعرفي، مع عناية خاصة بالجانب الثقافي للمعنى، وتشكيل المعنى تشكيلاً سياقياً. لقد كان النموذج المعرفي هو مدخلنا إلى تأمل المعنى الثقافي، وهو مرتبط بمفاهيم غريماس (Greimas) عن الصورة (Figuration) والتشكيل العام لها (Configuration). ثم يتم التوصل إلى نموذج الربط والدمج من خلال مناقشة المعنى في السياق، واستعراض فائدته الأدبية وفقاً لتحليل مارسيل بروست (Marcel Proust) التمثيلي لقياس المعنى.

على الرغم من أن للسيميائية وعلم الدلالة المعرفي وجهات نظر متماثلة عن اللغة والمعنى فإن علم الدلالة المعرفي يُركز على الجوانب الواقعية تركيزا أشد، والحق أن السيميائية البنيوية أغفلت البحث عن المعنى وفقاً للواقع الخارجي للنص، وتحيزت إلى الشكل والبنية اللغوية الظاهرة في استنباطها للمعنى. وهذا لا يعني أن السيميائية وعلم الدلالة المعرفي لا تجمعهما رؤى مشتركة.

يُعرف فرديناند دو سوسير(F. De Saussure) السيميائية (أو علم العلامات) بأنها: "علم لدراسة حياة العلامات في التواصل في الحياة الاجتماعية "(1985 [1916]: 33) ، و يُعرفها غريماس العالم البشري بقوله: "لا يمكن تعريف العالم البشري دون الإشارة إلى أنه أساس عالم المعاني، ولا يمكن تعريف أي عالم بالعالم الإنساني دون ربطه بعالم الإشارة والمعنى" (5:1966).

ويوضِّح هذا التشابه بين السيميائية وعلم الدلالة المعرفي من حيث فهم اللغة باعتبارها نشاطاً إنسانياً واجتماعياً العلة في اتفاق العلماء المختصين في السيميائية مع مفاهيم علم الدلالة المعرفي وشروعهم في العمل انطلاقاً من هذه المفاهيم.

المعنى الثقافي

يدعو الجمع بين السيميائية وعلم الدلالة المعرفي إلى الاستفادة من المبادئ الواقعية لعلم الدلالة المعرفي في تطوير التأسيس السيميائي الثقافي للتجربة الحياتية. وقد نجحت السيميائية نجاحاً كبيراً في وصف الجوانب البنيوية في إبداع المعنى (والتي استطاع علم الدلالة المعرفي الاستفادة منها) ومع ذلك لم تنجح السيميائية الأدبية في إدراك المعنى الدقيق، وأهملت السياق الثقافي المحيط و المنتج للمعنى.

ترتبط اللغة ارتباطاً وثيقاً من وجهة نظر علم الدلالة المعرفي بالعالم المحيط بنا من حولنا، حيث إن اللغة تعكس التجربة الإنسانية، وإدراك الإنسان وتصوره للعالم؛ وبذلك لا يمكن استبعاد الجانب الثقافي للمعنى. وكذلك لا ينحصر المعنى الثقافي في اللغة فحسب، بل إنه يتجلى أيضاً في الأدب؛ ولأن الأدب صناعة لغوية، فإنه يعكس العالم الإنساني و يعرضه من خلال مضمونه اللغوي. ولا يُظهر هذا المفهوم المعرفي المضمونَ الثقافي للسيميائية فقط بل إنه يُنهي التعارض القائم بين نظرية الأدب والنقاد حول "النص والسياق"، و"الشكل والمضمون"، و"الجمال والإنسان" ، و"اللغة والمحاكاة (mimesis)". وبالتالي يشبه تحليلُ المعنى الدلالي لنص أدبي وفقاً للمنظور المعرفي تحليلَ محتوى تجربة البشر المتجذرة في السياق الثقافي لحياتهم. وسيتم النظر في ذلك وفقاً لمفهوم ونموذج علم الدلالة المعرفي، ومن ثم الانتقال إلى نموذج الربط والدمج الذي أسسه كل من فوكينر وتيرنر والخاص بالتصور السيميائي لإبداع المعنى.

النموذج المعرفي

يمكن لنموذج لاكوف (Lakof:1987) المبني على نظرية الدلالة المعرفية التوصل إلى المعرفة الثقافية والمبادئ التجريبية لتصنيفها، ومن ثم استخدام مفاهيم السيميائية للتوصل إلى المعنى الثقافي. وقد تم – إلى حد ما – استخدام بعض المفاهيم الماثلة لما تتضمنه النماذج المعرفية، (مثل نماذج تسلسل الأحداث ، ونماذج المخطط العام للنصوص ، والمشاهد ، والنماذج الثقافية، وما إلى ذلك)، في تحليل بعض الأعمال الأدبية (انظر Stockwell: 2002؛ Gavins and Steen: 2003). ويبدو أن هناك خلطاً بين المصطلحات على نطاق واسع، ولن أحاول التطرق إلى أي حلول لحسم ذلك الخلاف بل

سأتجاوز ذلك إلى عرض الفروق الخاصة بأكثر هذه النماذج ترابطاً وأفضلها في التطبيق. وسوف أستخدم مفهوم النموذج المعرفي الذي استخدمه لاكوف (1987) مع بعض التعديل الطفيف، وسأوضح الفروق المميزة لثلاثة نماذج معرفية: " نموذج الأنماط" للاكوف (1987)، و نموذج "تسلسل الأحداث" لشانك (Schank) وابلسن (Abelson) (1977) و نموذج "المشاهد".

تُشير النماذج المعرفية إلى المعرفة الثقافية المشتركة بين أفراد المجتمع والمسلم بها في ثقافة معينة. وتُعد هذه النماذج – كما أشار كل من هولاند وكوين (Holland and Quinn)– "مما قد سبق افتراضها والتسليم بها بوصفها نماذج للعالم الذي يتشارك فيه مجموعةٌ من أفراد المجتمع، ويلعب ذلك دوراً مهماً في فهمهم لذلك العالم وسلوكهم فيه"(4:1987) . وتمثل هذه النماذج المعرفية التصور السائد والمشترك، وهذا يعني أن " جميع أفراد المجموعة على علم بأن الأفراد الآخرين لديهم المعرفة نفسها، وأن كل فرد يعرف بأن الآخر يعرف ذلك" (D'Andrade ،113 :1987). و لما كانت هذه النماذج تُمثل الصور النمطية للعالم من حولنا؛ فإنها تجعلنا نتوقع ونستنتج وفقاً لتلك المعرفة المشتركة.

لقد تطور مفهوم لاكوف للنماذج المعرفية ليُتمم (مع بعض المفاهيم المعرفية الأُخرى) مفهوم نظرية "النموذج الأولي" (Prototype) التي قدمها عالم النفس إيليانور روش (Eleanor Rosch) لمعرفة الكيفية التي يمكن بها تصنيف بعض عناصر المجموعة الواحدة على أنها تنتمي إلى هذه المجموعة أو الفئة بصورة أفضل من بعض عناصرها الأخرى (فعلى سبيل المثال، يمثل النورس فئة الطير بشكل أفضل من النعام والدجاج). وقد أثرمفهوم هذا النموذج المبدئي على المنهج المعرفي إلى درجة أنه تناسى إمكانية تعدد النماذج المعرفية وتشعبها، واعتبر تلك النماذج المحدودة التي تعكس السمات الثابتة أساساً للنماذج المعرفية. ومع ذلك ، نجد أننا نُكوّن في أذهاننا نماذج معرفية لكل ما نعرفه ، إذ تقوم أذهاننا بذلك من خلال تحديد السمات الأولية التي تشترك فيها مجموعة ما أو فئة معينة وجمعها تحت السمة أو الظاهرة السائدة فيها. لذا فإن مهمة النموذج المعرفي مشابهة – من حيث المبدأ– لمهمة النموذج الأولي؛ حيث يُحدد النموذج الأولي العناصر التي تنتمي إلى مجموعة مُعينة، بينما يُحدد النموذج المعرفي مجموعة السمات التي تُحدد عنصراً معيناً.

وبالتالي، يمكننا تعريف النموذج المعرفي على أنه عبارة عن مجموعة السمات الأولية التي تُحدد عنصراً بعينه.

وهناك عدد كبير من النماذج المعرفية التي ندركها ويمكننا الاستفادة منها. فلدينا مثلا نماذج معرفية لكل مانعرفه عن جميع أنواع الطيور(أبو الحناء، والعصفور ، والزرزور ، والصقر، بالإضافة إلى معرفة الحمامة والدجاجة ومعرفة مُعظم الطيور الأخرى غير المألوفة). ولدينا نماذج معرفية أخرى عن الأثاث والتي لا تقتصر على الكراسي والأرائك، بل تشمل الأِسرة والمناضد والطاولات. ونجد أن لدينا نماذج معرفية فرعية مثل الكراسي: كالكراسي البسيطة والكراسي الهزازة والكراسي المكتبية، ولدينا نماذج معرفية للطاولات كطاولة التقديم للشاي أو القهوة، وطاولة الطعام، وطاولة الزينة. فنحن لا نتصور ببساطة أن هناك مِثالاً نموذجياً ثابتاً لشكل الطائر أو الكرسي، ولكننا عادة ما نربط النموذج الأساسي الأولي بالسمات العامة لسلوك أو وظيفة مُعينة أو أثاث أو مشهد مُحدد. لذا يمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من النماذج المعرفية:

تتابع الأحداث وتسلسلها

مشاهد الأماكن

الصور النمطية لأنواع الناس والأشياء.

فالنماذج المعرفية ليست نماذج جزئية، بل هي وحدةً متكاملة من السمات النموذجية المترابطة كالشبكة. لذا يمكننا الإشارة مجازاً إلى نموذج معرفي بمتابعة جزء أو أكثر منه، وعلينا ملاحظة أن هذه النماذج تشترك دائماً في المبدأ نفسه من حيث الترابط والثبات، فالصورة النمطية لتسلسل الأحداث تُصور لنا مشاهد بعينها ويمكن أن يصور لنا كل مشهد صورةً نمطية، ويمكن تحويل هذه الصورة النمطية إلى برنامج سردي آخر يمثل تسلسلاً لأحداث مختلفة، وهكذا دواليك (انظر إلى الشكل 1).

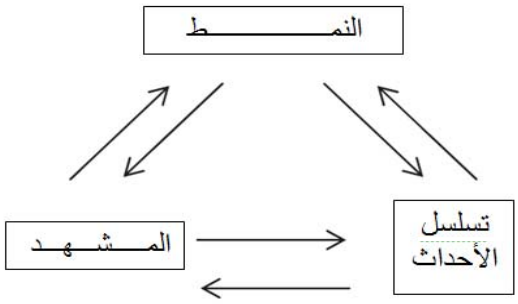

الشكل (١) ترابط الأنماط والمشاهد وتسلسل الأحداث

الصور والتشكيل العام لها

وفقاً للسياق السيميائي، يمكن استخدام النماذج المعرفية لإدراك المعنى الثقافي، ولتوضيح محتوى موسوعة إيكو (Eco:1979, 1984)1. ويمكننا تعريف المعنى الثقافي والموسوعي على أنه نموذج معرفي مُدون بكلمات. فلا تحتوي بعض الكلمات مثل: نزهة، وخيمة، وعيد ميلاد، وممرضة، ومحامٍ، وغابة، و سفينة، وحُب، وتفاح، وبوظة...إلخ، على المعنى الدلالي لتلك الألفاظ فقط، بل تشمل أيضاً المعرفه الثقافية بنوع النصوص والمشاهد والصور النمطية التي ترتبط بهذه الكلمات والتشكيل العام لها ضمن الأطر الإدراكية والمعرفية وما تمثله هذه الصور والأشكال ضمن ثقافة معينة. إضافة إلى ذلك، فإن فكرة النموذج المعرفي تجعل من الممكن توضيح مفهومين رئيسين بأسلوب سيميائي مطرد. ويوضح المحتوى الثقافي للنص: "التشكيل العام والصور" (configuration and figure). و"التشكيل العام" (configuration) الذي أشار إليه غريماس، (غريماس وكورتيس 1979، غريماس 1983)، والتي تمثل ترابط الصور والأشكال. تشير الصور والأشكال إلى الكلمات التي لها معانٍ ملموسة، وتُمثل شيئاً يمكن إدراكه في العالم الواقعي. ويشمل التشكيل العام المُكونات الشاملة للصور والأشكال كالحديقة أو الشاطئ أو محطة القطار. فالحديقة –على سبيل المثال – تكون صورتها مكونة في أذهاننا من مجموعة الأشكال أو الأشياء التي تحتويها مثل المقاعد والأطفال الذين يلعبون، والناس الذين يتنزهون أو يركضون، والأشجار الكبيرة والصغيرة، والبحيرات، وما إلى ذلك. فالمعنى الشكلي هو المعنى الذي اكتسبته هذه الأشكال كما يعرفها الناس، وكما يعرفون بها الأشكال الموجودة في عالمهم الواقعي. ولا يمكن أن تستمد هذه الأشكال معناها إلا من خلال السياق أو العالم المحيط بها؛ أي من التشكيل العام الذي تنتمي إليه هذه الصورة بشكل متكامل في

أذهاننا. وبالتالي فإن المعنى الشكلي للمقعد يكتسب معناه الحقيقي من المواصفات التي يشكل هو جزءاً منها، حيث يرتبط المعنى الشكلي بالمعنى المجرد أو الموضوعي كما يشير إليه غريماس (غريماس وكورتيس 1979، غريماس 1983). وبذلك تنشأ علاقة بين هذين المعنيين، حيث يدلل كلٌ منهما على الآخر أو يترجم عن معناه. ومن ثم يمكن أن يتضمن المعنى الشكلي معنىً موضوعياً ويمكن أن يُعبر المعنى الموضوعي عن معنى شكلي. فعلى سبيل المثال: نجد أن كلمة "حديقة" ترتبط في أذهاننا بالنزهة والتسلية والاسترخاء ، وما إلى ذلك من معانٍ موضوعية أخرى ترتبط بالمواصفات العامة التي ترتبط بصورة الحديقة في أذهاننا كالتأمل أو الرومانسية. ويعتمد تحليل المعنى وفهم العناصر المرتبطة بالموضوع المراد على المواصفات الخاصة المحيطة بذلك المعنى؛ فلا يمكن للشكل الصوري لكلمة "حديقة" أن يحمل أي معنى، كما يعتقد السيميائيون، دون وجود تلك العلاقة الموضوعية التي تجعلنا نحلل الرموز والشفرات التي تحملها هذه الكلمة وفقاً للمواصفات العامة المُتعلقة بها ضمن سياق مُعين. فلا ينتمي موضوع "الخوف" ، على سبيل المثال ، إلى المواصفات المرتبطة "بالحديقة" ، على الأقل في وقت النهار.

- مثال:

يُعبر التشكيل العام للصور والأشكال عن الاستعراض السيميائي لها ضمن الأطر الإدراكية الممكنة التي تعرضها النماذج المعرفية. ويمكن استخدام هذين المفهومين بالإضافة إلى المعنى الشكلي والموضوعي لفهم المعنى الثقافي في النصوص الأدبية. سوف أبدأ بمثال موجز وشكل توضيحي لذلك. تبدأ قصة فرجينيا ولف المسماة "بالسيدة دالاوي" بالجملة التالية:

"قالت السيدة دالاوي بأنها ستشتري الزهور بنفسها".

تشير جزئية "ستشتري الزهور" إلى النموذج المعرفي (عملية شراء الزهور كما نعرفها وندركها في أذهاننا) المتعلق بعملية "شراء الزهور" (تسلسل الأحداث). أما "الزهور" من حيث هي شكل أو صورة، فإنها تُحفز لدينا النموذج المعرفي الإدراكي الخاص بشكل "الزهرة" (صورة نمطية). ويتعلق تسلسل الأحداث الخاص بعملية "شراء الزهور"

بالأحداث الخاصة "بشراء" أي شيء، وبمعلومات أكثر دقة عن مكان شراء الزهور، وعن سبب شرائها ونحو ذلك. ولن نُفاجأ بعد ذلك إذا قيل لنا في وقت لاحق إن السيدة دالاوي وضعت الزهور على الطاولة، ولكننا سنُفاجأ حتماً ونتساءل إذا قيل لنا: إن السيدة دالاوي أكلت الزهور. ويُحفز النموذج المعرفي المتعلق بالزهور في أذهاننا جميع الصور المتعلقة بأنواع الزهور المختلفة التي نعرفها أو ترتبط بثقافتنا، والمواقف التي ترتبط بها الزهور بشكل عام (تزيين المنزل ، التعبير عن الحب، إلخ). ولا يمكننا معرفة وظيفة هذه الزهور من الجملة السابقة وحدها دون معرفة السياق، ودون الحصول على معلومات أكثر، على الرغم من أن كلمة "زهور" وحدها تستدعي كمية كبيرة من المعلومات المتعلقة بها في النص. وعند تصور "الزهور" كشكل أو صورة نجد أنها تستدعي لدينا عدداً من التشكيلات العامة والصور المرتبطة في أذهاننا عنها، والتي يمكننا من خلالها تصور عدة احتمالات ممكنة لتشكيلات مختلفة من الزهور، ويمكن أن ترتبط وأن تُثير مواضيع مختلفة في أذهاننا.

الخلفية الثقافية وانعكاساتها

فضلاً عن ذلك، تمكننا مداركنا المعرفية من فهم انعكاس الثقافة على النصوص الأدبية، وفهم العلاقة بين التصورات اليومية والتصورات الأدبية. وقد بيّن إيكو (Echo) هذ المسألة قائلاً: (إن تغيير الأنظمة الدلالية يعني تغيير الطريقة التي ترى بها الثقافة "العالم" (1976:274). فمن وجهة نظر إيكو، يرتبط النظام الدلالي والفكري بالاستنتاج الذي يرى أن التغيرات الدلالية هي تغيرات مفاهيمية، وبالتالي: "يمكن التعرف على العالم وتصنيفه من خلال نماذج دلالية (فكرية) متعددة "(1976:274) (أي أن مفاهيمنا ودلالاتنا تتأثر برؤية ثقافتنا للعالم). إن التماثل بين المفاهيم المعرفية والمفاهيم السيميائية تجعل من الممكن تحديد رؤية إيكو. إنها رؤية تجعل من الممكن تعريف "الطريقة التي ترى بها الثقافة العالم"، لا سيما من خلال النماذج المعرفية، وهي تجعل من الممكن أيضا تعريف الكيفية التي تتجلى بها في المضمون الدلالي، لا سيما تجلية هذا المضمون من حيث هو معنى مجازي ومعنى موضوعي ومن حيث هو عملية تنسيق للعناصر).

إبداع المعنى

لا يقتصر دور علم الدلالة المعرفي على تمكيننا من فهم المعنى السيميائي (المعنى الرمزي الذي يظهر من خلال الاستعارات والتشبيهات والرمزية المستخدمة في الأعمال الأدبية) بوصفه معنى ثقافياً، بل يُحفز أيضاً المفهوم السيميائي المرتبط بفهم المعنى وفقاً للمفاهيم والعلاقات المرتبطة به وفقاً للسياق (نسبية المعنى واختلافه). ولقد كانت إحدى وجهات النظر الأساسية في اللسانيات البنيوية عند كل من دو سوسير (Saussure) و يلمسليف (Hjelmslev) أن الكلمات ليس لها معنى بسيط أو ثابت. يقول يلمسليف:

لا توجد معان أخرى متصوّرة غير المعاني السياقية. و لذا فإنه ليس من الممكن فهم معنى أي شيء أو رمز أو إشارة بصورة مطلقة دون التعرف على موقعه في السياق، والعلاقة التي تربطه بذلك. ومن خلال وجهة النظر هذه ، فلا مجال للمقارنة بين المعاني التي نخرج بها من خلال السياق اللغوي، والمعاني التي نحصل عليها من المفردات المنفصلة بذاتها أو حسب تعبير قدماء النحويين الصينيين: (المفردات التي لا تحمل معنى، وتلك التي تحمل معنى). و من ثم، فإن ما يسمى (بالمعاني اللغوية) التي تبرز على هيئة رموز معينة لا يمكن أن تعبر إلا عن مجرد معانٍ مزيفة تظهر من خلال سياقات منفصلة أو قد تكون هذه المعاني ناتجة عن إعادة صياغة مزيفة لمثل هذه السياقات المنفصلة. حيث لا تحمل المفردات أو الإشارات المستقلة بحد ذاتها أي معنى للتواصل دون انتسابها لسياق مُحدد (2:1953).

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا عند القول بأن المفردات لا تحمل معنى ثابتاً أو مضموناً مُستقلاً بذاته، لا نعني أنها لا تحتوي على أي مضمون أو معنى، بل إننا ندعو إلى البحث عن المعنى المقصود وفقاً للمنظور السيميائي الذي يُحلل المعنى وفقاً للعلاقات القائمة بين المفردات، وما ترمز له أو تُشير إليه وفقاً للسياق الخاص بها، والذي من شأنه إكسابها معنىً مُحدداً. إن سبب الاختلاف بين المعنى النظري وما ندركه من معانٍ حقيقية هو فهمنا واستخدامنا للمفردات وفقاً للمعنى الذي يتناسب مع السياق اللغوي الذي استُخدمت فيه. وقد لا ندرك أننا نفعل ذلك بشكل مستمر لفهم المعنى الحقيقي، حيث إن العمليات اللغوية عمليات إدراكية أي غير مرئية، وهذا ما يؤكده علم الدلالة المعرفي، فهو

يشير إليه (يلمسليف ، 195) كأحد العوامل المؤثرة في طبيعة اللغة؛ فاللغة تُستخدم وسيلةً للتواصل، وليس غايةً كما يوضح يلمسليف. وعلى الرغم من أننا لا ندرك ذلك، فإن للمفردات معاني محتملة ودلالات متفاوتة.

وقد أكد مارك تيرنر (Mark Turner1996) هذا المنظور السيميائي في كتابه " العقل الأدبي" (Literary Mind) . حيث أشار إلى أن كلمة "منزل" لا تحمل معنىً واحداً فقط، بل تحمل دلالات محلية، و دلالات اجتماعية ، وأخرى مالية ...إلخ. وبذلك فإن كلمة "منزل" لها دلالات متعددة على الرغم من أنها كلمة واحدة فقط ، كما يوضح لنا المثال التالي:

إننا قد لا ندرك الدلالات المتعددة لكلمة مثل كلمة "منزل" نظراً لأننا تداولنا دلالة هذه الكلمة نفسها مراراً و تكراراً حتى باتت تستخدم على أنها حزمة دلالية أساسية لهذه الكلمة . ولكنها في الحقيقة تستدعي العديد من الدلالات المكانية والزمانية المختلفة وتُثيرها وفقاً للعلاقات المرتبطة بهذه الكلمة في أذهاننا، مثل : مأوى من قسوة الجو، ووقاية من عوامل الطقس الخارجية، ومساحة أو مكان نمتلكه ، وأمن وحماية من المتطفلين، واستثمار مالي، وشيء ثمين، وتصميم جمالي، وشيء مفيد للسكن ، ومقر إقامة اجتماعية ، ومحل مقابلات وزيارات اجتماعية ، وعقار للإيجار،... إلخ. لذا فإن أي استخدام لكلمة "منزل" ولأي غاية يستدعي كثيرا من الأشكال الدلالية المترابطة والمتكاملة بصورة تمكننا من التحديد الدقيق للمعنى المراد أو المقصود بما تحمله القصة المتعلقة بذلك (Turner 1996:106) . و من ثم، فإن الاستخدام البسيط لكلمة "منزل" يتمثل في بناء المعنى من خلال انتقاء العناصر الدلالية للكلمة طبقاً للسياق.

نموذج الربط والدمج

يُركز نموذج فوكونير وتيرنر (Fauconnier &Turner) للربط والدمج (the blending model) على عملية صياغة المعنى وبنائه. فوفقاً لما أشار إليه كل من فوكونير و ترنير "يُركز نموذج الربط والدمج على العملية الإدراكية والمعرفية التي تجري عند تواصل الناس وتفاعلهم والتي يتولد من خلالها المعنى لأغراض الفكر والفعل المحلية " (142:1998). حيث يوضح نموذج الربط والدمج كيفية تَكَوّن المعنى، ويشير إلى أنه

تجتمع في أذهاننا جميع المعلومات والخلفيات المعرفية عند محاولة صياغة المعنى (فضاءات معرفية شاملة) المخزنة سابقاً (عن الدلالات الثقافية التي نكتسبها من خبراتنا اليومية التي ترسخ في الذاكرة)، (دلالة/فضاء معرفي مُدخل (1) ، دلالة/ فضاء معرفي مُدخل (2) تجتمع كما هو موضح الشكل 2). وبعد انتقاء هذه الدلالات المعرفية ودمجها مع ما يتناسب منها مع السياق لنتوصل إلى المعنى.

ويكون هذا الربط والدمج للمدخلات – والذي يتم بطريقة انتقائية تؤدي إلى تكامل العناصر المختارة – من خلال الربط بين معارفنا الإدراكية والمفردات داخل سياق معين لتحقيق التكامل بين العناصر المشتركة التي تؤدي إلى التعرف على المعنى المقصود. وتحقيق الترابط والتكامل بين جميع العناصر المدخلة بوجود عوامل جزئية مشتركة بينها، وتمثلها بعلاقة مثل علاقة التقابل في الدلالة (على سبيل المثال قد يستدعي تفكيرنا في "الكرم" العامل الجزئي " حاتم الطائي" ويمثل هذا الرابط الخط العريض في الشكل2). ومن خلال هذا النموذج ، تبرز عناصر "الربط بالنظير" (Counterpart) والتي تستدعيها خلفيتنا الثقافية العامة المتمثلة في الفضاء المعرفي الشامل لدينا. ويحتوي فضاء المدخلات التي تستدعيها أذهاننا على فضاءات ذهنية تشتمل على المحتوى والمعنى الافتراضي للكلمة المستخدمة. وبذلك يحتوي الفضاء المعرفي الشامل في أذهاننا على نماذج معرفية وفضاءات ذهنية مختلفة نستدعيها أو نشير إليها بصورة مجازية2.

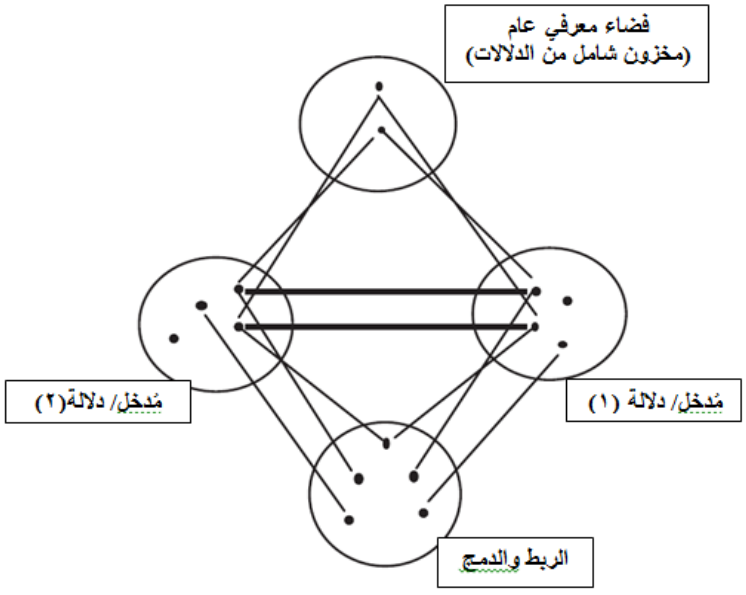

الشكل (٢) نموذج الربط والدمج

ويبيّن نموذج الربط والدمج أن إبداع المعنى هو عملية انتقاء من بين ما للعلامات والموضوعات من معان مختزنة، وأن هذا التصور مماثل لتصورات جريماس (Greimas199) عن المعنى وفقاً للسياق، حيث أشار غريماس إلى أن هناك فرقاً بين الكلمة بكل معناها السياقي، وهو ما يسمى بالمعنى اللغوي المعجمي (lexeme) والكلمة بمعناها الذي يتحقق في سياق معين وهو ما يسمى بالمعنى اللغوي السيميائي (sememe). وتوضح فكرته أن هناك دلالات مشتركة لبعض المفردات، وقد تُبرز بعضها وفقاً للسياق. وتحدد (الدلالات الثقافية التي لدينا) أحد هذه (الدلالات) التي يتم من خلالها تحقيق المعنى والدلالة المطلوبة. ولم تنجح السيميائية البنيوية في الاستفادة العملية من تطبيق هذه الفكرة أو من فكرة اشتقاق المعنى وفقاً للثقافة والسياق. وبناءً على معلوماتي، لازالت هذه القضية غير محسومة.

وبذلك يوفر لنا نموذج الربط والدمج الأدوات التي تمكننا من تحليل المعنى، ومن ثم التحقق من فعالية ذلك المقصود وفقاً لتحليل المعنى ضمن السياق.

ومن ناحية أخرى، يمكن أن يوضح المفهوم السيميائي عن نموذج الربط والدمج مفهوم هذا النموذج، وخاصة فيما يتعلق بالفضاء المعرفي العام، حيث أثار هذا المدلول الاهتمام نظراً لغموض وضعه ووظائفه. وتقوم فكرة الفضاء المعرفي على التشابه المُجرد الذي تشكله عملية الربط بالنظير، وقد يبدو هذا التعريف غير واضح ومبهماً أيضاً. ويوفر لنا تعريف غريماس للفضاء المعرفي الدلالي توضيحاً أكثر دقة حيث إنه يشير إلى أن الفضاء المعرفي الدلالي يُمثل النظائر التي يتم من خلالها انتقاء الدلالات المكونة للمعنى وتنظيمها، بحيث يتم انتقاء العناصر المنتمية إلى النظير، والتي يمكن من خلالها فهم المعنى وبنائه.

تحليل عملية الربط والدمج

أثبت نموذج الربط والدمج فعاليته بوصفه أداة انتقائية وتحليلية فعالة، تساعد على تحديد المعاني المعقدة في النصوص الأدبية. وتعد قدرة هذا النموذج على تحديد العناصر الدلالية الدقيقة التي تساعد على فهم المعنى وتوضيح ما يجري في النصوص عند صياغة المعنى، من أهم نقاط القوة الأساسية فيه. ورغم أن لكل فرد القدرة على تحليل المعنى بدون الحاجة إلى خبرات خاصة في لغتنا الطبيعية المعتادة، حيث ندرك الكلمات بصورة

متكاملة ؛ فإن قدرتنا على تحليل المفردات الأدبية والإبداعية التي يتم فيها استخدام اللغة بحرية ومرونة تتطلب القدرة على فهم العلاقات القائمة بين المعنى والسياق، والتي غالباً ما تُستخدم بأسلوب يخلو من المباشرة لتوليد معنى جديد ومتميز.

سأقدم لكم مثالاً على فائدة نموذج الربط والدمج وأهميته في تحليل النص الأدبي. ويمكن استخدام هذا النموذج لتحليل النص الأدبي على كافة مستويات صياغة المعنى. ولكنني سوف أستعرض أهميته وفائدته في تحليل التشبيه (Analogy). حيث يقدم التشبيه قدراً كبيراً من المعاني وذلك بغض النظر عن كيفية بناء هذه المعاني ومكوناتها. ويعمل نموذج الربط والدمج كميكروسكوب تحليلي دقيق لتوضيح كيفية تكوين المعاني ومكوناتها. وسيكون المثال من رواية مارسيل بروست (Marcel Praust) التي تحمل عنوان (البحث عن الزمن المفقود) ولا سيما مشهد (قُبلة ما قبل النوم) بالمجلد الأول من هذه الرواية والتي تتألف من عدة مجلدات. وفي أحد المشاهد نجد أن الصبي مارسيل والذي لم تمنحه والدته قبلة ما قبل النوم المعتادة لأنها تستعد مع أبيه لاستقبال ضيف على العشاء، يحاول أن يعثر على طريقة ليجعل أمه تلتفت إليه وتزوره في غرفته. وطرأت على ذهنه فكرة أن يرسل لها رسالة موجزة، ولكن ما كان يقلق مارسيل من فشل هذه الفكرة هو أنه قد تعارض الطباخة فرانكوا فكرة توصيل الرسالة إليها. وكان ما كتبه مارسيل عن هذا الموقف ما يلي:

كتبت رسالة لوالدتي أتوسل إليها فيها أن تصعد إلى الطابق العلوي لسبب مهم لم أستطع الإفصاح عنه في الرسالة. وكان تخوفي من أن فرانكوا (طباخة عمتي الخاصة) التي كانت تتولى رعايتي عندما كنت في مدينة كومبراي قد ترفض تسليم رسالتي إلى والدتي. وقد انتابني الشك من خلال نظرات فرانكوا غير المطمئنة، والتي تنم عن أن مسألة حمل رسالة إلى والدتي في وجود ضيف سوف يكون أمراً غير معقول، كما لو كنت تطلب من حارس المسرح أن يسلم خطاباً أو رسالة للممثل المتواجد على خشبة المسرح أثناء تأدية دوره (بروست ، Proust,1966).

من خلال هذا المثال يتضح لنا تشبيه واضح وبسيط هو تشبيه فرانكوا الطباخة بحارس المسرح الذي لا يمكنه أن يسلم خطاباً أو رسالة للممثل المتواجد على خشبة المسرح

أثناء تأدية دوره. وقد يوضح هذا التشبيه من الوهلة الأولى الصعوبة التي يواجهها فرانكوا لتوصيل الرسالة لوالدته. وهنا يبادرنا السؤال التالي: (هل يقدم لنا هذا التشبيه أي معلومات إضافية تتجاوز الإطناب غير المبرر؟ عند تحليل هذا التشبيه وفقاً لنموذج الربط والدمج يتضح لنا أن التشبيه يقدم لنا فعلاً بعض المعاني والمعلومات الإضافية؛ حيث يدفعنا هذا النموذج إلى التفكير في فضاءين دلاليين مجردين، والبحث عن النظائر، ويجعلنا نفكر فيما يحدث عند الربط بين هذه الفضاءات الدلالية (انظر الشكل 3) . والذي ينتج عنه العلاقات الآتية:

(طرفا التشبيه):

مارسيل	أحد المعجبين (معجبو الممثلين)
حب مارسيل لوالدته	حب المعجب (للممثل)
فرانكوا	حارس المسرح
الضيف	الجمهور
الطعام	الزي الذي يرتديه الممثلون
والد مارسيل	ممثل آخر

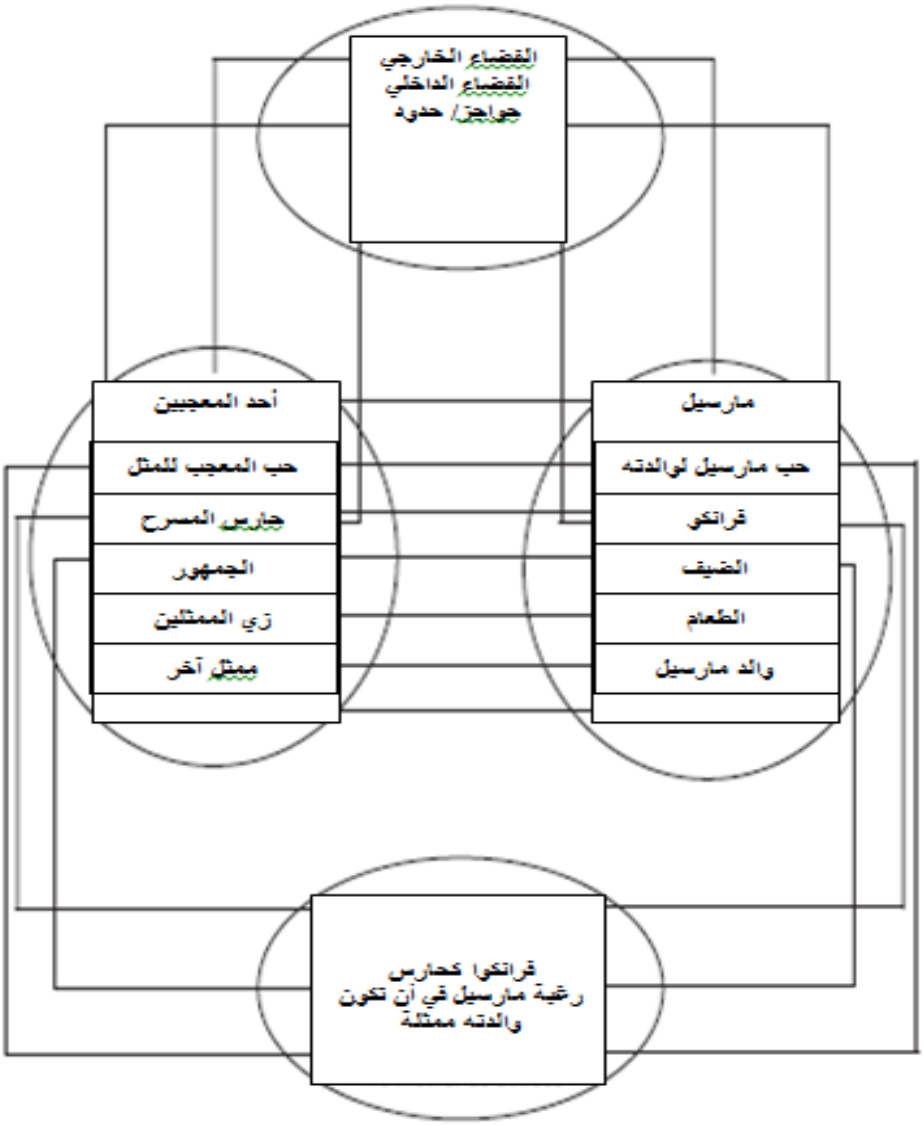

الشكل رقم (٣) التشبيه الخاص بالمسرح

توضح لنا المُدخلات الأولى التي تُعبر عن قصة مارسيل العناصر التالية: مارسيل ، وحبه لوالدته ، وفرانكوا (الطباخة) ، والأب ، وحفل عشاء مع ضيف. وإذا تناولنا مشهد مائدة العشاء فسوف نجد أن هناك أشياء متعددة مثل الطعام ، وأسرة مارسيل وما إلى ذلك من أشياء تجتمع في فضائنا الذهني. وتشمل المُدخلات الثانية: صورة مقابلة تماماً في البنية والعناصر التي تشمل: الحارس والممثل المتواجد على المسرح ليؤدي دوره وكل ما يشمله النموذج المعرفي عما ندركه عن المسرح وما فيه من جمهور ومعجبين وأزياء تاريخية وممثلين آخرين ، .. إلخ. وتُحدد هذه النظائر، التي يستدعيها الفضاء المعرفي العام، العناصر الدلالية التي تمثل جزءاً من المعنى الذي سيصل إلى المتلقي. ويتألف الفضاء المعرفي

العام من تراكيب متشابهة، فهناك بنية مشتركة تحتوي على فضاء دلالي خارجي (يتمثل في مارسيل والمُعجب) ، وفضاء دلالي داخلي (يتمثل في مائدة العشاء والمسرح) ، وحاجز (يتمثل في فرانكوا والحارس).

ويوضح هذا النموذج أن علاقة التشابه لا تقتصر على فرانكوا والحارس فقط، بل إنها تتعدى إلى علاقة التناظر والمقابلة بين والدة مارسيل في حفل العشاء والممثلة على خشبة المسرح، وبين الضيف في حفل العشاء والجمهور المتواجد في المسرح ، وبين بقية أسرة مارسيل وباقي الممثلين المتواجدين على خشبة المسرح. وبذلك يشير هذا الترابط بشكل عام إلى أن حفل العشاء كان بمثابة مسرحية وأن مقاطعة والدة مارسيل كانت غير ممكنة لأنها على المسرح. لذا فإن التشبيه لا يوضح فقط ما تم سرده في النص بل يُحفزنا إلى استنتاج أسباب عدم إمكانية توصيل الرسالة إلى الأم ومعرفتها، وذلك بتوضيح دور الأم وأهميته التي توازي انشغالها بالتمثيل في مسرحية. ولا يمكن مقاطعة ممثل وهو يؤدي دوره. بالإضافة إلى أنه يصف شخصية الأم بأنها شخصية مرتبطة بمناسبة اجتماعية، ولا يمكن مقاطعتها أو مقاطعة أي من الممثلين أثناء أداء هذه المسرحية.

ويعرض لنا نموذج الربط والدمج أيضاً أحد العناصر الموضوعية الأخرى في هذا التشبيه وهذا العنصر ليس جديداً على من يتابع أعمال بروست (Proust) ولكن قد يصعب ملاحظته دون تحديد الفضاء الدلالي الخاص به. حيث يستخدم بروست بعض الكلمات الخاصة بالفضاء العام (داخل ، خارج ، حدود) والتي تشير إلى ما يقابل الفضاء المكاني في المسرح من فضاء في غرفة العائلة كتقابل وتناظر (الشخصيات الموجودة خارج حدود المكان ورغبتهما في الوصول إلى هذا المكان ولكنهما ممنوعان من ذلك): مارسيل والمعجب بالممثلة. وبالتالي يعرض لنا التشبيه تجربتين لشخصين وهما مارسيل وحبه لوالدته وما يقابل ذلك وهو المُعجب وحبه للممثلة. وتتحول هذه المُقابلات بعد دمج هذين الفضاءين إلى التفكير في رغبة ما رسيل في أن تكون والدته ممثلة. وهذا يجعل شخصية فرانكوا تتحول من الشخصية المسيطرة في المنزل الى الشخصية المسؤولة عن حماية الممثلة.

وهذا التشبيه لم يطلعنا بشكل مباشر على أن مارسيل لم يتمكن من التواصل مع أمه واللقاء بها نظراً لأنها على خشبة المسرح. بل يلفت انتباهنا إلى أن فرانكوا تحاول حماية الأم

من الحب الجامح الذي يكنه لها أحد المعجبين والذي يُمثل شخصية مارسيل وحبه لأمه. وقد يصل المرء إلى هذه الاستنتاجات دون الحاجة إلى استعمال نموذج الربط والدمج. وقد نصل إلى الاستنتاج نفسه عند معرفتنا بأن هذا التشبيه يعكس المقولة التقليدية المعروفة التي تقول: (الحياة مسرح كبير). ومع ذلك، نجد أن نموذج الربط والدمج يسهم في توضيح بعض النقاط المهمة التي تسهم في توضيح المعنى بصورة أفضل؛ فلم يوضح لنا التشبيه بشكل صريح أن مارسيل لا يستطيع التواصل مع أمه نظراً لأن "حفل العشاء" هو مسرحية تمثيلية، ولما كان المعنى معنى حيوياً وتفاعلياً ويستخدم فيه التشبيه لإضافة بعض المعاني، وجدنا أن نموذج الدمج والربط هو أفضل وسيلة للتوصل إلى ذلك. فاستنتاج المعنى المقصود والمعنى الضمني ليس لعبة لغوية، بل يعد من أهم ما تتميز به النصوص الأدبية. وذلك أن النصوص الأدبية تعكس لنا عالمنا البشري وطرق فهمنا له. وقد بدا ذلك واضحاً من خلال التشبيه السابق الذي يصور شخصيتين متناظرتين موجودتين في عالمنا، وهو يعكس تجربة الطفل المحب لوالدته والضيف في حفل العشاء.

وفقاً للمنظور الخاص بالسيميائية، يُعد علم الدلالة المعرفي فرصة للحفاظ على البعد الثقافي لصياغة المعنى وفهمه، والمحافظة في الوقت نفسه على منهجية فهم دور التراكيب اللغوية في ذلك.

ملاحظات:

لست على ثقة إذا ما كان إيكو (Echo) سيتفق معي؛ فمن خلال كتابه كانط وبلاتبوس (Kant & the Platpus1999) فقد انتقد إيكو مفهوم النموذج المعرفي، وقدم مفاهيم معرفية أخرى، والتي تمثل جزءاً من مناقشات فلسفية تتناول حالة المفاهيم التجريبية في أول لقاء إدراكي حسي بالعالم . ولم يتبنّ أي من النماذج المعرفية نمط المعرفة الثقافية التي تم الإشارة إليها من خلال النموذج المعرفي ومفهوم إيكو الوارد في كتابه (المعرفة الموسوعية).

وقد أسهب فوكونير (Fauconnier1994) في الحديث عن مفهوم الفضاءات الذهنية من خلال سياق لغوي محدد، وذلك قبل وضع نموذج الدمج حيث كان مفهوم الفضاءات

الذهنية محدوداً وغير واضح، بينما جاء أكثر تفصيلاً من خلال نموذج الدمج، حيث تم الإشارة إلى مفهوم (الفضاءات الذهنية) من حيث هي فراغات تشتمل على نماذج معرفية والذي تحركه المفردات المتواجدة من خلال المدلولات الداخلية (فوكونير وتيرنر : Fauconnier&Turner).

راجع على سبيل المثال وجهة نظر تيرنر (Turner) عن استعمالات الفضاءات الذهنية في هذا الخصوص.

المراجع

D'Andrade, Roy (1987). A folk model of the mind. In Cultural Models in Language and

Thought, D. Holland and D. Quinn (eds.), 112–148. Cambridge: Cambridge University Press.

Eco, Umberto (1976). A Theory of Semiotics. Bloomington: Indiana University Press.

—(1979). The Role of the Reader. Bloomington: Indiana University Press.

—(1984). Semiotics and the Philosophy of Language. Houndmills: Macmillian.

—(1999 [1997]). Kant and the Platypus. New York: Harcourt Brace.

Fauconnier, G. (1994 [1985]). Mental Spaces. Aspects of Meaning Construction in Natural Language. Cambridge: Cambridge University Press.

Fauconnier, G. and Turner, M. (1998). Conceptual integration network. Cognitive Science 22 (2), 133–187.

Gavins, Joanna and Steen, Gerard (eds.) (2003). Cognitive Poetics in Practice. London/New York: Routledge Greimas, A. J. (1966). Se´mantique structurale. Paris: Larousse.

—(1983). Du sens II. Paris: E ´ ditions du Seuil.

Greimas, A. J. and Courtes, J. (1979). Se´miotique, Dictionnaire raisonne´ de la the´orie du langage

. Paris: Hachette.

Hjelmslev, Louis (1953 [1943]). Prolegeomena to a Theory of Language. Baltimore: Waverly Press.

Holland D. and Quinn, N. (1987). Culture and cognition. In Cultural Models in Language and Thought, D. Holland and D. Quinn (eds.), 3–40. Cambridge: Cambridge University Press.

Lako¤, George (1987). Women, Fire and Dangerous Things. Chicago/London: University of Chicago Press.

Proust, M. (1987–1988). Du coˆte´ de chez Swann (¼ A la recherche du temps perdu 1). Paris: Gallimard.

—(1996). Swann's Way (¼ In Search of Lost Time 1), Lydia Davis (trans.). London: Vintage.

Saussure, Ferdinand de (1985 [1916]). Cours de lingustique ge´ne´rale, Tuillio de Mauro (ed.). Paris: Payot.

Schank, R. and Abelson, R. P. (1977). Scripts, Plans, Goals, and Understanding. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Stockwell, Peter (2002). Cognitive Poetics: An Introduction. London/New York: Routledge.

Turner, Mark (1996). The Literary Mind. New York/Oxford: Oxford University Press.

Helle M. Davidsen (b. 1966) is a Lecturer in the Department of Literature and Semiotics at the University of Southern Denmark3hmd@sisakademi.com4. Her research interests include semiotics, cognitive semantics, literary theory, and literary analysis. Her publications include Literature and Encyclopedia (in Danish, 2006).

الوظائف الدلالية لصيغ المبني للمجهول في القرآن الكريم[1]

تأليف: أ. خليل حسن نوفل

ترجمة: أ. ثناء محمود الغباشي

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم الترجمة

[1] أصل هذه الدراسة هو: "Semantic Functions of Passive Constructions in the Holy Qur'an" و نشرت عام 2013 في العدد السادس من المجلد الثالث من مجلة Theory and Practice in Language Studies الصادرة عن دار Academy Publisher بفلندا.

ملخص الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم استعراض شامل للتراكيب اللغوية المبنية للمجهول في ضوء وظائفها الدلالية في القرآن الكريم، حيث إنها مُستخدمة كثيراً في سور القرآن الكريم وآياته. وتقوم هذه الدراسة بشكل غير مباشر بعقد المقارنات وإبراز التناقضات بين ما ذكره علماء النحو في مؤلفاتهم وبين الحالات الموجودة في القرآن الكريم، وذلك للتعرف على الوظائف الدلالية لصيغ المبني للمجهول التي أشار إليها علماء النحو والتي لم ترد في القرآن الكريم ، وتلك الوظائف الدلالية للصيغ التي وردت في القرآن الكريم ولم يشر إليها علماء النحو؛ حيث يوضح لنا ذلك ضرورة الحاجة إلى مراجعة اللغة العربية في ضوء دراسة القرآن الكريم؛ لأنه أوحي إلى رسولنا الكريم بلسان عربي مبين.

المصطلحات

الاختصار – التوجيه- التحريم- الإذن والتصريح- التأكيد- التشويق والإثارة- استخدام التنغيم والإيقاع–السجع والجناس الصوتي – التنظيم الموضوعي – المسلمات.

مقدمة

بناءً على وجهة نظرنا، يتغير استخدام تراكيب المبني للمعلوم أو المبني للمجهول لإبراز التركيز على شيء مهم في الجملة، حيث تحمل الجمل المبنية للمعلوم والجمل المبنية للمجهول المعنى الأساسي نفسه، ولكنهما – مع ذلك – ليستا جملتين مترادفتين. ولهذا السبب نجد أن استخدام أحدهما يبطل استخدام الآخر في الجملة نفسها، أي أنه ليس من الممكن استخدامهما معاً في أي لغة. وعلى الأغلب، يكون استخدام المبني للمعلوم والمبني للمجهول إما للتركيز على الفاعل أو الموضوع الذي يمثل محور الجملة.

وتحتوي أغلبية كتب ومؤلفات النحو – إن لم تكن جميعاً– على قائمة لوظائف الجمل والتراكيب اللغوية المبنية للمجهول. وتشير الحالات الموجودة في القرآن الكريم إلى أن استخدام المبني للمجهول أو المبني للمعلوم يكون لأحد الأسباب التالية :

- لإبراز الحدث أو الفعل.
- لإبراز الفاعل.

- لإنشاء جمل قصيرة بدون فاعل، والتي يتم من خلالها حجب هوية الفاعل، أو التقليل من أهمية الإشارة إليه.
- لتقديم تفاصيل أكثر عن الفاعل.
- الإبقاء على فاعل واحد لعدة جمل متوالية.
- ليكون ملائماً للاستعمال مع الجمل المعقدة.
- تساعد الجمل والتراكيب المبنية للمجهول على إحداث نوع من التشويق والإثارة.

ويمكنكم الاطلاع على المؤلفات والأبحاث التي قدمها كل من: يسبرسن (Jespersen,1933) و ثومبسون (Thompson, 1960) ، و بالمر (Palmer, 1965) وهاليداي (Halliday, 1967) وكوراي (Corray, 1967) وهادلسون (Huddleston,1971) و كويرك (Quirck, 1972) و ليتش و سفارتفيك (Leech and Svartvik,1975) و ألين (Allen 1983) و سيلسي ومرثيا (Celce –Murcia, 1983) وفان إيك (Van Ek, 1984) و بالمر (Palmer, 1987).

وعلى وجه العموم، تُستخدم الجملة المبنية للمجهول في اللغة العربية بشكل أساسي عندما نجهل الفاعل الذي قام بالفعل، أو في حالة رغبة المتحدث أو الكاتب في عدم ذكر الفاعل أو الإشارة إليه. وبالتالي يقع جُل التركيز في جملة المبني للمجهول على الحدث أو الفعل. ولمعرفة المزيد يمكنكم الاطلاع على مؤلفات الأشموني (Al-Ashmoni,1955) ، و ابن يعيش (ب، ت، IbnYa'sh) وابن عقيل (IbnAgil, 1972) ، و حسن (Hasan,1975)، وابن هشام (Ibn Hisham, 1979) ، وابن عصفور (IbnUsfour, 1980)، والسامرائي (Al-Samarra'I, 1989) ، والملاح (Al-Mallah, 1988) ، وخليل (Khalil, 1989) و مغالسة (Maghalseh, 2007) .

الوظائف الدلالية

يُحذف الفاعل في القرآن الكريم وتُستخدم صيغة المبني للمجهول أحياناً للأسباب التالية:

- إذا كان الفاعل غير معروف.
- إذا كان الفاعل واضحاً ومعلوماً.
- إذا كان الفاعل ضمنياً.
- الاهتمام بالحدث أو الفعل أكثر من الفاعل.
- حجب هوية الفاعل أو عدم إبداء الاهتمام بذكر الفاعل أو الإشارة إليه.
- استعمال المبني للمجهول وإخفاء هوية الفاعل نوعاً من التشويق

ومن الاستعمالات الأخرى للمبنى للمجهول في القرآن الكريم ما يلي:

1- تُستخدم صيغة المبنى للمجهول للإيجاز والاختصار، وذلك بحذف الفاعل أو تجاهل الإشارة إليه:

مثال (1): "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا **بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**" (النحل: 126).

مثال (2): "**وَقِيلَ** يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي **وَغِيضَ** الْمَاءُ **وَقُضِيَ** الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ **وَقِيلَ** بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (هود: 44).

وتتمثل الخصائص البلاغية في استخدام تراكيب المبني للمجهول في أنها تعمل على الإيجاز والاختصار، كما أنها تؤثر بشكل كبير في المتلقي أو المستمع من خلال جذب انتباهه إلى الحدث والفعل أكثر من التفاصيل الأخرى (انظر السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ، مجلد 170:3) .

ويُشير الفعل الماضي المبني للمجهول (قيل) في المثال الثاني آنفا إلى أن القائل هو الله سبحانه وتعالى، بينما قد يكون الفاعل في صيغة المبني للمجهول في الاستخدام الثاني للفعل (قيل) في الآية نفسها هو الله عز وجل؛ ليشير إلى اللعنة والطرد من رحمة الله للطغاة، أو قد يكون القائل نبي الله نوح ؛ ليشير إلى أنه دعا الله عز وجل (وقيل بعداً للقوم الظالمين) أن يبعد الطغاة ويعذبهم (انظر الرازي: مفاتيح الغيب ، مجلد 539:8). بالإضافة إلى ذلك، نجد أن جميع صيغ الأفعال في تراكيب المبني للمجهول استُخدمت

للدلالة على عظمة النظم القرآني وكماله كما تدل على النسق المطرد للنص symmetry (ابن الجوزية: الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ، 264-265).

2- تُستخدم تراكيب المبني للمجهول عندما يوجه الله سبحان وتعالى عباده ويرشدهم إلى الأمور الخاصة بالمعاملات، ويتضح ذلك في الآيات القرآنية التالية:

مثال (3): "وَإِذَا **حُيِّيتُم** بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا" (النساء: 86).

مثال (4): "وَإِن **قِيلَ** لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا" (النور : 28).

واستُخدم الفعل في صيغة المبني للمجهول في المثال (3) آنفاً (حُييتم) والفعل المبنى للمجهول في المثال الرابع (قيل) ، في القرآن الكريم للإشارة إلى الكيفية التي يتعامل بها بعض الناس مع بعضهم الآخر.

3- تُستخدم صيغة المبني للمجهول في القرآن الكريم عند الإشارة إلى أوامر الله عز وجل وتوجيهاته ووصاياه، وذلك كما ورد في الآيات القرآنية التالية :

مثال (5): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **كُتِبَ** عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا **كُتِبَ** عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة:183).

مثال (6): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا **نُودِيَ** لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ" (الجمعة:9).

مثال (7): "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ **أُحْصِرْتُمْ** فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ" (البقرة :196) .

استُخدمت صيغة الفعل المبني للمجهول في الآيات السابقة (كُتب) و(نُودي) و(أُحصرتم) للإشارة إلى أن هذه التوجيهات والوصايا من عند الله رب العالمين.

4- يُستخدم أسلوب المبني للمجهول عند التركيز على ما أحله الله وما حرمه:

وقد استعمل الفعل (أُحل) في الآيات القرآنية التالية في صيغة المبني للمجهول للإشارة إلى إذن الله عز وجل وتصريحه للناس لأداء ما أحله لهم.

مثال (8): "الْيَوْمَ **أُحِلَّ** لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ" (المائدة:5).

مثال (9): "**أُحِلَّ** لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ" (البقرة: 187) .

مثال (10): "**حُرِّمَتْ** عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ" (المائدة :3) .

مثال(11): "**حُرِّمَتْ** عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ" (النساء:23) .

5- تُستخدم **صيغة المبنى للمجهول للدلالة على (التواضع) وذلك مثلما فعل يوسف عليه السلام عندما قام بتفسير أحلام رفاقه بالسجن :**

مثال(12): "**قُضِيَ** الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ". (يوسف :41) .

ولم يلجأ سيدنا يوسف إلى أن يقول: (قضيت لكم الأمر الذي فيه تستفتيان) .

6- يتم استعمال تراكيب المبني للمجهول للتأكيد والإثبات :

مثال(13): "**وَقُضِيَ** الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ **تُرْجَعُ** الْأُمُورُ" (البقرة: 210) .

وقد تم في المثال السابق استعمال صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول (وقضي) للتأكيد والبرهنة. وهذا يعنى أن هذا الفعل (قُضي) استُخدم في هذه الآية للإشارة إلى أن الأمر سوف يحدث بكل تأكيد .

7- يُستخدم المبني للمجهول أيضاً لتعظيم الفاعل أو تبجيله:

مثال (14): "**قُتِلَ** الْخَرَّاصُونَ" (الذاريات : 10) .

وقد قال الله تعالى في الآية السابقة (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) بدلاً من القول (قتل الله الخراصين).

وبذلك لم تتم الإشارة إلى لفظ الجلالة (الله) سبحانه وتعالى تكريماً وتمجيداً له عز وجل .

مثال (15): "**وَجِيءَ** يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ" (الفجر : 23) .

ولم يقل الله عز وجل من خلال المثال السابق: (وجاء الله يومئذ بجهنم) .

8- يُستخدم المبني للمجهول عندما يكون الفاعل معلوماً وواضحاً لدى المتلقي (ويقصد به : الله عز وجل) والذي يكون معلوماً مسبقاً، وليس هنالك حاجة لذكره أو الإشارة إليه . هذا يعنى أن الفاعل يمكن إدراكه والتعرف عليه من خلال السياق اللغوي أو سياق الموقف:

مثال (16): "**خُلِقَ** الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ" (الأنبياء :37) .

مثال (17) : "**وَخُلِقَ** الْإِنسَانُ ضَعِيفًا" (النساء : 28) .

ومن الخصائص البلاغية للفعل المبني للمجهول في المثال الأول (خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) أنه يفيد التأكيد والإثبات، ولكنه استُخدم في المثال الثاني (خُلق الإنسان ضعيفاً) للتصديق والإقرار .

ولم يُذكر الفاعل في كلٍ من المثالين السابقين، بل تم التركيز على الحدث والفعل (انظر ابن جني: المحتسب ، مجلد 66:1) . ولم يوضع الفعل في صيغة المبني للمجهول؛ لأن الفاعل غير واضح أو معلوم، ولكن لتأكيد أن هذا الحدث أو الأمر حقيقي وقد تم بالفعل. وبالتالي فإن استخدامه يدلل على تأكيد حدوث الفعل (انظر الزركشي: البرهان ،144:3) .

ونرى من خلال الآيات القرآنية التالية، أن الأفعال في صيغة المبني للمجهول استُخدمت للتركيز على الحدث أو الفعل وليس على الفاعل.

مثال (18): "فَإِذَا **نُفِخَ** فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ **وَحُمِلَتِ** الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ **فَدُكَّتَا** دَكَّةً وَاحِدَةً" (الحاقة 13:14) .

مثال (19): "وَإِذَا **قُرِئَ** الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأعراف : 204).

9- يُستخدم المبني للمجهول في القرآن الكريم للتشويق والإثارة وخاصة عند سرد القصص :

مثال (20): "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ **نُفِخَ** فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا **وَوُضِعَ** الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ **وَوُفِّيَتْ** كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ **وَسِيقَ** الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا **فُتِحَتْ** أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ **وَسِيقَ** الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا **وَفُتِحَتْ** أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾" (الزمر : 68-73).

10- يُستخدم الفعل في صيغة المبني للمجهول أحياناً على سبيل التوافق مع السياق اللغوي والنظم:

تُستخدم كلٌ من صيغ المبني للمعلوم والمبني للمجهول بشكل دائم ومتكرر في الخطاب القرآني بغرض الحفاظ على السياق اللغوي والنظم:

مثال(21): "**وَطُبِعَ** عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" (التوبة : 87) .

مثال (22): "**وَطَبَعَ** اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (التوبة : 93).

استُخدم الفعل (طُبِع) في المثال الأول في صيغة المبني للمجهول ليتلاءم ويتوافق مع الفعل المبني للمجهول في الآية السابقة (أُنْزِلت) كما يلي :

مثال (23): "وَإِذَا **أُنزِلَتْ** سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾" (التوبة : 86) .

وفي المثال الثاني، نجد أن الفعل (طبع) مبني للمعلوم، وذلك لكي يتلاءم ويتوافق مع الفعل (يستأذنوك) والفعل (رضوا) المُستخدمين في الآية نفسها وذلك كما يلي :

مثال (24): "إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ **يَسْتَأْذِنُونَكَ** وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ **رَضُوا** بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ **وَطَبَعَ** اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾" (التوبة : 93).

بالإضافة إلى ذلك، تُستخدم صيغة المبني للمعلوم في هذا السياق لنسبة الفعل إلى الله للدلالة على أن الفاعل قوي وأنه طبع على قلوبهم بقدرته وقوته حتى نؤمن أن ما ختم قلوبهم تغلغل فيهم وسرى في قلوبهم مسرى الدم في الجسد، وذلك أقوى وأبلغ في الـتأثير في المُتلقي من ترك الفعل بدون فاعل كما هو الحال في صيغة المبني للمجهول (انظر الإسكافي: دُرة التنزيل:719) ، والزركشي: البرهان في علوم القرآن ، مجلد 145:3).

11- يُستخدم المبني للمجهول للتحقير والتقليل من شأن الفاعل:

مثال (25): "**زُيِّنَ** لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا" (البقرة :212) .

مثال (26): "قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن **يُسْجَنَ** أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (يوسف:25).

استُخدم الفعل (زُين) المبني للمجهول في المثال الأول للتقليل من شأن الشيطان وتحقيره، وذلك لأنه الوحيد الذي يسعى لتزيين الأعمال السيئة والخبيثة. ولا يستُخدم الفعل المبني للمعلوم (زينا) في الآية (زينا لهم سوء أعمالهم) للإشارة بشكل مطلق إلى ضمير الغائب (نا) الذي يشير إلى الله عز وجل في القرآن الكريم. واستُخدم الفعل (يُسجن) في صيغة المبني للمجهول للإشارة إلى رغبة زليخة (زوجة العزيز) في إذلال نبي الله يوسف عليه السلام .

12- تُستخدم صيغة المبني للمجهول عندما يكون الفاعل غير معلوم أو غير محدد:

مثال (27): "قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ **قُدَّ** مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ **قُدَّ** مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ

﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ **قُدَّ** مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾" (يوسف : 26-28).

استعمل الفعل (قُدَّ) في المثال السابق في صيغة المبني للمجهول، وذلك لأن أولئك الذين لم يشهدوا ما حدث بين يوسف وزليخة لم يعلموا مَنْ قام بشق قميص يوسف عليه السلام . فلا يعلم الحاضرون ما إذا كانت زليخة تُدافع عن نفسها أمام يوسف، أم أنها حاولت مُراودته بالفعل عن نفسه بكل شدة ؟

مثال(28): "وَإِذَا **بُشِّرَ** أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾" (النحل: 58) .

ومن خلال هذا المثال، نجد أنه ليس من المهم أن يُعرف المُتلقي أو المُستمع هوية من قام بتبشيرهم بمولد أنثى، حيث إن الأهم هنا هو الحدث .

مثال(29): "وَلَقَدْ **كُذِّبَتْ** رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا **كُذِّبُوا وَأُوذُوا** حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا" (الأنعام:34) .

وفي المثال السابق ليس من المهم أيضاً التعرف على هوية الذين قاموا بتكذيب الرسل، ولكن الأهم هو الحدث نفسه (تكذيب الرسل) .

13- تُستخدم صيغة المبني للمجهول للحفاظ على السجع أو للتوقف وبدء جملة جديدة، أو لمقابلة اللفظ باللفظ لإحداث تطابق لفظي بين الجمل وصيغ الأفعال المتلاحقة والمتعاقبة في هذه الجمل (كما في المثال التالي):

مثال(30): "إِذَا الشَّمْسُ **كُوِّرَتْ** ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ **سُيِّرَتْ** ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ **عُطِّلَتْ** ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ **حُشِرَتْ** ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ **سُجِّرَتْ** ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ **زُوِّجَتْ** ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ **سُئِلَتْ** ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ **قُتِلَتْ** ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ **نُشِرَتْ** ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ **كُشِطَتْ** ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ **سُعِّرَتْ** ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ **أُزْلِفَتْ** ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾" (التكوير: 1-14).

وإذا تأملنا المثال السابق سنجد أن جميع الأفعال المبنية للمجهول تشترك في سجع واحد وبينها تطابق لفظي . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن حالة التوقف وبدء جمل جديدة تتلاءم مع الآيات القرآنية (مثل الآيات المذكورة أعلاه بالمثال) التي يتم من خلالها استعمال هذه الأفعال بهذا الشكل.

14- تُستخدم صيغ المبني للمعلوم والمجهول في القرآن الكريم حيثُ ينسب الله سبحانه وتعالى أفعال الخير والفضائل لذاته (عز وجل) في المبني للمعلوم، وبذلك يكون الفاعل واضحاً ومُعززاً لثقة المُتلقي في الفاعل وقدرته على الفعل وارتباط الفعل بصفات الله المنزهة عن كل سوء. بينما تُنسب أعمال الشر والرذائل إلى الآخرين، وبذلك تُستخدم صيغ المبني للمجهول ويكون الفاعل في هذه الحالة مستترا (غير مذكور).

مثال (31):"وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ **أُرِيدَ** بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾" (الجن:10).

مثال (32): "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا **تُظْلَمُ** نَفْسٌ شَيْئًا" (الأنبياء: 47) .

استُخدم الفعل (أُريد) والفعل (تُظلم) في صيغة المبني للمجهول نظراً لأن الله عز وجل مُنَزَّه عن أعمال الشر والرذائل والخبائث ولا يظلم أحداً. ومع ذلك، قد تُستخدم في بعض الأحيان أفعال الخير في صيغة المبني للمجهول، ولكنها تكون مسبوقة بجمل صيغت أفعالها للمبني للمعلوم.

مثال (33): "**يُؤْتِي** الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن **يُؤْتَ** الْحِكْمَةَ فَقَدْ **أُوتِيَ** خَيْرًا كَثِيرًا" (البقرة: 269).

ويبرز من خلال هذا المثال أن الفعلين (يُؤت) و (أُوتي) ذُكرا في صيغة المبني للمجهول، بينما سبقهما فعل في صيغة المبني للمعلوم وهو (يُؤتي).

15- يُستخدم المبني للمعلوم والمبني للمجهول لتنويع السياق والخطاب القرآني:

تُستخدم صيغ المبني للمعلوم والمبني للمجهول بشكلٍ مُتكرر في السياق القرآني ووفقاً للسياق اللغوي المناسب لكل منهما كما هو موضح في الآيات التالية :

مثال (34): "وَإِذْ **قُلْنَا** ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا" (البقرة: 58).

اسُتخدم في هذا المثال صيغة المبني للمعلوم للتركيز على الفاعل والإشارة إليه بصورة مباشرة وهو (الله عز وجل).

مثال(35): "وَإِذْ **قِيلَ** لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ" (الأعراف: 161) .

مثال (36): "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ **اذْكُرُوا** نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾" (البقرة: 47).

استُخدمت صيغة المبني للمجهول في الماضي (قيل)، في المثال الثاني، بعد أن سُبقت بصيغة الفعل المبني للمعلوم (قلنا) في المثال الأول الذي يوضح الفاعل. وقد عزا الرازي (في مفاتيح الغيب، مجلد 92:2) الاستخدام الموجود في المثال (34) والمثال (36) إلى سببين وهما منع اللبس وتوضيح الفاعل، والاستطراد وفقاً للسياق اللغوي السابق الذي يوضح كرم الله ويذكر النعم التي منحها الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل (في الآيات السابقة للآية 58 من سورة البقرة).

أما في المثال (35): (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم)، فنجد أنه ليس هناك غموض، حيث إن الفاعل قد تمت الإشارة إليه سابقاً وهذا يتلاءم مع صيغة المبني للمجهول (انظر النيسابوري: غريب القرآن ، مجلد 324:1) و(أبو حيان: البحر المحيط مجلد 346:1).

16- وفي بعض الأحيان، تُستخدم صيغة المبني للمجهول قبل صيغة المبني للمعلوم؛ وذلك لأن العرب يرون أن الأهم هو ما يتم ذكره في البداية (انظر سيبويه: الكتاب مجلد 15:1) و(الإسكافي: دُرة التنزيل: 1316).

انظر في الآيات القرآنية التالية :

مثال (37): "**وَيُطَافُ** عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾" (الإنسان:15) .

مثال(38): "**وَيَطُوفُ** عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾" (الإنسان:19).

في المثال (37) أعلاه ، استُخدم الفعل المبني للمجهول (يُطاف) نظراً لأن الأمر الأهم بالنسبة للمتلقي والمستمع هو وصف ما يطاف عليهم به وذكره (وهو الآنية من فضة والأكواب القوارير)، بينما في المثال الثاني نجد أن الأمر الأهم بالنسبة للمستمع هو التعرف على من يطوفون عليهم؛ لذلك استخدم المبني للمعلوم.

17- تُستخدم صيغة المبني للمجهول في القرآن الكريم للتهكم والسخرية:

مثال (39): "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ **يُجْزَوْنَ** إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾" (الأعراف: 147).

مثال(40): "إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا **يُغَاثُوا** بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ" (الكهف:29).

عادةً ما نجد أن صيغة المبني للمجهول للفعل (يُجزون) في المثال الأول والفعل (يغاثوا) في المثال الثاني يتلازم ذكرها مع المحسنين والمؤمنين، لكن استخدامها مع (الذين كذبوا) (والظالمين) في هذا السياق يهدف إلى السخرية بهم، حيث إننا عندما نسمع عبارة (يُجْزَوْنَ، يُغَاثُوا) نتوقع أن الخير قادم، ولكن مع الكفار يحدث عكس ذلك، ويكون هذا الأسلوب للاستهزاء بهم فيبشرون بالعذاب ويُغاثون بماء يشوي الوجوه .

18- يُستخدم المبني للمجهول للتنظيم الموضوعي للمعلومات:

إن صيغة المبني للمجهول أسلوب من أساليب التعبير. وهذا يعني "أن المبني للمجهول صيغة تداولية أساسية"، (انظر قيفون Givon، 566:1990). وحيث لا يتم أي خطاب إلا في سياق اجتماعي، فإننا نجد أن صيغة المبني للمجهول تسمح للمتحدثين بصياغة المعلومات واختصارها بإخفاء بعض المعلومات غير الضرورية ووضع الأهمية على الحدث أو المتأثر به بدلاً من التركيز على الفاعل (فولي وفان فالين Foly and Van Valin:

1985). ولذلك، فإن صيغ المبني للمجهول تساعد المتحدثين على إبدال الفاعل بالمفعول، وبالتالي يحدث تبادل بين ما هو معلوم وما هو مجهول (هاليداي Halliday: 1994). ومن خلال هذا السياق، فإن التراكيب المبنية للمجهول تعد بمثابة فرصة للتركيز على الموضوع تركيزاً أشد، وهي بمثابة وسيلة لجذب الانتباه إلى المفعول به (من يقع عليه الحدث) (كينان، 243:1985).

وبالتالي يُستخدم المبني للمجهول عند الرغبة في جذب انتباه القارئ أو المستمع إلى الشخص أو الشيء الذي تأثر بالحدث أو بالفعل الذي وقع بدلاً من التركيز على الفاعل.

مثال(41): "**كِتَابٌ أُنزِلَ** إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾" (الأعراف :2) .

مثال(42): "**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾" (فصلت: 3) .

مثال(43): "فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا **بِالطَّاغِيَةِ** ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا **بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ﴿٦﴾" (الحاقة : 5-6).

19- تُستخدم صيغة المبني للمجهول كذلك عندما لا تكون وظيفة الخطاب إظهار الفاعل في المشهد، وإنما التركيز على الحدث نفسه.

مثال(44): "**وَنُفِخَ** فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ" (الزمر :68) .

إن الحدث الذي تم التركيز عليه في هذا المثال هو عملية (النفخ) وشدتها والرعب الناتج عنها. وذكر الألوسي (Al-Alousy) في أحد مؤلفاته أنه قد ثبت علمياً أن شدة وحِدَّة الصوت تؤدي إلى حالة توتر عصبي وغضب. وعندما تزداد إلى أكثر من 200 ديسبل تُفقد الإنسان الوعي ويموت في الحال.

20- تُستخدم تراكيب المبني للمجهول أيضاً لوصف الغيبيات مثل منظر الحدائق الخارق للطبيعة بالجنة ووصف جهنم يوم القيامة.

مثال(45) : "وَاتَّقُوا **النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ** لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾" (آل عمران: 131).

مثال (46): "وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ **وَجَنَّةٍ** عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ **أُعِدَّتْ** لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾" (آل عمران: 133)

تُشير صيغة الفعل (أُعِدَّتْ) في المبني للمجهول إلى (الجنة) و (النار) بالمسميات العامة لكل منهما. ويتم استعمال الفعل (أَعَدَّ) في صيغة المبني للمعلوم عندما يستعمل رب العزة أسماء أخرى للجنة والنار أو خصائصهما أو دلالة كل منهما أو علاماتهما.

مثال (47): "إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ **وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** ﴿٦٤﴾" (الأحزاب :64).

مثال (48): "وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ **وَأَعَدَّ** لَهُمْ **جَهَنَّمَ** ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" (الفتح:6).

مثال (49): "**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" (النحل:31).

مثال (50): "**وَأَحَلُّوا** قَوْمَهُمْ **دَارَ الْبَوَارِ**" (إبراهيم:28).

مثال (51): "**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** ﴿٢٦﴾" (المدثر :26).

مثال (52): "الَّذِي **أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ** مِن فَضْلِهِ" (فاطر:35).

مثال (53): "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ **وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴿٦٥﴾" (المائدة:65).

21- تُستخدم صيغة المبني للمجهول لتعميم القوانين والمسائل والأحكام الدينية :

مثال (54): "وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ **وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ**" (البقرة:282).

مثال (55): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا **نُودِيَ** لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ" (الجمعة :9).

مثال (56): "إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ **إِذَا دُعُوا** إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" (النور:51).

مثال (57): "**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**" (الأنبياء:47).

مثال (58): "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن **يُقَتَّلُوا** أَوْ **يُصَلَّبُوا** أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ" (المائدة:33).

مثال (59): "**كُتِبَ** عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ" (البقرة:180).

22- تُستخدم التراكيب المبنية للمجهول في القرآن الكريم للتعبير عن الاستنكار، والرفض، والنقد، والتوبيخ ، والاحتقار، واللوم. ويتضح هذا في الأمثلة التالية :

مثال (60): "**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا** وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ" (التوبة:16) .

مثال (61): "**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ** سُدًى ﴿٣٦﴾" (القيامة: 36) .

مثال (62): "أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي **تُتْلَى** عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾" (المؤمنون:105).

مثال (63): "أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا **بُعْثِرَ** مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ **وَحُصِّلَ** مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾" (العاديات: 9-10).

مثال (64): "أَفَمَن **يُلْقَىٰ فِي النَّارِ** خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (فصلت :40) .

مثال (65): "أَفَمَن **زُيِّنَ** لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا" (فاطر:8) .

مثال (66): "**قُتِلَ** أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾" (البروج: 4) .

23- يستخدم المبني للمجهول في القرآن الكريم عند الدعاء أو اللعن:

مثال (67): "إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ **لُعِنُوا** فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾" (النور: 23) .

مثال (68): "**غُلَّتْ** أَيْدِيهِمْ **وَلُعِنُوا** بِمَا قَالُوا" (المائدة :64) .

تُدلل الأفعال المبنية للمجهول والتي تظهر بخط داكن أعلاه على الدعاء والتضرع أو على اللعن والطرد من رحمة الله.

مثال (69): "أَلَمْ **يُؤْخَذْ** عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" (الأعراف :169).

مثال (70): "**أَأُلْقِيَ** الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾" (القمر: 25).

مثال (71): " **أَأُنزِلَ** عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي" (ص:8).

نجد أن جميع الأفعال المبنية للمجهول والتي تظهر بخط داكن أعلاه في (مثال 69، مثال 70 ، مثال 71) تأتي في صيغة جمل استفهامية للدلالة على الرفض أو الاستنكار أو النقد أو التوبيخ أو التحقير.

24- التركيز على الفاعل :

ومن بين أسس تغيرات النحو والصرف الخاصة بالفعل في اللغة العربية المعاصرة اللجوء إلى إغفال الفاعل. ويقع إغفال الفاعل في اللغة العربية المعاصرة بطريقتين (1): إغفال الفاعل بشكل تام من خلال حذفه، أو (2) إغفال الفاعل إلى حد ما من خلال إبرازه بشبه الجملة (في نهاية الجمل) وخاصة في جمل المبني للمجهول الطويلة. ومع ذلك ، وعلى النقيض من الشائع، فإن مسألة عدم التركيز على الفاعل ليس للتقليل من شأن الفاعل وخاصة عند وضعه في آخر الجملة. والأمثلة التالية توضح ذلك الأمر:

مثال (72): "وَقَالُوا لَوْلَا **نُزِّلَ** عَلَيْهِ آيَةٌ **مِّن رَّبِّهِ**" (الأنعام : 37).

مثال (73): "قُلْ إِنَّمَا **أَتَّبِعُ** مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ **مِن رَّبِّي**" (الأعراف: 203).

وفي المثال (73): نجد أن الفاعل "من ربي" قد برز في هذه الآية لتوضيح أن القرآن الكريم أوحى به الله إلى رسوله سيدنا محمد وليس وحياً من أي شخص آخر .

25- يتم استعمال المبني للمجهول للإشارة إلى الأمور المسلم بصحتها، حيث إن اللغة العربية الحديثة تشير إلى مسلمات عن الحدث وتؤكد المفعول وتبرزه . ومن خلال الأمثلة التالية سيتضح الأمر بشكل أكبر:

مثال (74): "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا **أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ** إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾" (آل عمران :65).

ويوضح المثال السابق أن صيغة المبني للمجهول قد تكون إجابة عن السؤال "ماذا حدث؟"، حيث إن الله سبحانه وتعالى يعلم أن المتلقي أو السامع يعرف الحقيقة. ووفقاً لقول (إنكفيست، Enkvist: 137:1979)، "أثار المُتكلم [وهو الله سبحانه وتعالى في هذا السياق] بعض المعلومات التي يعلم أن المتلقي يعرفها." لذا فإن تقديم الفعل المبني للمجهول (أنُزلت) تم وفقاً للتنظيم الموضوعي للجملة بوصفها معلومة مُسلماً بها ومعروفة (المسند) بينما وضع (الإنجيل والتوراة) في المكان المُخصص للمعلومات الجديدة (المسند إليه). ولذلك فإن صيغة المبني للمجهول (أنُزلت) تتطابق مع الرسالة الموجهة للمتلقي، حيث برز المفعول به (بوصفه معلومة خبرية جديدة) لجذب النظر إليها، بينما عبرت صيغة المبني للمجهول عن المعلومة المعروفة.

الخاتمة

أثبتت الحقائق التي تم تقديمها في هذه الدراسة أن المبني للمعلوم والمبني للمجهول من الأشكال النحوية الهامة في اللغة العربية على وجه العموم، وفي القرآن الكريم على وجه الخصوص، حيث تُستخدم هذه الصيغ لأغراض وأهداف ودلالات معينة يلمح إليها الله سبحانه وتعالى. وقد ثبت أن المبني للمعلوم والمبني للمجهول من الخيارات المتاحة أمام متحدثي اللغة العربية للتعبير عن وجهات نظرهم ومعتقداتهم وقيمهم وفرضياتهم من خلال استعمالاتها في دلالات المفردات والكلمات لتوصيل رسالة بعينها .

إن الخطاب القرآني مشهد لغوي يتميز بتنوع الأساليب والوظائف والخصائص اللغوية البلاغية والدلالية والنحوية ؛ مما يُميز القرآن عن أي نثر قدمه البشر باللغة العربية.

حاولنا في هذا البحث دراسة الوظائف الدلالية والأسلوبية لتراكيب المبني للمجهول وصيغه في القرآن الكريم، ووجدنا أن هناك بعض التشابه والاختلاف بين الوظائف الدلالية والأسلوبية للمبني للمجهول المستخدمة في القرآن الكريم والتي يستخدمها علماء النحو.

نتائج الدراسة

على الرغم من أن هذه الدراسة ذات طبيعة لغوية في المقام الأول ولا تُركز على الجوانب التعليمية، فإنه من الممكن الاستفادة منها في الجانب التعليمي وخاصة لمعلمي اللغات الأجنبية، حيث يمكنهم الاستفادة منها في تشخيص الصعوبات التي قد تواجه طلابهم وأسس التعامل معها وإيجاد الحلول لها. ويمكن أن يستفيد من ذلك أيضاً المترجمون، وواضعو الكتب المدرسية ، وواضعو الاختبارات، وواضعو المناهج.

المراجع

āni fī Tafsīr Al- Qurān Al- ʕ[1] Al –Alousi, M. (1403). R Al- Ma Athīm, Dār Al- Turāth – Cairo.

[2] Al-Ashmoni, A. (1955) Sharħ Al- Ashmoni. Maktabat Al-Nahdha Al- Missriyyah – Egypt.

[3] Al -Iskafi, M. (1422). Durāt Al- Tanzīl wa Ghurat Al – Ta?wīl. Um Al- Qurā University – Mecca.

[4] Al- Mallah, Y. (1989). "Masā'l fi-Al-Mabni lil – Majhul". Bethehem University Journal, VOL. 7, 8, 83-103.

[5] Al –Naysabouri, N. (1381). Gharā?ib Al-Qur'an. Mustafa Al-Halabi Press – Egypt.

[6] Al- Razi, F. (1993). "MaFātih-u Al-Ghayb. Dār Al- Ghad Al- Arabi – Cairo.

1: Zamānuh wa Abniyatuh – ʕ[7] Al- Sāmarrā'i, I. (1980). Al – Fi Mu'ssasat Al- Risalah – Amman.

ulūm Al- Qur'an. Dār Al- Fikr ʕ[8] Al- Soyouti. J. (1996). Al – Itqān fi – Lebanon.

[9] Al- Shawakani, M. (1997). Fath Al– Qadīr. Dār Al- Wafā? – Al- Mansoura.

uūm? al- Qurān .Al- ʕ[10] Al –Zarkashi, M. (1972). Al- Burhān fī Maktab Al- Asriya. Beirut- Lebanon.

[11] Al –Zamakhshari Abu Al–Qasim, M. (1987). Al– Kashaf. Dār Al–Rayyan – Cairo.

[12] Abu Hayyan, Al–Andalusi. (1412) Al–Bahr Al–Muḥīt. Dār Al–Fikr – Beirut.

[13] Allen, V.F. (1983). "A New Look at the Passive" English Teaching Forum, VOL. 21, NO.2 PP.8–11.

[14] Celce –Murcia, M. and Drane Larsen – Freeman. (1983). The Grammar Book: An ESL/ EFL Teacher's Course Rowley, Mass, Newbury House.

[15] Corray, M. (1967). "The English Passive Voice" ELT VOL, 21, NO.3, PP.203–10.

[16] Enkvist, Nils Eric. (1979). "Marked Focus: Functions and Constraints." In: S.Greenbaum, G.Leech, J.Svartvik (ed), Studies in English Linguistics for Randolph Quirk. London and New York: Longman, 134–152.

[17] Foley, William A. and Robert D. Van Valin, Jr. (1985). "Information Packaging in the Clause" In: T. Shopen (ed.), Language Typology and Syntactic Structure. Cambridge: C.U.P., 281–364.

[18] Givon, Talmy (1990). "Voice and De – transitivization". Syntax: A Functional Typological Introduction (Vol II). Amsterdam: John Benjamins, 563 – 644.

[19] Halliday, M.A.K. (1994). An Introduction to Functional Grammar (2nd ed). London: Edward Arnold.

[20] Hasan, A. (1975). Al–Nahw–Al– Wāfi. Dār Al Ma'ārif– Misr–Cairo.

[21] Holy Qur'an –English Translation of the Meanings and Commentary– Revised and Edited by the Presidency of Islamic Researches, Ifta', Call and Guidance– King Fahd Holy Qur'an Printing Complex–Al–Madinah Al– Munawarah (1404) A. H.

[22] Huddleston, R.D. (1971). The Sentences in Written English: A Syntactic Study Based on an Analysis of Scientific Texts. Cambridge University Press. London.

[23] Huddleston, R.D. (1984). Introduction to the Grammar of English. Cambridge University Press. London.

[24] Ibn Al– Qayyim Al–Jawziyya. Sh. (2003). Al–Fawā?id Al–Mushawiqa. Al– Maktabah Al– Asriya. Beirut. Lebanon.

[25] Ibn Aqil, A. (1972). Sharh–u Ibn Agil, VOL–1, Dār Al–Fikr.Al–Arabi–Beirut.

[26] Ibn Hisham.A. (1979). Awdah Al– Masalik.Vol. 2, Dār' Al–Turath Al–Arabi–Beirut.

[27] Ibn Jinny, Abu AL–fath, O. (1998). Al–Muħtasib. Dār Al–Kutub ilmiyya–Cairo.ʕAl–

[28] Ibn Usfur. (1980). Sharh Jumal Al–Zajjaji. Vol. 1, Mu'ssasat Da:r Al–Kita:b, Musil University – Iraq.

[29] Ibn Ya'ish, M. (no date). Sharħ Al- Mufasal. Al-Muniriyyah Press.

[30] Jesperson, O. (1933). Essentials of English Grammar. George Allen and Unwin. Ltd- London.

[31] Jesperson, O. (1951). The Philosophy of Grammar. George Allen and Unwin. Ltd- London.

[32] Khalil, A. (1989). "The Passive Voice in English and Classical Arabic: Formation, Type and Function". Bethlehem University Journal, Vol.7, PP.7-38.

[33] Keenan, Edward L. (1985). "Passive in the Worlds' Languages". In: T. Shopen (ed.), Language Typology and Syntactic Structure. Cambridge: C.U.P., 243-281.

[34] Leech, G. and J. Svartvik. (1975). A Communicative Grammar of English. Longman Group Ltd-London.

[35] Maghalesh, M.H. (2007). Al-Nahwa Al- Shāfi Dār Al-Masira Press -Amman, Jordan.

[36] Myhill, John. (1997). "Pragmatic and Categorial Correlates of VS Word Order." Lingua 66, 177-200.

[37] Palmer, F.R. (1965). A Linguistic Study of the English Verb. Longman, Green and Co Ltd. London.

[38] Quirk .et.al. (1972). A Grammar of Contemporary English. Longman Group Ltd-London.

[39] Quirk .et.al. (1985). A Comprehensive Grammar of the English Language. Longman Group Ltd–London.

THEORY AND PRACTICE IN LANGUAGE STUDIES 901

© 2013 ACADEMY PUBLISHER

[40] Shabanah, H .M. (1981). "The Passive Sentence in Arabic", MA. Dissertation, University of Jordan.

[41] Shibantani, Masayosha. (1985). "Passive and Related Constructions: A Prototype Analysis" Language, 61:4, 821–848.

[42] Sibawayhi Abu Bashir,O. (1985). Al–Kitaab,Dār Al–?ilm Al–Arabiyya. Beirut.

[43] Thompson, A .J. and A.V. Martinet. (1960). A Practical English Grammar. Oxford University – Oxford.

[44] Van Ek, J. and R. Nico. (1984). The Students Grammar of English. Basil Blackwell Ltd. – Oxford.

Khalil Hassan Nofal obtained his Ph.D from Jordan University in 2002. He occupied some educational, administrative and academic posts: School Supervisor (English), EDC, Administration Officer, and General Education Specialists / UNRWA – UNESCO. He has been working as chair / Department of English and Director/ Language Centre – Philadelphia University– Jordan. He is Editorial Board member in (IJSST), (IER), and (EJBSS) and APETAU member.

902 THEORY AND PRACTICE IN LANGUAGE STUDIES

تطبيق لسانيات المدونات في تحليل الخطاب[1]

تأليف: أ. وانج دونجمي

ترجمة: د. فاطمة علي الشهري

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الإنجليزية

[1] أصل هذه الدراسة هو: "Applying Corpus Linguistics in Discourse Analysis"، للباحث Wang Dongmei و قد نشرت في العدد الثاني من المجلد السادس من مجلة Studies in Literature and Language الصادرة عام 2013.

الملخص

تستخدم هذه الدراسة أدوات تحليلية من أدوات لسانيات المدونات النصية (Corpus linguistics) وذلك لدراسة تقريري المسؤولية الاجتماعية لشركة النفط البريطانية (BP) قبل حادثة تسرب النفط في خليج المكسيك عام 2010 وما بعدها وتقارن بينهما. و تعتمد منهجية الدراسة على لسانيات المدونات النصية، نظراً لأن هذا المجال يوفر لنا منهجية وصفية تركز على النوعية أكثر من غيرها. كما استخدمت الدراسة مفهوم فيركلو (Fairclough) ثلاثي الأبعاد لاستكشاف الاستراتيجيات الخطابية التبريرية التي تستخدمها المنظمات لتضفي الشرعية على العمليات التي تقوم بها بعد استشعارها وقوع الكوارث.

المقدمة

تركز لسانيات المدونات النصية (Corpus linguistics) على "دراسة اللغة بالاعتماد على أمثلة من الاستعمال اللغوي الحي الحقيقي" (McEnery & Wilson ، 1996). ولدراسات لسانيات المدونات النصية نوعان: الأول منهما يسمى الدراسات الوصفية للمدونات النصية، حيث يجتهد الدارس في البحث عن الأنماط اللغوية المتكررة في اللغة. أما النوع الثاني فيجتهد الباحث كذلك في أن يستنبط الأنماط اللغوية في اللغة ليس لمجرد الوصف، وإنما ليفسر كيف أن اللغة التي يستخدمها الناس في سياق اتصالي يتفاعل فيه أكثر من طرف تساعدهم في رسم صورة الواقع أو العالم الذي يعيشون فيه. وهذا البحث يندرج تحت النوع الثاني من دراسات المدونات النصية، إذ نطبق فيه لسانيات المدونات بوصفها أداة منهجية لفهم عملية بناء الخطاب. ونحن هنا نسمي لسانيات المدونات "أداة منهجية"؛ لأنها تضمن لنا منهجية وصفية تركز على النوعية بمساعدة كم هائل من البيانات اللغوية الواقعية المأخوذة من نصوص حقيقية غير مختلقة وكذلك بمساعدة برمجيات مختلفة للمدونات بالإضافة إلى أدوات تحليل إحصائية. ولكن كما يذكر بيبر (Biber, 1998) فإن البحث المستند إلى لسانيات المدونات (دراسات لسانيات المدونات التطبيقية) لابد أن يعتمد على الأساليب الكمية (quantitative techniques) ومنهجيات التفسير الكيفي معا (qualitative interpretation frameworks). ومن الدراسات التي تمثل هذا النوع من البحث دراسة أوهالوران (O'Halloran, 2010) فقد حلل مدونة من مقالات

الصحف البريطانية عن المهاجرين، و استخدم في دراسته نظرية التحليل النقدي للخطاب (Critical Discourse Analysis) إطاراً تفسيرياً لها. ومن الدراسات الأخرى التي استخدمت المدونات والتحليل النقدي إطاراً تفسيرياً لها دراسة فيركلو (Fairclough, 1995) للخطاب الإعلامي ودراسة هاجر (Hajer, 1997) للخطاب البيئي ودراسة تشين ولام (Chen & Lam, 2012) للتصور الغربي لهونج كونج بعد عشر سنوات من عودة السيادة للصين عام 1997 بعد أن كانت لبريطانيا، ودراسة باتيا (Bhatia, 1997) للخطاب العام في هونج كونج، ودراسة فانج (Fang, 2001) للخطاب الإعلامي في المطبوعات الإعلامية الصينية، ودراسة فلور ديو (Flowerdew, 2004) عن خطاب العولمة، ودراسات أخرى غيرها لا يتسع المجال لذكرها هنا. كل هذه الدراسات أجرت التحليل الكمي باستخدام مدونات ضخمة عامة، وكذلك باستخدام أدوات وإجراءات خاصة بالمدونات النصية (مثل كلمات البحث، التكرار، الانتشار، الكشاف السياقي). وفي الوقت نفسه استخدم الباحثون في تلك الدراسات التحليل النقدي للخطاب إطاراً للتحليل، وقاموا بتحديد الأنماط اللغوية باستخدام لسانيات المدونات، وذلك لتفسير كيفية استخدام اللغة بوصفها شكلاً من أشكال الممارسة الاجتماعية. وفي الجزء التالي سأستخدم بحثي عن التقارير حول حادثة التسرب النفطي مثالاً أُوَضّحُ من خلاله كيف نجري تحليلاً نقدياً للخطاب باستخدام المدونات النصية.

تحليل تقارير المسؤولية الاجتماعية للشركة

تقرير المسؤولية الاجتماعية للشركات نوع من النصوص نحلله بوصفه خطاباً؛ لأن هذه التقارير تكشف لنا كيف تظهر المنظمات أو المؤسسات هويتها للعامة من خلال خطابها وكيف تنجح في إدارة علاقاتها مع الجهات المعنية بها. ولقد اخترنا تقريرين من هذا النوع وهما تقريرا الاستدامة (Sustainability Review) لشركة النفط البريطانية عن عامي 2009 و 2011. وسبب اختيار هذين التقريرين لهاتين السنتين أنه في عام 2010 أدى التسرب النفطي الذي نجم عن انفجار منصة لاستخراج النفط تابعة للشركة إلى كارثة بيئية كبيرة في خليج المكسيك. لذا نود أن نقارن بين التقريرين اللذين صدر أحدهما قبل الكارثة وصدر الآخر بعدها لنستكشف كيف تستخدم المنظمات استراتيجيات خطابية تبريرية لتضفي الشرعية على عملياتها بعد استشعارها سلسلة الأخطاء التي ارتكبتها. ويبلغ حجم

مدونة (تقرير 2009) 17200 كلمة، وحجم (تقرير 2011) 22620 كلمة. ولقد استخدمت برنامج الكشاف السياقي (WordSmith concordance software) لتحليل المدونتين.

تحليل الكلمات البارزة (keywords):

في برنامج ورد سميث (WordSmith) خاصية تسمى "الكلمات البارزة". واستطعت بإنشاء قائمة للكلمات البارزة أن أستخرج كل الكلمات التي تتكرر إحصائيا في تقرير 2011 أكثر من تكررها في تقرير 2009 و أن أحصرها. وكما تقول بيكر (Baker, 2006) فإن "قائمة الكلمات البارزة تزودنا بمقياس للبروز (saliency) لا التكرار". وانطلاقاً من القيمة الافتراضية الموجودة في برنامج وورد سميث عند $p<0.000001$ استخرجنا من بيانات التقريرين ما مجموعه 13 كلمة بارزة.

الجدول 1
الكلمات البارزة في التقريرين

	الكلمة	التكرار في تقرير 2011	%	التكرار في تقرير 2009	%	درجة البروز
1	تسرب	46	0.20	0		51.74
2	خليج	62	0.27	6	0.03	39.28
3	هورايزن Horizon (اسم المنصة)	27	0.12	0		30.36
4	ديب واتر Deepwater (اسم المنصة)	55	0.24	8	0.05	27.40
5	قوي	18	0.08	0		20.24
6	أضرار كبيرة	14	0.06	0		15.74
7	تحدي	13	0.06	0		14.61
8	معقد	18	0.08	1		14.09
9	طاقة	11	0.05	27	0.16	-12.23
10	حدية	16	0.07	34	0.20	-12.72
11	تقدم	11	0.05	28	0.16	-13.25
12	كفاءة	34	0.15	56	0.32	-13.46
13	أفضل	3	0.01	17	0.10	-15.17

والكلمات الثلاث عشرة مرتبة في الجدول حسب درجة بروزها. ويبدأ مستوى البروز بقيمة عالية تبلغ 51.74 لكلمة "تسرب"، و تنخفض القيم تدريجياً حتى تصل إلى 14.09. و بعد الكلمة الثامنة "معقد" تبدأ قيم درجة البروز في الارتفاع تارة أخرى. و تصل درجة بروز آخر كلمة "أفضل" إلى 15.17. والسبب في ذلك أن نصف الجدول (من الكلمة رقم 1

إلى الكلمة رقم 8) يُبيّن الكلمات التي تتكرر في تقرير 2011 أكثر من تقرير 2009 في حين أن النصف الثاني من الجدول (من الكلمة 9 إلى الكلمة 13) يُبيّن الكلمات التي تتكرر في تقرير 2009 أكثر من تقرير 2011. والعمود الثالث يقدم لنا تكرارات كل كلمة ظهرت في تقرير 2011 بينما يظهر العمود الرابع النسب المئوية للكلمات البارزة فيه. أما العمودان الخامس والسادس فيقدمان تكرارات الكلمات البارزة في تقرير 2009 ونسبها المئوية فيه.

فرز صفوف الكلمات البارزة في الكشاف السياقي

الكشاف السياقي (concordance) عبارة عن قائمة تحصي مرات وقوع مفردة بعينها نبحث عنها في مدونة نصية ويظهرها في كافة سياقاتها التي وقعت فيها. كما يطلق على "الكشاف السياقي" أحيانا "كلمة البحث في سياقاتها" (key word in context or KWIC). وكلمة البحث (key word) هنا تشير إلى الكلمة التي نبحث عنها و ندرسها في مدونة نصية و تختلف عن الكلمة البارزة (keyword) التي ناقشناها في الجزء 1.1. و باستخدام الكشاف السياقي "ورد سميث" أجريت بحثاً عن الكلمات البارزة في التقريرين. فوجدت – كما يُبيّن الجدول 1– أن الكلمات الأربع الأولى التي سجلت قيماً عالية في تقرير 2011 دارت كلها عن حادثة التسرب النفطي من منصة ديب واتر هورايزون (Deepwater Horizon) التي وقعت عام 2010. وكما نعرف، فإنه في عام 2010 انفجرت منصة لاستخراج النفط تابعة لشركة النفط البريطانية وتسرب منها آلاف الجالونات من النفط الخام في خليج المكسيك، مما تسبب في حدوث أخطر كارثة بيئية في التاريخ. فلا عجب إذن أن هذه الكلمات الأربع تبقى ذات قيم عالية في قائمة الكلمات البارزة. وإذا أمعنا النظر في قائمة الكشاف السياقي لعبارة "ديب واتر هوريزن" فلن يصعب علينا أن نكتشف أن الشركة تصف تسرب النفط في خليج المكسيك بأنه حادثة؛ أي أن الشركة كانت هي الضحية التي يجب أن تحظى بتعاطف الناس وليس بانتقادهم.

الجدول 2

قائمة الكشاف السياقي لعبارة "ديب واتر هوريزن"

	الكشاف السياقي		
1	في التحقيقات التي أجرتها شركة النفط البريطانية عقب حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و الخليج.
2	تتابع ردة فعل شركة النفط البريطانية تجاه حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	من خلال
3	تقرير الإدارة عقب حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و بدأنا
4	الهيئة الوطنية حول حادثة تسرب النفط من	منصة ديب واتر هورايزن	التابعة لشركة النفط البريطانية
5	لتبادل الدروس المستفادة من حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و
6	التجربة. فمثلا بعد حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	قمنا بـ..
7	من التحقيقات الداخلية التي أجرتها شركة النفط البريطانية حول حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	قام المقاولون
8	و في الأضرار المباشرة لانفجار	منصة ديب واتر هورايزن	قامت شركة النفط البريطانية
9	تقرير بلاي عن حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	قامت شركة النفط البريطانية
10	انبعاث الغازات الدفيئة التي لها علاقة بحادثة	منصة ديب واتر هورايزن	أو ردة الفعل تجاها
11	استنتاجات من التحقيق في حادثة تسرب النفط من	منصة ديب واتر هورايزن	في عام 2010
12	و التحقيقات في الحوادث و من بينها حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و
13	لتبادل الدروس المستفادة من حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و
14	الإجراءات القانونية. و ترمي التحقيقات في حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	للتخطيط لـ
15	للموارد الطبيعية و التي نتجت عن حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و عن
16	بأنهم كانوا سيشتركون لو أن حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	لم
17	الأحداث من فئة C في فبراير عام 2010 قبل أن يبدأ تسرب النفط من	منصة ديب واتر هورايزن	
18	تم رفعها إلى نسبة أعلى منذ حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	و تسرب النفط منها
19	مجموعة مستثمري الكنيسة منذ حادثة تسرب النفط من	منصة ديب واتر هورايزن	و
20	من التحقيقات الداخلية حول حادثة	منصة ديب واتر هورايزن	من أجل

الشكل 1
الملازمات اللفظية المصاحبة لكلمة "strong"

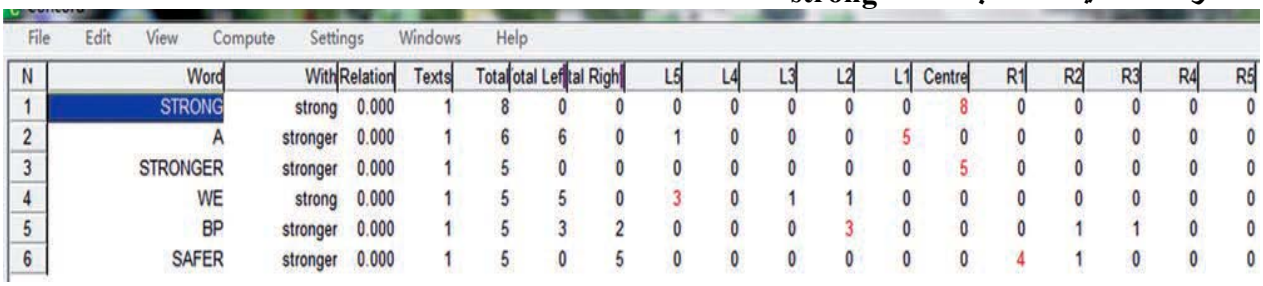

File Edit View Compute Settings Windows Help

N	Word	With	Relation	Texts	Total	otal Left	tal Right	L5	L4	L3	L2	L1	Centre	R1	R2	R3	R4	R5
1	STRONG	strong	0.000	1	8	0	0	0	0	0	0	0	8	0	0	0	0	0
2	A	stronger	0.000	1	6	6	0	1	0	0	0	5	0	0	0	0	0	0
3	STRONGER	stronger	0.000	1	5	0	0	0	0	0	0	0	5	0	0	0	0	0
4	WE	strong	0.000	1	5	5	0	3	0	1	1	0	0	0	0	0	0	0
5	BP	stronger	0.000	1	5	3	2	0	0	0	3	0	0	0	1	1	0	0
6	SAFER	stronger	0.000	1	5	0	5	0	0	0	0	0	0	4	1	0	0	0

ومن خلال الشكل 1 يمكن أن نرى أن كلمة "قوي" تتلازم مع كلمة "نحن" وأن صيغة التفضيل منها "أقوى" تتلازم مع كل من: تنكير الاسم و"أكثر أمنا" واسم الشركة "شركة النفط البريطانية". والمتلازمات الرئيسة تشمل التالي: "تجعل الشركة أقوى"، "شركة أكثر أمنا"، "نقوم بعمليات آمنة وقوية"، "نحن نولي تركيزاً قوياً"، "نضع أسساً قوية"، "نشعر شعوراً قوياً بالمسؤولية"، "نتوقع نمواً قوياً". وإذا تفحصنا قائمة الكلمتين "قوي" و"أقوى" في الكشاف السياقي استطعنا تفسير الرسالة التي توصلها قوائم الكشاف بهذه الطريقة: "لقد تعلمت الشركة (نحن) الكثير من هذه الكارثة ولذا سنكون أقوى في المستقبل". وبهذا المعنى، فإن دور الكلمتين من خلال كونهما مصدرا للتقييم الإيجابي للحدث ومصدراً للحكم الأخلاقي على تصرفات الشركة لا ينحصر في مساعدة المنظمة على الدفاع عن نفسها فحسب في مواجهة الأزمة، وإنما تؤديان وظيفة أخرى هي الدعاية للمنظمة من خلال ثنائها على نفسها.

الجدول 3
قائمة كلمتي "قوي" و "أقوى" في الكشاف السياقي

	الكشاف السياقي		
1	بطريقة مسؤولة و دائمة، لتكون شركة النفط البريطانية	أقوى	و أكثر أمنا
2	تقرير الاستدامة. 2011 بناء شركة	أقوى	و أكثر أمنا. كانت 2011 سنة
3	بعزم كبير على جعل شركة النفط البريطانية شركة	أقوى	و أكثر أمنا. و لقد وضعنا ثلاثة
4	عمل موظفونا بجد لجعل شركة النفط البريطانية شركة	أقوى	و أكثر أمنا. و نحن ندرك
5	الإجراءات التي تم اتخاذها لجعل شركة النفط البريطانية شركة	قوية	و آمنة. و لدى الناس
6	لكن نرجح أن يكون التوجه العام هو زيادة	قوية	في الطلب على الطاقة
7	و بالتالي استطعنا تقديم عمليات آمنة و	قوية	و إدارة المخاطر من
8	الشيكات والأرصدة. ونولي تركيزاً	قويا	على الشيكات و الأرصدة
9	خطط عملية لتقليص المخاطر و تقديم أداء	قوي	و مستمر
10	تشدد عليها التكنولوجيا و العلاقات. والأداء المالي	القوي	أمر مهم و أساسي
11	نحن شركة النفط البريطانية. نحن نضع الأسس	القوية	لنجعل الشركة مكانا أكثر أمنا
12	النمو في الدول النامية. ونحن نشعر شعورا	قويا	بالمسؤولية للمساعدة في تلبية
13	نتوقع استمرار نمو	قوي	في أكبر

ويمكن تصنيف الكلمات التي تعبر عن آرائنا وفق نظرية التقييم (appraisal theory) إلى كلمات تعبر عن آرائنا في تصرفات الآخرين وشخصياتهم وفق البعد الأخلاقي (judgment)(الحكم) أو آرائنا في الأحداث أو الأشياء وفق البعد الجمالي (appreciation) (التقييم والتقدير) أو كلمات تعبر عن آرائنا بناء على مشاعرنا أو حالتنا العاطفية أو الانفعالية (affect). وفي تقرير 2011 وجدنا ثلاث كلمات أخرى تنتمي إلى فئة التقييم والتقدير، وتكررت في هذا التقرير بنسبة كبيرة جداً مقارنة بتقرير 2009. وهذه الكلمات هي: "أضرار كبيرة" و"التحديات" و"معقد". وتكشف لنا نظرة فاحصة إلى هذه الكلمات الثلاث باستخدام أداة "كلمة البحث في سياقاتها" (key word in context or KWIC) تكشف عن أن هذه الكلمات استخدمت لتقييم الصعوبات التي ينبغي لصناعة النفط أن تواجهها بشجاعة: إن صناعة البترول مجال خطر ولذا من الصعب جداً علينا أن نوفر الطاقة لتلبية الاحتياج المتزايد دوماً بطريقة آمنة ومتميزة بالكفاءة.

الجدول 4
قائمة كلمة "التحديات" في الكشاف السياقي

	الكشاف السياقي		
1	بلغت	التحديات	مستوى لا يمكن معه إلا أن
2	ليكون الاختيار حكيما. و لقد قلصت	التحديات	الاقتصادية العالمية تركيز
3		التحديات	المتعلقة بالأمور اللوجستية و البنية التحتية و التكاليف. و المخاوف
4	يخلق	تحديات	هندسية و تقنية عديدة. و الاحتياطي من البترول و الغاز
5	تغير المناخ. و التصدي لموضوع	التحديات	العالمية المتعلقة بتغير المناخ سيتطلب
6	و تخلق البيئة بعض	التحديات	الخاصة أمام عمليات البترول و الغاز
7	ساعدتنا على أن ندرك	التحديات	و نتصدى لها
8	و يمكن للموظفين مساعدة	التحديات	و يسرعون أو يتدخلون
9	العديد من الشركات وقعت على احتجاجات و	تحديات	برعاية من
10	بعد	تحديات	تتعلق بالإجراءات. و لكن الأمر كان
11	ليستمر ارتفاعها، و	تحديات	الطاقة العالمية آخذة في
12	أمن الطاقة يشكل	تحديا	بحد ذاته أكثر من
13	قضايا بيئية. و	تحديات	الطاقة بالإضافة إلى الطلب عليها
14	و	التحديات	التقنية و البيئية و الاجتماعية التي أمامنا في كل مجال
15	مستقبل الطاقة. و	تحديات	اليوم هي الوفاء بـ
16	و التصدي لـ	تحديات	الطاقة العالمية يتطلب خليطا متنوعا من أنواع الوقود
17	و	التحديات	التي تنطوي على التنقيب في المياه العميقة في بحر الصين الجنوبي
18	ستكون ضرورية من أجل التصدي لـ	التحديات	المتعلقة بأمن الطاقة
19	لدينا قناعة بأنه لا يمكن مجابهة	التحديات	المتعلقة بالطاقة على مستوى العالم
20	و	التحديات	المتعلقة بالأمور اللوجستية و البنية التحتية و التكاليف التي تطرحها

أما بالنسبة لكلمة "معقد" فلم نجد سوى الجملة التي في السطر الخامس تتحدث عن حادثة تسرب النفط. وإذا وضعنا الجملة في سياق أكبر وجدنا أنها عن نتائج التحقيق الذي قامت به جهات خارجية: "هذه الحادثة معقدة لأن لها عدة أسباب وتورط فيها عدة أطراف". لذا فإن كلمة "معقد" التي تظهر لنا تقييماً سلبياً يمكن تفسيرها على أنها صياغة تبريرية تصب في مصلحة الشركة.

الجدول 5
قائمة كلمة "معقد" في الكشاف السياقي

	الكشاف السياقي		
1	كان الموقف	معقدا	حيث كان منسوبو شركة النفط البريطانية
2	بالنسبة للحادثة، و ليس سلسلة	معقدة	و متداخلة من
3	و تواجه قوانين بيئية متنوعة و	معقدة	في بعض الأحيان
4	هذه الإجراءات تشمل دعوى قضائية	معقدة	كانت بشكل كبير
5	و بالتحديد أن تلك كانت حادثة	معقدة	اجتمع فيها عدة عوامل
6	الإجراءات القانونية حول الحادثة	معقدة	و الصورة الدقيقة تشكل
7	نحن نعي أننا نعمل في مناطق	معقدة	سياسيا

والعبارة الأخرى التي تجذب الانتباه هي "أضرار كبيرة". وكما هو الحال مع كلمة "معقد"، فلم تستخدم "أضرار كبيرة" على أنها تقييم سلبي لتصوير أي أضرار نتجت عن الحادثة. وإنما تتلازم مع كلمة "محتمل"، يريدون بذلك القول بأن "صناعة البترول صناعة خطرة ولا يمكن تجنب الأخطاء فيها. لذا – وبعبارة أخرى– فقد تعلمنا الكثير من خلال حادثة انفجار منصة النفط عن كيفية التعامل مع الأخطار وإدارتها في المستقبل. ولكن الأخطار في بعض الأحيان حتمية ولا يمكن تجنبها".

الجدول 6
قائمة عبارة "أضرار كبيرة" في الكشاف السياقي

	الكشاف السياقي		
1	المخاطر الكبيرة الناتجة عن الحوادث و غيرها من المخاطر التي يحتمل أن ينتج عنها	أضرار كبيرة	و
2	المراقبين البيئيين لأنشطة معينة من المحتمل أن ينتج عنها	أضرار كبيرة	و في نطاق
3	سلسلة الإمدادات التي تنطوي على نشاطات من المحتمل أن ينتج عنها	أضرار كبيرة	و
4	التي تستخدم المقاولين في نشاطات من المحتمل أن ينتج عنها	أضرار كبيرة	و الـ
5	سلسلة الإمدادات التي تنطوي على نشاطات من المحتمل أن ينتج عنها	أضرار كبيرة	و
6	و منها السيناريوهات التي يقل احتمال حدوثها و لكن لها	أضرار كبيرة	و

أما الكلمات الخمس البارزة في النصف الثاني من القائمة، فقد تكررت أكثر في تقرير 2009. وهي: "الطاقة" و"الحدية" و"تقدم" و"كفاءة" و"الأفضل". وباستخدام نظام التوسيم الدلالي الآلي (automatic semantic annotation system) لإدراج معلومات دلالية على تقرير 2009 صنفنا الكلمات الأربع "الحدية" و"تقدم" و"كفاءة" و"الأفضل" من الكلمات الخمس السابقة على أنها (تقييم إيجابي)؛ أي أنها عبارات تقييم للذات إيجابية دلالياً. وإذا نظرنا إلى الجمل التي وردت في الكشاف السياقي والتي تحتوي على هذه الكلمات التي صنفت على أنها عبارات تقييم إيجابية للذات، استطعنا أن نرى أن الشركة تحاول أن تصور نفسها على أنها شركة ذات أخلاقيات و قادرة و مسؤولة ورائدة في مجال صناعة النفط. والجدول التالي يبين الجمل التي تحتوي على عبارات تقييم إيجابية للذات في تقرير 2009 مع أن بعض الكلمات فيها ليست من الكلمات البارزة، و لكنها تنتمي إلى الفئة الدلالية نفسها. و تقول بيكر (2006) إن اكتشاف الفئات الأساسية في المدونة النصية يمكن أن يساعد الباحث على اكتشاف الأسلوب الفريد للنص ومعانيه الناتجة عن تفاعل عناصره (semantic prosodies).

الجدول 7
قائمة بكلمات التقييم الإيجابي للذات في الكشاف السياقي

	الكشاف السياقي		
1	في إنتاج مواردها. و نطبق مهاراتنا	الحدية	في مجالات جديدة
2	لدينا ثلاثة من أكثر مشاريع العالم	تقدما	في مجال استخراج الكربون و تخزينه
3	و تقود الشركة عمليات تتميز بالابتكار و	الكفاءة	و المسؤولية
4	و التركيز على المجالات الأربعة المهمة يمثل	أفضل	سبيل للتقدم فيما يتعلق بـ....
5	و الأصعدة الدولية. و نحن نقوم باستغلال	فعال	للموارد و الشبكات
6	أخذ خطوات عملية لنضمن أن تكون الشركة مبنية على	التنوع	و تتسع للجميع و لا تقصي احدا
7	الشركة تقدمية و مسؤولة و تتميز	بالابتكار	و تعتمد على الأداء

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة – على نحو ما رأينا – كيفية القيام بتحليل الخطاب باستخدام أدوات تحليل المدونات النصية، والتي اخترنا منها أداتي "قوائم الكلمات البارزة" و"قوائم الكشاف السياقي". وقائمة الكلمات البارزة التي استخلصناها من المقارنة بين النصين القصيرين اللذين ناقشناهما، تمكننا من أن نستنبط عدداً من الفروق اللفظية المهمة قبل الكارثة البيئية وبعدها. ومن خلال فرز قوائم الكشاف السياقي التي تحتوي على هذه الكلمات البارزة تظهر لنا السياقات التي تقع فيها هذه الكلمات. بيد أن الأنماط التي استنبطناها من السياقات ما زالت تخضع لتفسيرات الباحثين. لكن النتائج الكمية المستخلصة من برنامج تحليل المدونات النصية تساعد في التغلب على التحيز الذي ينتج عن تفسيرات الباحثين غير الموضوعية. وكل الكلمات التي تكرر وقوعها في تقرير 2011 استخدمت لمساعدة الشركة على إضفاء الشرعية على عملياتها وقراراتها الإدارية. وبتطبيق مفهوم فيركلو 1992 ثلاثي الأبعاد فإن الخطاب نص وممارسة خطابية وممارسة اجتماعية. وبهذا المعنى يصبح تقرير المسؤولية الاجتماعية للشركة نصا بذاته يمكن تحليله وفق منهج لغوي. ويمكن للباحثين الحديث عن أنماطه اللغوية ومعانيه الناتجة عن تفاعل عناصره وأساليبه البلاغية. وهذا النوع من التقارير يُعَدُّ كذلك ممارسة خطابية. ومن خلال هذه الممارسة تكشف الشركة عن الآثار الاجتماعية والبيئية والقانونية الناجمة عن ممارساتها في عملياتها. وفي الوقت ذاته هو ممارسة اجتماعية تتناول الشركة من خلالها مخاوف القراء ممن يمكن أن يكون لديهم اهتمام بعملياتها، وترفض النقد الموجه لها لا سيما إذا صدر بعد كارثة بيئية. وفي مواجهة كارثة بيئية كبيرة توظف الشركة مواردها الاتصالية لتصور نفسها على أنها مصدر لا غنى عنه لتوفير الطاقة لكل العالم وأنها من الناجين من الكارثة، وأنها مثل تلميذ يحسن الاستفادة من الدروس ويجيد التعلم منها.

العولمة في الأدب العربي الحديث

شراكة أم اشتباك؟[1]

تأليف: أ.د. محسن جاسم الموسوي

ترجمة: أ. مريم عبد الله المفضي

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم الترجمة

[1] أصل هذه الدراسة هو: "ENGAGING GLOBALIZATION IN MODERN ARABIC LITERATURE: APPROPRIATION AND RESISTANCE" لمؤلفها Muhsin al-Musawi و قد نشرت عام 2007 في مجلة Modern Language Quarterly 68:2.

هــناك الكثير مما يدعم الفرضية القائلة بأن خطاب العولمة الاستعمارية الجديدة يشمل بل يتجاوز العديد من السجلات التأديبية ، كما أنه يستعمل نظرية ما بعد الاستعمار بشكل كبير، ويظهر ذلك بوجه خاص لدى واضعي النظريات الذين يركزون على التهجين والهجرة.[1] وعلى الرغم من ذلك تستمر الهويات الوطنية المميزة في الظهور وتأكيد الذات، مما يثير التساؤلات والشكوك الحقيقية بشأن الوعود المصاحبة للحوار حول التنوع العالمي. إن تحفظ إيلا شوحط (Ella Sho-hat) فيما يتعلق باستخدام مصطلحات مثل التوفيقية (*syncretism*) والتهجين عالقة في أذهان العديد من المفكرين في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ويهود المهجر ؛ فإذا لم "يُنص عليها مقترنة بالتساؤلات حول الهيمنة وعلاقات القوى الاستعمارية الجديدة، فإن [الاحتفاء بها] يحمل خطر الظهور بمظهر إقرار عنف الاستعمار كأمر واقع لا مفر منه."[2] إن حوار العولمة يكمن في سردين متنافسين : أحدهما حوار احتفاء ، والآخر حوار أزمة" (جايكاندي، 629)، كما يتبعها حوار معارض مدعوم دعمًا جيدًا والذي يوضّح "ظاهرة غريبة" ذات أبعاد عالمية تحت لواء "التنويع،" كما يسميها بطل رواية اللجنة (1992) الذي لم يذكر اسمه ، للروائي والمفكر المصري، صنع الله إبراهيم.[3] تهيء الطبيعة المحاكية والنزعة التفكيكية الواضحة لهذا الخطاب المعارض الجو لزيادة الحجم والقوة الانتقادية للأدب بالرغم من الجهود الكثيرة لخفضها.[4] وهناك توجه قوي عرفته فترة ما بعد الاستعمار لإطلاق سراح الأدب من قيود القواعد والعقائد المحددة في أدب أمريكا اللاتينية ، وآسيا ، وأفريقيا ، وفي الأدب العربي الحديث بوجه خاص. وفي الوقت نفسه يسعى هذا التوجه إلى إشراك الأدب بصورة أفضل في العولمة بأشكالها الكثيرة السلبية والإيجابية.

1. انظر مناقشة سايمون جيكاندي في مقالة "العولمة ودعاوى مابعد الاستعمار" وعنوانها الانجليزي"Globalization and the Claims of Postcoloniality" دورية ساوث أتلانتك كوارترلي (South Atlantic Quarterly) 100 (2001) .30 – 629

2 إيلا شوحط (Ella Shohat) ، "ملاحظات حول النص الاجتماعي 'مابعد الاستعمار'" العنوان الإنجليزي "'Notes on the'Postcolonial" مجلة النص الإجتماعي (*Social Text*) عدد رقم 4. .109:(1992) 32 – 31

3 صنع الله إبراهيم رواية اللجنة. مترجمة للإنجليزية (The Committee). ترجمة ماري ساينت جرماين وتشارلز كونستابل (Mary St. Germain and Charlene Constable)، سيراكيوز، نيويورك: مطبعة جامعة سيراكيوز، 2001 (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2001) ، 126، 124؛ اللجنة (الدرا البيضاء ، عيون المقالات) ظهر الفصل الأول في المجلة الفصلية الفكر المعاصر (Contemporary Thouaght) في مايو 1979.

4 انظر كيف يبين إبراهيم صنع الله الجهد المتواصل لإيقاف بحث بطل الرواية على وجه التحديد (69 – 70، 76 – 77، 132).

أ.د. محسن جاسم الموسوي أستاذ الدراسات العربية والمقارنة في جامعة كولومبيا. تشمل مؤلفاته الأخيرة: الإنجليزي الشرقي (*Orient-Anglo*, 2000)، الرواية العربية ما بعد الاستعمار: *مناقشة الازدواجية* (The postcolonial Arabic Novel: 2003, Debating Ambivalence) ، الشعر العربي: *مسارات الحداثة والتقاليد* (Arabic 2006, Poetry: Trajectories of Modernity and Tradition) ، قراءة العراق: *الثقافة والسلطة أثناء النزاع* (Reading Iraq: Culture and Power in Conflict, 2006) ، نسخة من ألف ليلة وليلة (The Arabian Nights, 2007) ، المرجعية الإسلامية لحكايات ألف ليلة وليلة (*The Islamic Context of the Arabian Nighs*, 2007)، وكتاب *اسلام الجمهور* ، وكذلك كتابه الجديد *جمهورية الأدب في العصر الوسيط: التكوين العربي للمعرفة*. كما أنه رئيس التحرير لمجلة الأدب العربي المكتوبة باللغة الإنجليزية (*Journal of Arabic Literature*) وتلقى العديد من الجوائز منها جائزة العويس في النقد الأدبي، أرفع الجوائز غير الحكومية في العالم العربي.

إن العولمة، والتي تعد بلا شك قفزة كبيرة في مجال العلوم والتقنية، تتجلى في عصر تطغى عليه رؤوس الأموال ، التي تحمل أهدافًا وجداول أعمال قد تضر بالمجتمعات والثقافات. يصف هومي بابا (K.Bhabha Homi) ،بناء على نقد جوزيف ستيغليتز (Joseph Stiglitz) ، الحالة كواقع اقتصاديات ثنائية تسهم في "تكوين عوالم متفرقة تختفي فيها الظروف المتفاوتة وغير المتكافئة لتطور العوامل الكامنة واسعة الانتشار للفقر وسوء التغذية المتواصلين، والطبقية والظلم العنصري، والأضرار الخفية للطبقية، واستغلال عمل المرأة ، و اضطهاد الأقليات، واللاجئين."[1]

لكن القصة تحمل في طياتها ما هو أبعد من روايات وسائل الإعلام عن الحروب والعنف، والتي تنفّذ في بعض الأحيان تحت راية الأمم المتحدة المُكرهة، وهذا ما نجده في الأدب. على سبيل المثال، في السرد الساخر في رواية (سلطان النوم) (1994)، يعبّر الروائي الأردني مؤنس الرزاز عن تغلب عاصفة العجاج الرملية مجازيًا بالرمال الجارفة التي تكتسح كل مكان بما في ذلك غرفته. ينشر الأدب سمات وعلامات العولمة أكثر من أي علم

1 هومي بابا (Homi K. Bhabha) مقدمة رواية المعذبون في الأرض , (The Wretched of the Earth) لفرانز فانون , (Frantz Fanon) ترجمة ريتشارد فيلوكس (Richard Philcox) نيويورك .xii (New York Grove, 2004)

آخر وبضمنه الجهد الكبير لعلماء الاجتماع ، لكنه أيضا يصنع حوارًا عكسيًا يثري السجلات القديمة، ويوسّع الآفاق أمام سجلات جديدة. في الصفحات القادمة سأستخدم رواية (اللجنة) لصنع الله إبراهيم نصاً أساسياً تتحلّق حوله النصوص الأخرى. إن رواية اللجنة، لاسيما تركيزها على "استعمار الكولا" و"توحيد المقاييس الثقافية على مستوى العالم" تحمل معاني عميقة للدراسات الثقافية.[1] شأن العديد من الأعمال المكتوبة بالعربية. وينبغي ألاّ يقتصر الاهتمام برواية اللجنة على دراسة الاستعمارية القديمة ، والعولمة الاستعمارية الحديثة ، والدول القومية ، والهوية ، والأنماط الاجتماعية والاقتصادية ، والتكهنات والتوقعات . بل ينبغي أن يشمل قراءة المخيلة الوطنية ، وتلك التي تتعدى الحدود الوطنية ، إلى جانب انتشار صور ومصطلحات معينة.

وبينما تؤكد هذه المقالة الارتباط الوثيق لرواية (اللجنة) بالتوجهات والاقتباسات المناسبة في الأدب العربي الحديث، فهي تلفت الانتباه نحو المحاباة متعددة الأشكال لدى النظام العالمي، وعلى وجه التحديد ظهور المناطق المتطورة تقنيًا ، والفضاء الإلكتروني ، والإنترنت والتي تتحدى تحديًا قويًا التصنيفات القديمة للزمان والمكان والحدود والقيود منذ ستينيّات القرن العشرين. إن السياق الأدبي العربي للمراحل التقنية ومراحل الفضاء الإلكتروني في النظام العالمي الجديد لا ينفي الارتباط التاريخي بين الإمبراطوريات والتوسع الثقافي، كما ذكر جوناثان فريدمان (Jonathan Friedman) في سياق آخر ، كما أنه لا يقلل من ذهول مفكري العرب في أوائل القرن العشرين عند التعامل مع الغرب.[2] فحتى عام 1944 لم يكن إسماعيل بطل رواية (قنديل أم هاشم) ، للقصصي يحيى حقي أقل خوفًا من أمه التي تتخيل "المناطق الأجنبية" كنهاية سلم طويل ينتهي بأرض مغطاة بالثلوج يسكنها أُناس يجيدون حيل الجن وخدعه.[3] ولاشك أن الصور المعاكسة الشائعة لدى الغرب في تلك الفترة لا تقل سذاجة في تصويرها الإمبريالي ، إلا أن نظامًا آخر بكل مصالحه الثابتة، واستراتيجياته، وتطبيقاته، وتوقعاته، آخذ في الظهور في أعقاب الحروب والحروب الباردة،

1جان نيديرفين بيترز (Jan Nederveen Pieterse) "العولمة كوسيلة للتهجين" العنوان الانجليزي "Globalization as Hybridization" منشور في كتاب الحداثات العالمية (Global Modernities) تحرير مايك فيذرستون ، وسكوت لاش ، ورونالد روبرتسون(Mike Featherstone, Scott Lash, and Roland Robertson) ، (London: Sage, 1995)

2 جوناثان فريدمان (Jonathan Friedman) ، "النظام العالمي والعولمة ومقاييس الحداثة" العنوان الانجليزي " Global System, Globalization, and the Parameters of Modernity" تحرير Featherstone, Lash, and Robertson

3 يحيى حقي (Yahya Haqqi) ، قنديل أم هاشم وقصص أخرى (The Lamp of Umm Hashim, and Other Stories) ، ترجمة دينيس جوناثان ديفيس (Denys Johnson-Davies) (القاهرة: منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 2004)

وموت النظام الاستعماري القديم ، وولادة العديد من الدول ، وإخضاع أخرى، إلى جانب عودة القومية الوطنية ، أو الحركات الإسلامية المسلحة (أمثال جماعة الإخوان المسلمين، التي قام أعضاؤها الشباب في عام 1981 باغتيال الرئيس أنور السادات رئيس مصر، ومصمم اتفاقية السلام مع إسرائيل، وسياسة الاقتصاد الحر، والتخلي عن القومية).و في الأدب العربي، تعد الحداثة غير عابئة بالدين إن لم تكن نافية له ، وغالبًا ما تعد علمانية أو لا أدريّة. مما يفسر هبوط شعبية الحداثة حاليًا في العالم العربي، وذلك مقارنة بجاذبيتها الشديدة خلال النصف الأول من القرن العشرين. هذا الهبوط يفسر ردود الفعل المتفاوتة للعرب ازاء النظام العالمي، ومعارضتهم التامة لمواقع القوة فيه ، إلى جانب اهتمامهم بإنجازاته التقنية واستخدامه، وبخاصة الإنترنت والأقمار الصناعية ، حيث يساعد كل من الإنترنت والأقمار الصناعية على الوصول إلى الجماهير الغفيرة ، ومعلوم أن قوى متضاربة تسيطر على كليهما. قد وجد الكتّاب ، في الفترة الأخيرة ، أنهم لا يقلّون عن غيرهم في استخدام كل من هاتين الوسيلتين الإعلاميتين، كما أنهم لا يقلون في اشتراكهم في صنع الصور والاختراعات الجديدة وابتكارها.

النصوص كمصانع للصور

تزداد شعبية النصوص الأدبية والثقافية بصفتها مصانع مستديمة للصور في حقل العلوم الاجتماعية ؛ وذلك لأنها تمتاز بأنها تعد سهلة المنال، كما أنها تحافظ على دور الكاتب مفكرًا نيابة عن الناس. ويُحتفى في آسيا، وأفريقيا و أمريكا اللاتينية، والعالم العربي على وجه التحديد بالكتّاب لحضورهم الشعبي والفكري.[1] بيْد أن السرديات الأدبية تسمح لأصوات متعددة ، وخطابات ، ووجهات نظر بالتنافس بطرق أقل حدة وعدوانية عما نجده في نظام العالم الجديد. وعلى سبيل المثال، في "*شطح المدينة*" (1991)، للكاتب المصري جمال الغيطاني، يخشى بطل الرواية على هويّته في مركز دائم التغيير، لكنه مستحوذ حضاريا و لا إنساني. هذا بالرغم من أنه ينعم بالحرية الآن بعد سنين من السجن في وطنه. لذا يتمسك "بجوازه وتذاكر سفره"[2] بقوة. وحتى عندما يعني الوطن السجن

1 انظر مناقشة هذا الموضوع عند تطبيقه على الشعر لدى محسن جاسم الموسوي. الشعر العربي : مسارات الحداثة والتقاليد (Arabic Poetry: Trajectories of Modernity and Tradition) (Routledge, 2006)، 1 – 3.

2 جمال الغيطاني ، شطح المدينة (القاهرة ، درا الشروق ، 1991) 9 .

والاضطهاد، يغمره الوسط العالمي بشعور "الغربة" الكاملة وأن "هويته مبددة" (192).[1] وفي مؤتمر يناقش التنوع والعولمة يقف في صف الأفريقي الذي يتبنى وجهات نظر حول الاستقلال الوطني يعارضها أنصار النظام الشامل.

وأثناء مغادرة قاعة المؤتمر ، صُدم بأن أوراق إثبات هويته قد سرقت ، وأن أوراقه الثبوتية صودرت. ولا يمكنه أن يتمتع بالمزايا التي يوفرها النظام العالمي إلا عندما يكون حرا من شباكه ؛وبكلمة أخرى فقد ترك النظام الإمبريالي إرثه الهدّام من العنف والرعب للشعوب والثقافات. وأثناء مغادرة قاعة المؤتمر ، صُدم بأن أوراق إثبات هويته قد سرقت ، وأن أوراقه الثبوتية صودرت. ولا يتمتع بالمزايا التي يوفرها النظام العالمي إلا عندما لا تستعبده شبكته ؛ فقد ترك النظام الإمبريالي إرثه الهدّام من العنف والرعب للشعوب والثقافات.

الدولي والعالمي

من خلال النظرة المعارضة للمفكر المهمّش ، تمكننا خاصية تعدد الأصوات في مثل هذه السرديات ، من أن ندرك خفايا خطاب الاحتفاء بالعولمة الذي تستند إليه حول رؤوس الأموال العالمية. وبصفته نصًا قياسيًا في هذا الصدد، يرجّح أن تتألق رواية (اللجنة) على أنها نص عالمي، بيد أنها تبقى نصًا عربيًا يحفل بالإشارات لما بعد الاستعمار وما بعد الحداثة ، والتي تأتي بكامل ثقلها في ضوء خاصية دولة قومية تديرها رؤوس الأموال العالمية منذ وفاة الرئيس جمال عبد الناصر عام 1970. إن إشارتها المباشرة إلى عصر السادات التابع ، بما كان عليه من سياسة الباب المفتوح ، وتخليه عن القومية والاشتراكية الناصرية* تضعها ضمن المفهوم والمرجع القومي والعالمي ، كما تشير إلى نهاية الاتحاد السوفيتي والتحالف المصري الناتج مع حكومة كارتر. إن "اللجنة" مصطلح غامض ينطبق على آلية لاسيما أنها قوة غامضة ، ولغة قد تبدو مقبولة وواعدة لو أنّ هذه الجماعة لم تتدهور إلى نظام قسري يقوم بشدة على سياسة القمع ذات الأبعاد العالمية. ولا تهتم الرواية باتباع أي التزام عقائدي، حيث يقوم بطل الرواية أثناء مثوله أمام اللجنة بأعضائها العسكريين، بفضح تواني خطاب العولمة في ادراج الأسباب العقائدية (الاقتصادية

1 انظر أيضا محسن جاسم الموسوي ، "الرواية العربية مابعد الاستعمار: مناقشة الازدواجية" ، العنوان الإنجليزي " Debating Ambivalence:The Postcolonial Arabic Novel" (Leiden: Brill, 2003), 292.

والسياسية) الكامنة خلف أية ظاهرة وبضمنها السخرية منه. وهكذا، على الرغم من أن حرب فيتنام قد تبدو موضوعًا يستحق النظر في ضوء أسئلة اللجنة، يشير بطل الرواية بسخرية إلى أنها "مداخلات أيديولوجية لا ضرورة لها" (19).

في البداية تطلب اللجنة من بطل الرواية أن يتطرق لموضوع "له صفة العالمية من حيث ماهيته أو دائرة نفوذه ، فضلًا عن قدرته على تجسيد المعاني السامية والخالدة لحضارة هذا القرن." (19) تتكرر هذه المصطلحات غالباً في "لغتهم" (11). وعلى الرغم من أنه يكتشف افتراضاتهم فقط عندما ينشب شجار يشير إلى هزيمته المطلقة : فإن المشهد يذكّر بالطوائف الاستشهادية التي سرعان ما ستنمو في معارضة الغزو المحافظي العالمي المتشدد. حتى في أوج بحثه حول سياسة الباب المفتوح ومصمميها الأساسيين في مصر، وبقية العالم العربي، كان يتصيّد الكلمات والمصطلحات التي تتخلل الخطاب المعولم وهو يتملّص بخفة من ربط خيوط الظاهرة أو تقصي ارتباطاتها الغامضة: "مشكلة هذه الظواهر والألغاز أنها لا تتصل بمجال واحد من مجالات الحياة، وإنما تمتد إلى مجالات متنوعة. ومعنى هذا أن "التنوع" هو طابعها الأساسي". (122)يلقي رئيس اللجنة رثاء معبرًا لعضو يدعى (القصير المكتنز) ، والذي يشتبه في أن بطل الرواية قتله بعد أن أرهبه في حمامه، وفي كل مكان في شقته، وحتى في سريره ، حيث يحمل بين رجليه مسدسا ظن بطل الرواية خطأ أنه [شيء آخر من أعضائه]. ويتكلم الرثاء عن " الإمكانيات التي تراءت في الخمسينيّات ثم قبرت في الستينيّات وأوائل السبعينيّات، لتحقيق أحلام البشرية والقضاء على كافة المخاطر التي تهدد النوع الإنساني،" ويجسد ذلك حسب تعبيره "الحلم القديم، وهو حلم الوحدة الأرضية، أو الولايات المتحدة الأرضية،" حيث "يندمج سكان الكوكب جميعا في *دولة متجانسة*، تحقق لهم الرخاء." (113). لذا فالهجوم على اللجنة يعني في نظر أعضائها، "عمق الخسارة التي أصبنا بها وأصيبت بها قضية الحضارة والتقدم، وقضايا الإشتراكية والسلام والديموقراطية" (113) .بيد أن خطاب الرثاء يستمر قائلًا، بأن اللجنة تدعم " كل ما من شأنه دعم المقومات الأساسية وتعميق الممارسات الحرة" بينما تضع اللجنة نفسها "في خدمة الأهداف الثورية والمبادئ الأخلاقية والقيم الدينية،" وهذا الهدف يثير حفيظة "عناصر الشر والهدم" (114-115). ويجب أن نضع في اعتبارنا هذه العلامات والكلمات الرئيسة لنعقد المقارنات مع الحوار المحافظ المتشدد الذي يُردد مرارًا وتكرارًا كلما كانت

هناك حاجة إلى إسكات النقد أو ترهيب المنتقدين. ويربط الرئيس بين عناصر الهدم هذه وبين "الانقلابات السياسية والمذابح الطائفية والحروب الصغيرة الدائرة على قدم وساق في العالم العربي، بل وبعض حالات الانتحار الغامضة، وحوادث متفرقة لأشخاص اختفوا نهائيًا دون أن يعثر لهم على أثر، وآخرين سقطوا من أسطح البنايات، أو قتلوا في حوادث عرضية للسيارت" (115).

في حين تدل هذه التصريحات على خطاب ذي طابع تسلطي، يوقظ إنكارها المبالغ فيه الشك والريبة. وتؤكد اللجنة مجددًا أن بطل الرواية قد اختار بحرية المثول أمامها، وأنه يمكنه أن يختار أي موضوع يجيب على استفسارات اللجنة، ولكنها تأمره بأن يقف عاريًا في وسط قاعة الاجتماعات، ليتم فحصه بقصد تبين احتمالات العجز الجنسي أو الشذوذ، كما طلبوا منه الرقص أثناء إجابته على الأسئلة. إلى جانب إيقاف بحثه لأسباب لم يفصح عنها. يُكره المفكر ، بوصفه فردًا مستضعفًا في النظام العالمي فيما بعد الرأسمالية ، على التماشي مع اهتمامات اللجنة وحاجاتها ، وذلك عن طريق جهود اللجنة المتعمدة لتحويله إلى مقلّد إمّعه. من السهل القول أن رواية (اللجنة) تستعمل شبكة كافكا (Kafka) الغامضة –التي تنفي الإرادة البشرية وتنزل بالفرد إلى العدم، ولكن هناك ما هو أكثر من شبكة المراقبة الغامضة للجنة في هذه الرواية ؛ فهي تتمحور بدرجة أشد حول البحث الذي يمكّن بطل الرواية من أن يتعرف على طريقة اللجنة في التمويه والتخويف ، كما يساعده على التقليل من حجمها، ومحاكاة طرقها. إنها خطاب مضاد يهدف إلى إعادة توجيه هوية ما لتتماشى مع التحدي الجديد. يوضح بطل الرواية أنه يبحث عن "ألمع" شخصية تمثل العرب ويكون لها دور رئيس ومؤثر في مصر فترة ما بعد الاستعمار وفي العالم العربي. يقوده بحثه إلى شخصية يكتفى بالإشاره إليها "بالدكتور." بيد أن الباحث يُعامَل بصدود أينما حل. فملفات الجرائد والقصاصات تختفي، وكبرى الأرشيفات لا تترك شيئًا ذا بال لبحثه. ولا يتمكن من الاطلاع على تعاملات الدكتور، وزيجاته، واتصالاته، وعلاقاته متعددة الجنسيات إلا عن طريق الأبواب الخلفية ، والمجلات الصغيرة ، ومنشورات أميريكان ويكلي. وفي دورة المياه قال له القصير"بشراسة" بعد أن صادر بعض المعلومات التي حصل عليها : "إن من يتصدى للأمور العامة يفقد حقه في كل خصوصية" (92) وبينما يُسمح له بالتحرك بحرية، حُبست عنه مصادر المعلومات، كما منعت عنه الامتيازات التي يقدمها النظام

العالمي بطرق متقنة وغير واضحة. وتتحول الديموقراطية إلى كلمة فارغة والحرية إلى قفص. لابد من أن يعتمد كل من الفرد والأمة بعد استثارتهم بهذا الشكل على أنفسهم لتكوين الهوية على صعيد الفرد، والجماعة، والأمة، كما يشير إليه المشهد في عيادة الدكتور. قد يصبح الاستفزاز طريقًا لتأكيد متعصب، وإقرارًا للماضوية* والأخلاقيات الاجتماعية، واستعمالًا انتقائيًا لمساحات الفضاء الإلكتروني والتسويقية المعولمة، ولكنه أيضًا يعيد توجيه أزمة الهوية إلى صور أكثر إيجابية.

لمن سيُسمع؟ للعالمي أم للمحلي؟

إن قوة رواية (اللجنة) تكمن إذًا في استراتيجيات السرد وصوره المستخدمة، حيث إن كلًا من الحوار و الرقابة تعمل جنبًا إلى جنب لضمان الخضوع. ويأخذ اختبار عالمية الفرد أولًا شكل الاستجواب، حيث إن أعضاء اللجنة هم محاورو الفرد العاري وسط الغرفة. حتى الحارس الواقف على الباب يعد جزءًا من اللجنة، وهو فرد منوّم مغناطيسيًا ويتجاوب فقط مع إشارات سرية. ويمكن مقارنة هذا الاستجواب مقارنة مثمرة بمشهد المحكمة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال (1966)، للسوداني الطيب صالح. فالراوي وبطل الرواية، مصطفى سعيد، عليه أن يتلمس طريقه في مركز حضاري لا كعضو تابع للنخبة، بل كفرد مستقل تؤهله شهاداته ومنشوراته ليتصرف بدافع إيمانه بنفسه وثقافته. يتكلم عنه المحامون البريطانيون، حتى محاميه الشخصي، في ضوء اعتبارات استعمارية، إما بصفته أحدًا يخيّب أمل التعليم البريطاني، أو بصفته بائسًا حقيرًا يستأهل الرحمة والشفقة. تعد الرواية ذات أهمية بالغة لإنشغالات السرد بالعولمة والاهتمام المبكر بقضايا الهوية تحت ظروف الاستعمار وما بعد الاستعمار. فهناك أولاً الإشارة إلى المدعي العام، السير آرثر هيغينز، الذي درّس مصطفى سعيد القانون الجنائي في جامعة أوكسفورد ، والسير آرثر معروف بأنه "يعتصر المتهمين في قفص الاتهام اعتصارًا"، ونادراً ما "كان يفلت متهم من يده." إلا أنه هذه المرة، "كان يصارع جثة."[1] فمصطفى يعترف بالإقدام على عمل عنيف

*شرح المترجم: النظرة القائلة بأن الماضي والحاضر كليهما مهمّ وأن الحاضر لابد أن يقوم على الماضي.

[1] الطيب صالح ، موسم الهجرة إلى الشمال ، العنوان الانجليزي "Season of Migration to the North" ، ترجمة دينيس جونسون ديفيس (Denys Johnson-Davies) (Heinemann, 1970:London) ، 31، 3

واحد فقط، فهو قام بقتل جين موريس عمدًا، كما يؤكد للسير آرثر. وكما قلت في مكان آخر، هذا الاعتراف ليس اعترافًا بالذنب والخطأ بل اعتراف خلاف ؛ فهو اعتراف يتتبع مسارًا لمزاوجة الحب بالكراهية ، وهو نفسه يحمل جميع الدوافع والعلامات للمُستعمِر والمُستعمَر معًا (الرواية العربية ما بعد الاستعمار ، 198-203). فهناك الرفض والقبول والاعتماد وادعاءات الاستقلال. لذا يصل مصطفى وجين في مشهد جريمة القتل لحالة من الشغف بالاخر ، وهو شغف يعنى ضمناً رضا بالذات.

وهذا ليس النوع نفسه من العنف الذي نراه في رواية اللجنة، حيث إن بطل رواية اللجنة ، لا يشعر بأي وخز في الضمير حول قتل القصير. إن المواجهة في رواية اللجنة ليس لها مقابل، حيث إن جريمة القتل ليست إلا عملًا يائسًا يهدف إلى استعادة الحرية التي اعترضها حضور خانق ومهددٌ بالخطر والذي قد يكون رمزاً إلى النظام الاقتصادي المعولم. في المقابل ، يصف البطل نفسه في مشهد المحكمة في موسم الهجرة ، بأنه شبح وظل ، وربما أراد بتلك الإشارة إلى أنه من نسج مخيلة الاستعمار، أو أنه طيف أنشئ ليلائم عالمًا استعماريًا مانويًا* فحتى محاميه يصفه أمام المحكمة بأنه "عقل عبقري دفعته الظروف إلى القتل، في لحظة غيرة وجنون"(43). ويصف المحامي المشهد بأنه "صراع بين عالمين،" كان بطل الرواية "إحدى ضحاياه"(44). ويقول البطل فيما بعد إن"[المحامين] يتصارعون على جثتي." وبرفضه لتفسيراتهم، أكد مصطفى حواره الخاص باعتباره مواطنًا سودانيًا يشهد له تحالفه التالي مع حياة القرية بأنه طبّق العلم، والاقتصاد، والزراعة ، بما من شأنه أن ينفع قريته، ووطنه. ويأتي التأكيد في لحظة حاسمة بالنسبة للحرية القومية والفردية، والتي يمكن أن تتحول إلى لحظة صعبة جدًا أيضا، لاسيما إذا وقعت الدولة القومية في أيدي ملّاكها الجدد، بتعبير فرانتز فانون للإشارة إلى الانتهازيين الجدد والمتربحين من بين البرجوازيين الوطنيين (100). وستصبح الحالة أسوأ بكثير، كما تذكر رواية (اللجنة) ، عندما تجتاحها سياسة الباب المفتوح التي تحابي وسائل الإعلام والدعاية، وانتشار المنتجات الأجنبية، وتلوث مياه الشرب، وتردّي المنتجات المحلية.

فالفرق الرئيسي إذًا بين جلسات المحاكمة في موسم الهجرة ، والمحاورة في رواية (اللجنة) يكمن في اللحظة التاريخية للرواية: الاستعمار وما بعد الاستعمار في الرواية الأولى ، والدولة القومية وخضوعها للشركات متعددة الجنسيات في الرواية الثانية. في كلتا الحالتين يلعب

*إضافة المترجم: حسب ويكيبيديا فإن المانوية -أو المنانية كما ذكر ابن النديم في الفهرست - ديانة تنسب إلى ماني الذي ظهر في زمان شابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن شابور بعد عيسى المولود في عام 216 م في بابل. وقيل إن الوحي أتاه وهو في الثانية عشر من عمره وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم وكان يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى فنحى منحىً بين المجوسية والمسيحية.

نخبة القوم دورًا، بيد أن بعضهم لديه القدرة على القيام بأدوار متعددة ، كما في حالة الدكتور في رواية (اللجنة). وكما يشير بحث بطل الرواية، يشجع الدكتورالقومية والوحدة العربية زمن ذروة القومية في الخمسينيّات، ويشجع الاشتراكية في الستينيّات، قبل أن يتحول إلى تشجيع العولمة نظريًا وعمليًا، والمشاركة في إنشاء شركات وإقامة شراكات مع العديد من الشركات، بما في ذلك بعض الشركات المنخرطة في صناعة الثقافة ، إلى جانب شركة كوكا كولا ذات الشعبية الكاسحة. كل ذلك إلى جانب ترتيب الزيجات بين أسرته وأسرة أحد شيوخ الدول الخليجية لتوسيع إمبراطوريته الصغيرة. تركز جلسات الاستماع في رواية (موسم الهجرة) على خطاب الاستعمار ، وتنبع من مبادئه العقائدية وعلاماته، بينما تركز في رواية (اللجنة) على القضايا العالمية أو الأفراد اللامعين على الصعيد الوطني والذين يُنظر لهم على هذا النحو فقط عندما يتوجهون نحو العالمية. يحدث مشهد المحاكمة في الرواية الأولى في لندن، الوسط الحضاري، و"بطن" الإمبراطورية، كما يوحي مصطلح مصطفى (93)، ولكن لدى اللجنة في الرواية الثانية لغتها الخاصة وهيمنتها وسيطرتها في الدولة القومية نفسها التي يفترض أن تنمو من مجرد طريقة أو نتيجة ثانوية للوعي الوطني، حسب كلمات فانون (144)، إلى دولة وطنية شعبية، تكتسب الحيوية والنموذجية من أفراد شعبها. إن صمت مصطفى في المحكمة يرمز إلى رفض قومي للتعامل والتفاهم التافه. أما في رواية (اللجنة) يُفحص جسد بطل الرواية، ويدرس عرية ويعاين، ثم يُطلب منه الرقص كقرد قبل أن يستجوب حول الأمور العالمية. ويصف البطل في رواية (اللجنة) موقف الدولة القومية ما بعد الاستعمار: فكلاهما لا حول ولا قوة له، كما أنه معرض للخطر، إلى جانب أنه حوّل إلى مجرد متلقٍّ لما يتبقى من الآخرين.

ورغم القوة التي حصل عليها الدكتور عبر الخضوع لرؤوس الأموال العالمية، فهو واحد من مجموعة كبيرة من الاستغلاليين في السرديات العربية، مثل أولئك الذين نلتقي بهم في رواية دكتور إبراهيم (1939) ، للعراقي ذي النون أيوب. إبراهيم مستعد لتغيير شخصيته، وانتهاز الفرص ، في الدولة القومية الجديدة ، كما يسعى إلى التغلب على منافسيه ليتربع على أعلى مراكز القوة. وهو أيضًا أكثر انزعاجًا بسبب الانقلاب العسكري ضد الحكم البريطاني

عام 1936 من الضباط البريطانيين. ويقول له أحد الضباط البريطانيين : "أثبت العراقيون أنهم لا يستحقون الاستقلال الذي عُرض عليهم".1 لكن إبراهيم واحد من النخبة القائدة للدولة القومية الجديدة: فهو لم يتعرض للمعاملة المهينة في وطنه والتي تنال من أحد أبرز المسؤولين المصريين الإنجليكانيين. هذه المعاملة المهينة جاءت من مستشاري الامبراطورية البريطانية في رواية (عصفور من الشرق) (1938)، للمصري توفيق الحكيم. ويصبح المواطن المصري الحاصل على درجة علمية من جامعة أوكسفورد أعلى من أي مسؤول بريطاني في مصر جزءًا من الحركة القومية التي قادت إلى ولادة الدولة القومية.2 وعلى الجملة ، فإن هذه المجموعة من المقلّدين قد تدخل تحت تصنيفات التهجين في نظريات هومي بابا لما بعد الاستعمار. وقد يبدو كأنهم وسطاء متعددو الثقافات وعابرون للحدود الوطنية.3 لاسيما في حالة المسؤول المصري ، خريج أوكسفورد ، في رواية توفيق الحكيم ، حيث يتطور خطاب مضاد نابع للامبراطورية البريطانية من خيبة الأمل. هذه السرديات تبني قضيتها في ضوء معادل: المواطنة الاهانة مابين الدولة الناشية والامبراطورية الحاكمة.

إلا أن القيم الأخلاقية لا تنقسم بالترتيب بين النخبة المحلية والمستعمرين في السرديات التي تركز على الاكتساح الاستعماري للهوية الثقافية ، كما في رواية (نزيف الحجر) (1990) للكاتب الليبي إبراهيم الكوني، إذ يمكن أن يصبح أحد الأفراد المحليين مثل قابيل أسوأ من أي ضابط مستعمر.4 فبعد أن يبيع نفسه للشيطان، لم يعد هناك حد للعنف الذي يمكن أن يرتكبه بحق السكان المحليين، والأنواع المهددة بالانقراض، والآثار والمعالم الوطنية. ويُصلب البدوي المحليّ في الرواية، بينما تم جرف جسد أمه ونشره في منطقة واسعة كما لو كان طقسًا فدائيًا لوطن معرض للانقراض. وفي صدام مع المستعمرين وأذنابهم، لا مكان لجلسات الاستماع أو الإجراءات القانونية. فالفترة الاستعمارية لا تسمح

---

[1] ذوالنون أيوب ، الدكتور إبراهيم (بغداد، منشورات وزارة الثقافة ، 1978)، 204

2 توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق "Bird of the East" ، ترجمة آر بايلي ويندر (R. Bayly Winder) (Beirut Khayyat, 1966)، 24.

3 انظر هومي بابا (Homi K. Bhabha) ، " النشر: الزمان ، والسرد ، وهوامش الأمة الجديدة" ، العنوان الإنجليزي " DessemiNation: Time, Narrative, and Margins of the Modern Nation" في كتاب الشعوب والسرديات ، العنوان الإنجليزي"Nation and Narration" Homi K. Bhabha (London: Rout-ledge, 1990)، 291 – 322.

[4] إبراهيم الكوني (Ibrahim AlKuni) ، نزف الحجر ، ترجمة العنوان المترجم (The Bleeding of theStone) مي جايوسي و كريستوفر تينغلي (May Jayyusi and Christopher Tingley) (New York Interlink, 2002).

بمثل هذا الإقرار بالحقوق أو الاتصال. إن ما بعد الاستعماري والعالمي لهما قوانين مختلفة، كما أن العنف يأخذ لديهما أشكالا أخرى. فالنخبة المحلية قد تحافظ على التزامها الوطني، أو تعاني من الاستنكار الوطني، وهي حقيقة تشرح المفارقة الكامنة في اعتماد المحتل على المنفي.

فجلسات الاستماع في رواية (اللجنة) تسعى إلى إعطاء الشرعية للوطني عبر استخدام الخطاب العالمي البليغ ، وهي لغة تستخدم التكرار بشكل متوعّد، كما يغلفها تأكيد الديموقراطية والحرية، لدرجة تنتفي معها دلالاتها ومعانيها الإنسانية. وتقود مطالبة بطل الرواية بتسمية شيء له صفة "العالمية" ويمثّل القيم "السامية" و"الخالدة" للحضارة الحالية إلى تفحص عدد من الأسماء والقضايا ، بما فيها مارلين مونرو من حيث إنها حدث ثقافي دولي وإن كان "عابرا" (18 - 19). ويتحدث البطل عن الاقتصاد الثنائي المستجد بسخرية لا تكاد تحس ، ذاكرًا أن الدعاية تعد جانبًا لهذه الحضارة، حيث تروّج المنتجات حتى على الطرق المزدحمة كالطريق المؤدي إلى مطار القاهرة. وعندما تحدث البطل عن هذه المنتجات، لم ينسَ أن يذكر الشركات الضخمة التي تحول "العمّال إلى آلات" و "المستهلكين إلى أرقام" والدول إلى أسواق (20). وأخيرًا، يشير إلى شركة كوكاكولا حيث أنها شركة دولية تعني الشيء ذاته حول العالم.

في رواية (اللجنة) يتناول صنع الله إبراهيم كوكاكولا: شركتها، وقوتها، وتأثيرها في السياسة الأمريكية، و استمالتها للرؤساء أمثال جيمي كارتر، ومشاركتها في المناسبات الدولية. ويصرّح كيف أن كوكاكولا "[تبسط] نفوذها على أكبر وأغنى دولة في العالم وإذا كان الأمر كذلك لا غرابة أن تمتلك هذه السطوة في"بلدان العالم الثالث" (23-24). يضاف إلى ذلك أن " هذه الزجاجة بريئة المظهر ... تلعب دورًا حاسمًا في اختيار طريقة حياتنا ، وميول أذواقنا ، ورؤساء بلادنا وملوكها ، بل والحروب التي نشترك فيها، والمعاهدات التي نوقعها" (24). ويعد المشروب دليلًا على المنتجات الأخرى التي تبسط قبضتها المهيمنة. فعالميته هي مدخله إلى التأثير والهيمنة على مستوى العالم، وبخاصة في الدول الفقيرة والدول النامية. الرواية عبارة عن بحث وتوثيق وبراعة وتفصيل ، لتوضّح الجانبين

المهيمنين على صناعة الثقافة: الإعلان، ووسائل الدعاية له، ثم استمالة النخبة للعب أدوار معينة. وتبرز هذه القضية عندما ترسل اللجنة البرقية المقتضبة التالية: "ننتظر دراسة عن ألمع شخصية عربية معاصرة" (34). هذا الأمر، فهو في الحقيقة أمر، مجرد الوجه الشرير للسير الذاتية والسير المختصرة المكتوبة لتناسب أغراض طالبيها. كما أنها فخ، حيث إنها فضحت بالفعل ميول بطل الرواية واهتماماته ، وأغلقت جميع قنوات البحث المحتملة التي قد تضر بسرية وسطاء اللجنة وتعاملاتهم الخفية. لذا كان لجوء البطل إلى المجلات الصغيرة والمنشورات الثانوية. وتأتي هذه الدائرة الصغيرة معاكسة لما هو عالمي: وتحوي ما هو غير ملاحظ، وما لا يمكن ملاحظته، وما هو هامشي، وهي استعارة مجازية أخرى لهذه الأمة المعرضة للخطأ.

الخطاب "المتخلف" أو "النامي"

ليس من قبيل المصادفة أن يكون مسؤول الأرشيف لمجلة نسائية مغمورة في رواية (اللجنة) هو أحد ضحايا سلطة الدكتور الكبيرة. يحاول الأتباع ، بصفتهم أناسًا فاعلين ومؤثرين وقنوات للإعلام والفكر ، الهرب من تمحيص وتدقيق الجماعة المهيمنة وشبكتها المسيطرة (50 – 52). وكما تشير كلمات البطل الأخيرة، يدرك المضطهدون أن التغيير سيحدث، مهما بدت الأمور سيئة. ويكرر البطل كلمة "المتخلفة" مشيرًا إلى دولته بنغمة ساخرة على الدوام. هذا النوع من الإدراك له أسس وطنية، بيد أن الإدراك المسيّس قد يستسلم أمام المعارضة المتطرفة، بما في ذلك الانخراط في العنف في رواية اللجنة وموسم الهجرة، أو في رواية (عصفور من الشرق) وكثير من روايات نجيب محفوظ، ولاسيما روايته (الثلاثية) ، أو حتى السرديات البرجوازية الرومانسية كرواية إحسان عبدالقدوس "في بيتنا رجل" (1961). في هذه الروايات الطيف الاجتماعي هو نفسه في رواية نجيب محفوظ (اللص والكلاب) (1961). بيد أن تركيز محفوظ ينصبّ على الدولة القومية: أجهزتها المتنامية، وبيروقراطيتها، وانتهازيتها. وبالرغم من غياب الشكوك حول القائد الثوري للانقلاب العسكري عام 1952، فإن لدى محفوظ الكثير ليقوله ضد جهاز الدولة الجديد، والذي يرتبط عادة بالقومية الرسمية عبر الطرق التي أوضحها بنديكت أندرسون (Benedict

1.(Anderson

وينبّش البطل في رواية (اللجنة) التفاصيل، دون أن يغفل أي شيء، حيث يبحث في المعاجم العربية وغيرها، ليعرف المعاني الدقيقة والفوارق البسيطة (33). فهو يدرس أسماء الأشخاص البارزين، وصورهم، وأغلفة الجرائد، والصفحات التي تُعنى بالمواضيع الاجتماعية، والكتّاب، والمغنين، وغيرهم (34 – 35). والأهم من ذلك، يكتشف أن الدكتور يلخّص تاريخًا من الانتهازية في السياسة والاقتصاد العربيين، والمشابه للانتهازيين الذين يعرضهم نجيب محفوظ على أنهم نماذج لما بعد الثورة ، والذين يحولون الدولة القومية إلى مؤسسة أو مذهب آلي لا روح فيه ، إلى قصر يحمل علمًا وإلى نشيد وطني يعني القليل للجموع المنعزلة والفقيرة.2هذه النماذج هي التي يستهدفها سعيد مهران بطل رواية (اللص والكلاب) ليمتهن الانتقام الأمثل ممن تخلى عنه. وتخبرنا الرواية أن الدكتور ألقى خطابا في أول أيام الاتحاد مع سوريا قال فيه ما يعني، أنّ "الوحدة العربية" تعدّ "الرسالة الخالدة لكل عربي في هذا القرن" (49). وفي السياق نفسه وتمشيًا مع الخطابات القومية التي أسفرت عن حملات دموية في مصر، وسوريا، والعراق أثناء ستينيّات القرن العشرين، و"هاجم الشيوعيين، متهمًا إياهم بالخيانة لأنهم سبق أن وافقوا على التقسيم الصادر عام 1948 والذي كان يسمح بقيام دولتين في فلسطين، واحدة للعرب وأخرى لليهود" (49). ثم كتب المقالات حول الاشتراكية العربية (49) وأصبح مديرًا لإحدى شركات القطاع الحكومي وبعد عام 1967 قام بكتابة مقالات يلقي اللوم فيها على الاتحاد السوفيتي في الهزيمة التي منوا بها تلك السنة. إلا أنه لم يصبح "الرابط بين الممولين الأجانب والمستهلكين المحليين" إلا بعد شهر أكتوبر من عام 1973، وصار اسمه يظهر على رسائل التهنئة العرضية للرئيس، وفي بعض الأحيان يظهر مسوّقًا للعطور الفرنسية، والسجائر الأمريكية، والمسجلات اليابانية، وحتى كوكاكولا الأصلية (53 – 54). ومسؤول الأرشيف للمجلة النسائية المغمورة هو الضحية بسبب مقالته المعنونة "من يخلع الأشجار؟" والتي تشير إلى الدكتور كالمستفيد

1 بينيدكت أندرسون (Benedict Anderson) المجتمعات المتخيلة ، *تأملات في أصلول وانتشار القومية ، الطبعة الثانية ، العنوان الإنجليزي" Imagined Communities: Reflections on the "Origin and Spread of Nationalism* (Verso, 1991:London)، 174.

2 ويقول فانون إن "الأعلام والمباني الحكومية لم تعد رموزا للشعب" بعد ولادة الضمير الوطني. فالشعب يتخلى عن البريق الزائف لرؤوس الأموال ، كما يلجأ إلى الداخل حيث يجد الحياة والحيوية"

من ارتفاع أسعار الخشب (52). ومن السهل أن نرى أن هذه الشخصيات ترمز للصدع الاجتماعي والقومي، إلا أنها يجب أن تنبهنا هنا إلى تركيز السرد الجديد على إفراغ الدولة القومية من معناها:يختصر الدكتور البرجوازية الوطنية، والتي حسب كلمات فانون" تلعب دور المدير لشركات الغرب في الدولة الجديدة وتحيل دولتها إلى مكان تدنسه أوروبا" (102).

وفي ميدان القوة العالمية الغامضة في رواية (اللجنة) ، تنكشف الروابط بين الأحداث ، والإعلانات ، والخطابات ، وتردّي المنتجات الوطنية فقط تحت التمحيص والتدقيق. تلفت هذه المسألة الانتباه إلى جانب تطورات أخرى ، منها وعي بطل الرواية بالظاهرة الغريبة التي تعم الحياة الاجتماعية والاقتصادية تحت سياسة الباب المفتوح، والتي يباركها أيضا زواج ابنة الدكتور برئيس عربي (58). وتظهر كامل القصة التي تحتفي بإسهامات واستخدامات الدكتور للاقتصاد القومي في عدد من منشورات التايمز أو نيوزويك. حيث يُسبغ الإعجاب على نجاح الدكتور لتمثيله لأخلاقيات العمل والإنجاز في اقتصاد ما بعد الاستعمار. ويختم الكاتب مقالته بهذه العبارة، "إذا لم يكن للدكتور إصبع في إحدى الصفقات ، كان له بالتأكيد نصيب في عائدها" (62). وتلخص هذه المقالة الإخبارية كامل حياة الدكتور ، ألمع الشخصيات العربية ، ومهنته. وهي ولاشك أكثر شمولية وتماشيًا مع سياسة الباب المفتوح من المقالات المنشورة في الصحف الأسبوعية المصرية. وتنبهنا المقارنة بين المجلة النسائية والمنشورات الأخرى الصغيرة التي توفرت لبطل الرواية إلى الاختلاف في المنزلة والنفوذ بين الدكتور والمواطن العادي. إن الأقوى يمكنه أن يبتلع المعلومات في المجلات الصغيرة والدوريات، كما يمكنه أن يستولي على المحلي، ويستخدمه لمصلحته، ويكنه أن يفرض شرعية وسائل الإعلام القوية ومصداقيتها بسبب شعبيتها وانتشارها. في هذه الحالة لا وجود للنزعة العالمية-المحلية كحالة متحاورة مع ماهو محلي ، ولا نجد سوى التبعية والخضوع الكامل.1 فالدكتور على غلاف مجلة أمريكان ويكلي يجذب انتباهًا أكثر في مصر،

[1] انظر رونالد روبرتسون (Roland Robertson) "العولمة الزمان والمكان والتجانس والتغاير" ، العنوان الانجليزي " Globalization: Time-Space and Homogeneity-Heterogeneity" في كتاب فيذرستون ، ولاش ، وروبرتسون (Featherstone, Lash, and Robertson)

والعالم العربي، وبالتأكيد في الأسواق الأمريكية والأوروبية. إن الطابع الفريد للدكتور ،"الذي توسط لدى الشركات العالمية العملاقة من أجل إمداد أمتنا بأحدث الأجهزة والابتكارات التي وصلتنا بحضارة العصر،" (71) هو ما دعا البطل إلى اختيار مواد القراءة التي ينكبّ عليها. ومما يدعو إلى السخرية أن هذا الوصف يركّز على السلع التي تعني استهلاكًا أكثر في دولة مدقعة الفقر، "بدءًا من حقائب السامسونايت والترانزستورات إلى الإلكترونيات وطائرات الجامبو ، ومن معاجين الاسنان والحلاقة ، إلى معطرات الفروج وعقاقير الفحولة"(71).

هذه السلع، والتي بدت غريبة في سرد يعود إلى السبعينيّات من القرن العشرين، في ذروة حملة قمع وسجن ونفي للصحفيين، والناشطين، والكتّاب، والفنانين المصريين، لم تعد شيئًا مفاجئًا بحلول التسعينيّات من القرن العشرين، في سياق الاقتصادات المعبأة والمعولمة. وهذا ما نلحظه في كتابات مثل "فقط في لندن" (2002)، للكاتبة اللبنانية النسوية حنان الشيخ والتي تعيش في لندن ، ورواية (بنات الرياض) (2005)، للكاتبة السعودية رجاء الصانع.1 ولم تعد سلع الاستهلاك في المجتمعات التقليدية التي تعرض لها السرديات المذكورة جانبية ، ذلك لأنها تثير أسئلة حول العائلة وتحمل معانٍ خاصة للنساء. ويجري هنا تقليص البعد العقائدي ، بما يتماشى مع جزء كبير من كتابات النساء ، ليعطي مجالاً أكبر للتفاصيل والاقتصادات المحلية. ونادرًا ما يُتطرق لموضوع التطبيق العقائدي على الأمة، كما تُنحّى سياسات العولمة جانبًا، ولا تناقش رؤوس الأموال الأمريكية ولا السياقات الأوروبية ولا تنتقد.

1حنان الشيخ (Hanan Al-Shaykh) ، فقط في لندن العنوان الانجليزي (*Only in London*) ؛ (New York Anchor, 2002) ، رجاء الصانع ، بنات الرياض (لندن: دار الساقي ، 2005)

الأصوات "المشتقة" والمعارضة

إن أعمال لجنة صنع الله إبراهيم ليست مرادفة للرقابة على النشر التي تمارسها الكثير من الأنظمة التي يمثل لها نجيب محفوظ والعديد من الروائيين العرب.[1] إن الدولة القومية التي يمثلها الأدب اليساري منذ الفترة الاستعمارية تكون إما استبدادية و ديكتاتورية من جهة، أو مرتبطة انتقائيًا بطبقة مخملية من جهة أخرى: فهي تتلاعب بالميدان العام، وتشكل تدريجيًا صدعًا بين الناس والقوى السياسية الفعلية والمجموعات الاجتماعية. وتطرقت جميع الروايات العربية تقريبًا بين عامي 1950 و 1980 لهذه القضية. إلا أن السلطة تنبع بشكل مختلف في رواية (اللجنة)، والتي تعد تباعًا ذات أهمية بالغة في أي تقييم لخطابية ما بعد الاستعمار والعالمية. حيث إن اللجنة لديها السلطة بالرغم من "أجنبيتها" و"لغتها" الخاصة. إن حضورها المتفشي وشمولية معرفتها تغرس الترقب والخوف في السكان، إلى جانب الاستسلام وفقدان الإرادة. كما أن سياسة الباب المفتوح تضفي الشرعية على تدخّل هذه القوة في الاقتصاد المحلي، والسياسة، والحياة، وعلى تربة الوطن. تسخر السيرة المحاكية لصنع الله إبراهيم خفية من العادات جوهرية المذهب في التفكير والسلوك كونها تتمركز حول الثقافة الأروبية ، كما تتهكم من "الوطنية المتطرفة" للدكتور أول الأمر ، و"خلع الأشجار" في معرض "البيع والشراء" الذي يقوم به الدكتور ؛ ويشير صنع الله إبراهيم إلى أن خطاب الدكتور يتبنى ثقة ما بعد الحداثة "[باندثار] الأمانة والصدق والشرف" (72) . فهو يتملق وسائل الإعلام الجديدة والتي تعمل على صياغة "وعي الجماهير وتوحيد معتقداتها وأذواقها " (72). وتغزو كلمات جديدة مثل "التهليب" و"التطنيش" مفردات اللغة العربية ، بينما تظهر مصطلحات مثل "التنويع" و "التطبيع" كأعراض جانبية للعولمة (اللجنة، 72). ولا يعبر عن هذه المفاهيم في هذا السرد، باعتماده على المؤشرات الاقتصادية، والثقافية للعولمة، بصفتها "خليطًا عالميًا" من الهويات ورؤوس الأموال، بل بصفتها سياسة مدروسة لبناء "مستهلكين متباينين بصورة متزايدة" (53 – 52 ، بيترز).

يضاف إلى ذلك، أن الهدف هو ابتكار "تقاليد للمستهلكين" ، لأن "التنوع مربح " حسب كلمات رونالد روبرتسون (29). لكن الأمر الذي يجعل هذا السجل الوثائقي جذابًا من حيث هو تفانيه في خدمة موضوع الدراسة ؛ أي الدكتور، الذي تملأ تعاملاته الغامضة

[1] انظر مقالة ريتشارد مايرز (Richard Myers) ، "مشكلة السلطة: فرانز كافكا ونجيب محفوظ" ، العنوان الانجليزي " The Problem of Authority: Franz Kafka and Nagib Mahfuz" ، مجلة الأدب العربي ، العنوان الانجليزي "*Journal of Arabic Literature*" 17 (1986):.96 – 82

حياة بطل الرواية بالقلق وتعطيه هدفًا يسعى إليه. لذا، يسأل بطل الرواية نفسه، عندما طلب منه التخلي عن الدكتور موضوعًا لبحثه، "هل يتخلى الغريق عن قطعة الخشب التي يمكن أن تؤدي به إلى النجاة ؟" (83) إلا أن التزامه بموضوع الدراسة هو أيضًا نوع من التحدي، حيث يأتي فقط بعد مطالبته بالتخلي عن بحثه. بمعنى آخر، يكوّن هذا الالتزام هوية، ليرتقى بحياة فارغة من قبل لتصبح حياة استكشافية ذات مغزى. ويكمن اختلافه عن صناعة هويات الاستعمار وما بعد الاستعمار في اكتشافه لرؤوس الأموال العالمية ووسطائها المحليين، وذلك من خلال الانخراط في البحث. وينبغي أن يلفت التوجه الفكري الذي نراه في كتابات عدد كبير من العلماء، والشعراء، والنقاد، والروائيين، والصحفيين، أمثال روبرت فيسك وسيمور هيرش (Robert Fisk and Seymour Hirsch)، الانتباه لنفسه بصفته خطاب أقليات يحمل إمكانيات كبيرة. وبغض النظر عن مدى انزعاج النخبة الوطنية بسبب ظواهر الأعمال اليائسة الفردية أو الجماعية، يجب أن ننظر إلى هذه الأعمال الجماعية في سياق التحديات المقلقة للهويات المجتمعية وعمليات الصياغة الذاتية للتاريخ. إن بناء الهويّات واختراعها هو أحد علامات السرد في كثير من الروايات العربية.

إن المحافظة على الذات من خلال هدف بطل رواية صنع الله إبراهيم يمكن أن تقارن بدافع مشابه في رواية (موسم الهجرة) للطيب صالح. حيث يستسلم الراوي لجريان تيار نهر النيل. "تلفتُّ يمنة ويسرة ، فإذا أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب. لن أستطيع المضي ولن أستطيع العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكنًا أحرك ذراعي وساقي بصعوبة بالقدر الذي يبقيني طافيًا على السطح" (199). فالراوي ضائع في حالة من البينية ترمز لحياته حيث يقول، "طول حياتي لم أختر ولم أقرر" (200). ويقول في هذه اللحظة التي قد تقرر مصيره: "إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة" (168). وعندما ينظر لهذا الموقف مجازيًا بوصفه خيارًا ثقافيًا ، يمكن أن يكون موقف انتماء قومي ، وخطوة نحو تكوين الهوية الفعلية لا شظاياها ؛ فقد كان "ثمة أناس [قليلين] أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ، ولأن علي واجبات يجب أن أؤديها"(200). هذه طبعًا ليست الجملة الوجودية* لفترة الخمسينيّات من القرن العشرين للأدب القصصي العربي، فالتصادم مع الغرب لا يحمل أي تأمل في مغزى الحياة أوعدم جدواها . "لا يعنيني إن كان للحياة معنى

*إضافة المترجم: حسب ويكيبيدا الوجودية تيار فلسفي يميل إلى الحرية التامة في التفكير بدون قيود ويؤكد على تفرد الإنسان ، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه.وهي جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة، وليست نظرية فلسفية واضحة المعالم

أو لم يكن لها معنى" (200). وبوقفته من بعض أفراد قومه، وتحمله للمسؤولية، يحرص الراوي على الحفاظ على النفس مثل بطل رواية (اللجنة). ومع ذلك، فالصدام مع ماهو استعماري وما بعد الاستقلال ، كما في رواية موسم الهجرة، يتطلب موقفا ووجهة نظر معينة، بينما في عالم رواية (اللجنة) العالمي، يتعرض البطل إلى كيان يستهلك نفسه محكم شدّ الخناق حوله. وتقدم رواية (موسم الهجرة) امكانية الانتماء القومي ، والخلاص الفردي ، بينما ما في رواية (اللجنة) ، فهناك اعتراف بوجود نظام عالمي مسيطر يجب أن يُبين تأثيره السلبي ، وعلى وجه التحديد نزعته الاستهلاكية وكشفها ومقاومتها.

وبينما يحاكي بطل الرواية التنويع متعدد التخصصات لخطاب رؤوس الأموال العالمية، نراه يقف سريعًا في صف متمردي روايات الأدب العربي أمثال شخصية سعيد مهران للكاتب نجيب محفوظ في رواية (اللص والكلاب). ويشرح بطل الرواية المجهول للقصير، مرارة عبث المحاولة في مواجهة مجتمع مثل دولته القومية العازمة على إرغامه ليتماشى مع إرادتها. إنه يفضل بطلًا يدافع "عن الضعفاء والعاجزين وفي مواجهة المجتمع وطبقاته السائدة" (97)، وهذا الشرح مشابه جدًا لشرح سعيد مهران. إن التفضيل لهذا النوع من الأبطال، إلى جانب الروايات البوليسية القائمة على الأحداث يهيء الجو لهجومه الاستباقي على "القصير" بسكين المطبخ. ينظر البطل للقصير كمخلوق خطر، وتتكوّن طريقة ردة عن تشرّب قناعة الكاتب البلجيكي جورج سيمنون (Georges Simenon) بأن "رجلًا مسالمًا لم يرتكب عملًا عنيفًا واحدًا قادر على ارتكاب أبشع جرائم القتل العمد" (100). لذا قرر البطل فعلاً آخر فور تحرره من الحاجة لاستعمال المحاكاة والسخرية، والتهكم والتقليد، زخارف خطاب ما بعد الحداثة : قرر أن "[يضع] شريطًا خاليًا في المسجلة [ويقيمها] فوق الطاولة،" كما لو كان يواجه اللجنة.ويبدأ كلامه ؛ وهو ليس كلامًا عن الثوابت والانقسامات بل كلامًا يحمل سمات فلسفة ميشيل فوكو ويكرّس نفسه لتغيير علاقات القوة. ولهذا يقول بصوته: "ومهما كان حسن نواياها أو سلامة أهدافها ، فلن يلبث الفساد أن يتطرق إليها. وتصبح [اللجنة] عقبة بعد أن كانت علامة ، ويتحتم إزالتها بعد فترة من الوقت ، طالت أم قصرت" (153). بمعنى آخر، سيؤول هذا النظام العالمي قريبًا إلى المكانة نفسها التي تحتلها الدولة القومية ، لطالما كان هناك رغبات أنانية، وفساد،

واضطهاد. إن التحول لاستخدام بعض سمات فلسفة ميشيل فوكو في هذا التعقيب الخاص-العام هو استغلال آخر للانتقال بين مواقع القوة، إلا أنه بلا شك مشوب بتوجه الماركسية الجديدة. ويسبق هذا التحول تغير رأي هومي بابا في السنوات الأخيرة، والذي قاد إلى الإقرار بأن "الإمبراطوريات العالمية الجديدة تقوم لتفرض إقامة الحضرية باسم الديموقراطية واقتصاد السوق الحرة ، حيث كان ينظر للتطور والنمو في فترة من الفترات كالنمط المميز للخلاص المحدّث" (المقدمة x–xi ,). ويلخّص هومي بابا كامل النزعة بشكل مناسب "كتجريد استراتيجي لسلطة الدولة من قوميتها " (xi). في حين لم يتحمس بطل رواية (اللجنة) لفرضية فانون القائلة بأن طبقة الفلاحين القومية وقوتها المنظمة ستتولى زمام الأمور في الوقت المناسب ؛ فهو يثق بحتمية حدوث تغيير مستقبلي في مواقع القوة. "ستفقد جماعتكم تدريجيًا، ما لها من سطوة،" ويضيف "بينما ترتفع مقدرة أمثالي على مواجهتها والتصدي لها" (153).

وبناء على كل ثنائية من الاستسلام والمواجهة، هذا الإيمان يمكنه بسهولة أن يدمج السرديات الأخرى التي تستعمل المحاكاة والفكاهة لتخبر عن الحقيقة الكئيبة للاحتلال الوحشي ومصادرة الأراضي. وهذه هي حالة رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل (1974) للروائي الفلسطيني إميل حبيبي.[1] إن ما يجعل هذه الرواية مهمة لغرض تناولها في الحديث عن العولمة هو قدرتها على الجمع بين عدد من طرق الكتابة، بما فيها الكتابة باستخدام اسلوب سلسلة من الرسائل، التي تفسر وضعًا لا يمكن إيجاد ما يبرره أو يمثله. ويفترض أن سعيدًا، وهو موضوع هذه الرسائل أو المذكرات، أرسلها من الفضاء الخارجي، حيث استدعته مخلوقات غامضة. ويطلب سعيد من الشخص الذي سيفصح عن رسائله أن يفهم أن سعيدًا لم يُخطف ، أو يُسجن ، أو يُطلب منه الانضمام إلى حركة المقاومة الفلسطينية. إن وضع سعيد أثناء الاستعمار يجعل الحياة الطبيعية أمرًا مستحيلًا؛ لذا نرى ولادة هذا الخيال، الذي لا تقل إيحاءاته مثالية مقارنة بكثير من أحلام التحرير والرفاهية. بعد أن ظن الناس خطأ مرات عدة أن سعيدًا جزء من حركة المقاومة، التي ينضم إليها بالفعل. في نهاية المطاف يتلقى سعيد تحذيرا من الشرطة

[1] إميل حبيبي (Emile Habiby) ، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل ، ترجمة ، عنوان الترجمة " *The Secret Life of Saeed the Pessoptimist* " سلمى خضرا جايوسي و تريفور ليغاسيك (Salma Khadra Jay‘yusi and Trevor LeGassick) (Brooklyn, NY Interlink, 2002).

الإسرائيلية بأنه مراقب وأن أدنى همساته وأفكاره الداخلية تسمع وترى ، وفي الوقت نفسه يشك المواطنون الفلسطينيون بأنه مخبر سري. وتشبه الطريقة المستخدمة للتجسس عليه تلك التي استخدمتها لجنة صنع الله، كما أن القيم جوهرية المذهب للنظام تماثل تلك القيم التي يكررها رئيس اللجنة على بطل صنع الله إبراهيم. وتتم إحالة سعيد والبطل في رواية اللجنة عمدًا إلى العدم. يقول سعيد في مجرى حديثه عمن قبضت عليهم الشرطة: "ذكرت الصحف أسماء الوجهاء الذين حبسوا سهوًا، وآخرين. آخرون_هؤلاء أنا" (17). إن اليأس الذي يفضي إلى الرحلة الخيالية في الفضاء الخارجي هو شكل آخر من أشكال الترحيل القسري، والهجرة، والنفي. ينبغي أن تنبهنا الحقيقة القذرة خلف النزوح بأي شكل كان إلى الحاجة إلى تفسيرات أفضل لهذه القضايا، والتي لم يصرف لها إلا التحليلات القنوعة من واضعي النظريات الذين يحملون هويات متعددة.

الهجرة

يتكلم بطل رواية (اللجنة) عن قضية المهاجرين من الصفوة، لكنه ليس مستعدًا لتبرير وجودهم في المجتمع والثقافة الحضاريتين كأفراد لامعين مادام توجههم الوطني وأصلهم يؤخذان بعين الاعتبار. "حقًا إن صيت بعض من هاجر منهم طبق الآفاق بما حققه من كشف أو ابتكار في مجاله. . . . لكنه فعل ذلك في الخارج ، بعد أن نشأ وتعلم بين ظهرانينا" (37). ثم يخلص إلى التالي " ووضعت ابتكاراته وكشوفه على الفور لخدمة البلاد الأجنبية وأهلها. فأي علاقة صارت تربطه بموطن نشأته؟" (37). ومن الواضح أن البطل يقف في صف مفاهيم الوطنية، ويقبل الفرضية القائلة بأن هناك فائدة معينة من العولمة من حيث المفاهيم، والقيم، وحقوق الجماعات العرقية ، بيد أنه يرفض استخدام هذه الأشياء في مصلحة رؤوس الأموال العالمية. كما يرفض اعتماد الدولة الوطنية على "القومية" ذريعة لبيع الأمة، مع اقتصادها وأهلها وأسواقها. إن التطرق لما هو قومي والقومية في رواية (اللجنة) يرفض ولا شك إزالة الصبغة السياسية عن التصنيفات المفهومية كالتهجين والهجرة. وقد يتفق بطل الرواية مع "الفسيفساء المثقوبة" لفريدمان (Friedman) طالما كانت تعني "النظرة المعولمة للعالم الإثنوغرافي*" (85) حيث لا توجد ثقافة نقية من اختلاط الثقافات الأخرى، لكنه غير مستعد للخلط بين القضايا ، وترك إرث الإمبراطوريات

*شرح المترجم: مصطلح خاص بوصف الأجناس البشرية

وفترة ما بعد الاستعمار لتستخدم المصطلحات والمفاهيم لزعزعة الاقتصادات والشعوب وتفكيكها.

قد يكون المهاجرون الذين يقلل بطل رواية (اللجنة) من شأنهم هم أنفسهم في نظريات هومي بابا الأولى حول الإمبراطوريات، والشعوب، والمهمشين. إن موقعهم لا يسمح لهم أن يألفوا الوسط المتلقي فقط بل يمكّنهم من المطالبة به بصفته ملكًا لهم. وهم بالتأكيد مختلفون عن الشعوب النازحة والعمال الذين يوفرون اليد العاملة الرخيصة حول العالم. إلا أنهم مع ذلك يشتركون في شيء واحد مع المهاجرين الآخرين: هو الميل والرغبة في الاندماج من خلال اللغة الإنجليزية والطابع الإنجليزي. إن شخصية لميس في رواية (فقط في لندن) لحنان الشيخ ، هي مهاجرة عراقية تطلب من مدرس إنجليزي أن يعطيها دروسًا خصوصية في اللغة الإنجليزية. ويريد المدرس أن يعرف لماذا قررت هذه المهاجرة أن تكتسب لكنة إنجليزية بعد ثلاثة عشر عامًا من العيش في لندن (53).ولكن المدرس لا يستغرب طلب المهاجرة، حيث يكمل قائلًا، "بمعنى آخر، أنت تعتبرين إنجلترا بلدك الثاني." لكنها تصحح له قائلة: " لا، بل وطني الأول. غادرت العراق عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. ولا أعتقد أني سأعيش هناك أبدًا مرة أخرى" (53). وبينما يبقى الوقت عاملًا في هدف الاندماج هذا ، فالحصول على عمل هو ما حثها للحصول على اللكنة الإنجليزية. فالوسط الاجتماعي لن يتقبل القادمة الجديدة فردًا بريطانيًا إلا اذا كان اندماجها كاملًا. وهذا مأزق هذه المهاجرة. فبريطانيا هنا كأنها الفضاء الخارجي في رواية إميل حبيبي: لتصبح أحد الأشخاص المحليين، لابد أن تعترف أولًا بأنك غريب.

"المعلوماتية" بوصفها سردًا

بيد أن هناك حالات أخرى تنشأ نتيجة لعالم العولمة الخاضع للهيمنة وللإشراف. فاللغة الإنجليزية أصبحت ضرورية حول العالم ولاشك. في المجتمعات الثرية في رواية (بنات الرياض)، على سبيل المثال، لا تنطبق دلالات العمل ومعاني المهنة التي ألفناها في رواية (فقط في لندن). فعلى عكس رواية (اللجنة) ، تستعمل رواية (بنات الرياض) إمكانيات العولمة للسماح لعدد من الفتيات بالهروب من قيود التقاليد الاجتماعية التي تمارسها عليهم الطبقات الثرية السعودية والرجال على وجه الخصوص. وتنشر الراوية إيميلاتها الغامضة،

حيث تعمل ضمن الانعكاس الذاتي لسرد ما بعد الحداثة ، وتضع نصب عينيها تأمين مكان مناسب لها في عالم الكتابة الأدبية الذي يهيمن عليه الذكور، يوم الجمعة بعد الصلاة ، كفصول مكتوبة باللغة العربية لوسائل الإعلام ، وتحمل الرسائل المكتوبة بأسلوب الإيميلات وصفًا دقيقًا لفتيات شابات يشققن طريقهن بين بلدهن وأوروبا أو أمريكا. ويعمل الإيميل، الذي أصبح سردًا فيما بعد ، وسيلةً تجتاز الحدود والقيود. وبكشفها للحواجز القديمة وافتراضات الروابط الوطيدة بين الشعب والسرد ، تختار مساحة أكبر لا يمكن تأمينها إلا عن طريق تجاوز الحدود المكانية. إن بحث الراوية عن جمهور أكبر، يعمل محركًا للعلاقات العامة والذي ينتج ردودًا ومراسلين حقيقيين أو متخيلين. ويروج السرد لنفسه عن طريق اقتباسات من بيانات الصحف الحقيقية أو المزعومة ، والتي تذكر أن الكاتب مسؤول عن ظاهرة غريبة: "ضجة تعم الأوساط المحلية حاليا تقف وراءها فتاة مجهولة ترسل إيميلًا نهار كل جمعة إلى معظم مستخدمي الإنترنت في السعودية ، وتقص في هذه الرسائل قصص صديقاتها الأربعة . . . الفتيات اللواتي ينتمين إلى الطبقة المخملية من طبقات المجتمع ، والتي لا يعرف أخبارها عادة سوى من ينتمي إليها " (117). هذا النوع من السرد يحاول إضفاء الشرعية على نفسه عبر التنقل بين التقاليد المحلية وبين أعمال التجاوز في التاريخين العربي والدولي. "الجميع يشجب جهودي الجريئة، ويلومني للتطرق للمواضيع المحرمة التي لم نعتد على مناقشتها في مجتمعنا بصراحة ، وبخاصة من فتاة بعمري، لكن أليس لكل شيء بداية؟" وتضيف، " من كان بوسعه أن يتصور أن مارتن لوثر كنج، الكاهن المسالم سيحرر السود في أمريكا من قوانين العنصرية ويبدأ حركة المساواة بين السود والبيض باحتجاج عادي في بلدته ضد الفصل بين البيض والسود في مقاعد الحافلات العامة؟" (113).

هذه المقارنة ليست عشوائية ؛ فالدعائم الثقافية للسرد موزعة بين العلامات والمعاني العربية والأمريكية البريطانية ؛ فالشخصيات تتردد بين هذه المناطق إما للدراسة ، أو الترفيه ، أو الاستقرار. بيد أن المشاركة في الحياة والتقاليد الاجتماعية فيها ، أكثر تركيزًا ،

فالراوية بصوتها الذي يبدو ملمًا بجميع مجريات الأحداث، تميل إلى زعزعة مجتمع تقليدي يُحْرَص على بقائه محافظًا ، وينتمي رعاته إلى المؤسسة الدينية وحلفائها من النخبة المسيطرة والمهيمنة. بالنسبة للراوية، لا تقل هذه الطبقة عنصرية عن تلك التي حاربها لوثر كنج في أمريكا. وبمعنى آخر، تشبّه الراوية نفسها بمارتن، والنساء بالسود. فالفجوة هنا ليست بين الدول القومية المتطورة والمتأخرة ، بل بين المجموعات المهيمنة والتابعة حول العالم. كما أن وسيلتها لم تكن أقل من أكثر الاكتشافات عولمة حتى الآن. فباستخدامها للإنترنت لتكسر الحواجز والقيود بين الطبقات الاجتماعية ، والجماعات ، والمجتمعات وحتى القوميات. تستفيد الراوية من أفضل ما تقدمه العولمة. كما أن الإنترنت ، المستخدم من الطبقة المرفهة بإسراف ، أكثر فعالية من السلع المذكورة في رواية (اللجنة) إلى جانب أنه لا يقاوم. كل فصل في رواية (بنات الرياض) عبارة عن رسالة إنترنت ، أي إيميل موجه من الراوية إلى مشتركيها ، وتحمل كل رسالة عنوانًا و مقدمة مقتبسة من القرآن الكريم ، أو أحاديث الرسول ، أو من الشعراء والكتاب.

وتعمل الراوية في هذه المساحة اللامحدودة ، حيث يمكنها أن تفر من سلطة القضاء ، ولكن بقدر محدود تعرفه وتفهمه جيدًا. وفي النهاية ، نشرت رواية (بنات الرياض) في لندن ، ويمكن أن تكون الإيميلات الأصلية التي تلقاها المشتركون ظهرت بشكل آخر بصورة الرسائل النصية الأصلية نفسها. ويمكننا أن نفترض أن الدولة لديها العديد من الوسائل التي تمكّنها من التدخل في مواقع الإنترنت التي تستخدمها الراوية أو حتى حجبها لإرغام الراوية على التوقف عن إثارة المواضيع التي تمثل خطرًا على أمن الدولة وتقاليدها. وبصفة عامة يمكن أن نتفق مع قول تيموثي دبليو لوك (Timothy W. Luke) بأن "الدولة القومية ، بانجرافها مع تيارات القوى الحقيقة- الافتراضية المتحركة عبر المشاهد الإعلامية للمعلوماتية ، واهتماماتها الجغرافية السياسية الأكثر تقليدية والتي تهتم بحفظ النظام تبعًا لسلطتها في أراضيها ، وعلى سكّانها وأسواقها ، عادة ما تعجز حتى عن أن تقترب من إغلاق ملفات الأحداث التي تحصل داخل حدود سلطتها."[1]

1تيموثي دبليو لوك (Timothy W. Luke) "نظام العالم الجديد أو نظام العالم المعدّل: القوة والسياسة والعقيدة في العالميات-المحليّات

هذه المعلوماتية هي الإسهام الذي تقدمه رواية (بنات الرياض) للكتابة العربية الحديثة ، وإن كانت أقل من المستوى المعتاد في الكتابة العربية. إن التطرق للأخلاقيات المحافظة المهيمنة على نظام اجتماعي ما لا يعد بالأمر الجديد على الأدب القصصي العربي. الجديد في الموضوع هو استخدام وسيلة تمكّن من الوصول إلى جمهور كبير. في المملكة العربية السعودية لا يُترك الإنترنت بلا مراقبة أو حجب ، وتستغلّ الكاتبة كل إشاعة لتروّج لعملها كمجازفة مغامرة تحدت القيود وأصعب العقبات. وتصرّ الكاتبة قائلة : "سمعت أن مدينة الملك عبدالعزيز تسعى لحجب مواقع البريد الإلكتروني التي أبعث رسائلي الأسبوعية من خلالها ، من باب سد الذرائع ودرء المفاسد" (48). وبالأسلوب الاعترافي نفسه وبلمسة أكبر من الألفة تثير التوقعات حيث تلمّح بقولها : "أعرف أن معظمكم يعرف ألف طريقة للوصول إلى المواقع المحجوبة ، لكنني قد أموت متكهربة إن تم هذا الحجب قبل أن أفرغ لكم مافي صدري من شحنات سالبة وموجبة تأبى التعادل بداخلي" (48). وتشير بتهكم إلى الخطاب المحافظ المتشدد الذي كان السبب وراء مقاومة رسائلها: "لم أطلب سوى مساحة صغيرة على الشبكة العنكبوتية أتربع في وسطها لأسبحن عليكم ، فهل كفرت؟" (48). ولكن هذه المساحة الصغيرة من شأنها أن تشتت الخطابات المنافسة بقواعدها ، وقوانينها ، وتطبيقاتها. بالرغم من منع العديد من المواقع من العمل ، في المملكة العربية السعودية كما هو الحال في أماكن أخرى ، من بينها الولايات المتحدة ، يسرنا أن نعلم أننا، والحديث بالنسبة للأدب ، نعيش في عصر تتعايش فيه الدولة القومية المرنة إلى جانب الانسيابية القوية التي يمثلها الإنترنت. وقد نتفق مع لوك (Luke) في أن "التخيّل الملموس للتدفق ، والذي يُفهم من حيث الاتصال الرمزي بشبكات التداول المعلوماتية ، أو المعالجة من خلالها ، تزيح تدريجيًا الحقيقة الواقعة للمكان والتي يعبّر عنها من حيث السياق الاجتماعي الثقافي للموقع المكاني" (101).

تعتمد استراتيجيات السرد في رواية (بنات الرياض) على الإنترنت وسيلةً أساسية لإيصال كتاباتها إلى الناس ، وبخاصة الطبقات المتعلمة. والوسيلة نفسها يمكن استخدامها

المعلوماتية" ، العنوان الانجليزي (New World Order or Neo-World Orders: Power, Politics, and Ideology in Informationalizing Glocalities) تحرير فيذرستون و لاش وروبرستون (Featherstone, Lash, and Robertson, 100)

بلغات عدة ، بما فيها اللغة العربية. إن الطابع الإنجليزي ليس الخيار الوحيد ، بل ليس أولوية حتى إن التحول بين اللغة العربية ولغة اللجنة في رواية (اللجنة) يقصد به تسليط الضوء على لغات وسلع استهلاكية عولمية تؤدي بالمجتمعات والثقافات إلى أن تدمر نفسها أو "تأكل" نفسها كما حدث مع بطل الرواية. وهذه هي أقسى عقوبات اللجنة. تستخدم رواية (بنات الرياض) الإنترنت لتناصر الفتيات الواقعات تحت القيود التي تمنعهم من عيش حياة حرة ، تساوي حالة الرجل. كما أن الراوية ليست من السذاجة بحيث تتطرق لهذا الموضوع دون كتابة مقدمات لأغلب الفصول، تشكك في افتراضات المحافظين المتشددين ، والافتراضات المتعلقة بالإسلام ، والرسول ، والحياة عامة. في الرواية ، ذكرت أحاديث عن الرسول الإنسان المحب للخير والذي يرعى من حوله ويهتم بعائلته (97, 211). أما الاقتباسات القرآنية فتقصد التشكيك في التصريحات والتفسيرات التي تجعل الحياة صعبة لا تحتمل. ولا يقتصر اقتباس المقدمات والشعارات من الشعراء المحدثين أوالمعاصرين على الأخذ من العرب ، بل يستقي بعضها من الأمريكيين والأوروبيين. وعلى وجه الإجمال ، هذه المقدمات تشابه كثيرًا رواية توفيق يوسف عواد "طواحين بيروت" (1972) ، بتوقعها للحرب في لبنان والاحتلال الإسرائيلي عام 1982. إحدى الاستراتيجيات الأخرى التي استعملها السرد في رواية (بنات الرياض) تكمن في المحاكاة المكثفة والمنعطفات الساخرة التي تناقش الجهل المدقع لمضمون مذهب من المذاهب الدينية يوصف بأنه بدعي وتنتمي إليه فاطمة –إحدى زميلات البطلة في الرواية– والتي نراها في هذا السرد تعيش حياتها بهدوء ، بينما يصعب على لميس وبعض الفتيات أن يتجنبن الضغوط الاجتماعية لتفادي فاطمة. لكن الراوية لا تهتم بهذه التفاصيل ، بل تهتم بكشف جهل الرأي العام الذي يعامل النساء والأقليات الأخرى بعنصرية. (53-146). وبينما تعالج الرواية قضايا الأقليات هذه ، نرى أنها تشير بصورة هزلية إلى قضايا محلية كتلك التي بين قمرة وزوجها راشد ، فبعد أن صفعها زوجها لشجارها مع صديقته الآسيوية في أمريكا ، تتساءل هل يجدر بها أن تخبره بأنها حامل لتكسب تعاطفه أم تمتنع عن "استخدام الأطفال كدروع بشرية" (49).

وربما بيّنت هذه النصوص كيف يمكن للأدب أن يشارك بصورة تفاعلية في القضايا المتعلقة بالحياة العائلية ، والتقاليد ، والوطن ، والاقتصاد ، وإلى حد كبير مع العالم ومنتجاته ومدخلاته الكثيرة. إلا أن الأهم من ذلك هو أن السرد والاستخدام الشعري للإعلام والقضايا التي تُبعد الأدب عن اهتماماته المعتادة وتوجهه نحو آفاق جديدة ، توضح العلاقة التبادلية بين الإبداع الأدبي وسياقاته. إن انهماك الحداثة الأدبية والمخاوف الاستطرادية لما بعد الحداثة لم تعد الوحيدة في أذهان الكتّاب. فالمواضيع على المحك حاليًا تتعلق بالهوية ، والحقيقة والمضمون الإقليميين ، إلى جانب التقاليد والثقافة التي يعتز بها الفرد. ولابد من دراسة هذه المواضيع من منظور تاريخي مركّز ومدرك كما يأخذ بالحسبان التوجه من الاستعمار والدولة القومية نحو واقع عالمي ذي أهداف مختلطة وعواقب بعيدة المدى. وفي حين أن النظام العالمي حقيقة على أرض الواقع ، يمثل فهم تداعياته والتعامل معها على الصعيد الإبداعي والتمثيلي أكثر من تحدٍّ وحيد ، الأمر الذي سيُبقي الأدب والثقافة العربيين على أهبة الاستعداد لمدة من الزمن.

المقالات المترجمة من اللغة الفرنسية

الحِداد في الرِّواية والسِّيرة الذّاتية

من استرجاع الذِّكرى

إلى إصلاح الذَّاكرة[1]

تأليف: أ. آن ستراسر

ترجمة: أ. روز كلش

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الفرنسية

[1] أصل هذه الدراسة هو: " Le deuil dans le roman et dans l'autobiographie : du ressassement à la réparation "، للباحثة Anne Strasser. و قد نشرت في العدد الأول من المجلد السابع من مجلة de la revue @nalyses الصادرة عام 2012 .

تعود عبارة "أدب الحداد" قبل كل شيء إلى محتوى ما. فعلى غرار مصطلح "حداد" نفسه، تتناول هذه العبارة الموت وفقد شخص عزيز، وكذلك تغطي الألم النّاتج عن ذلك، بالإضافة إلى الوقت الذي يستغرقه هذا الحداد، أو بالأصح الذّي يُختبر فيه هذا الإحساس وأيضاً وبشكل غير مباشر، إمكانيّة "القيام بالحداد"، أي التسليم بهذا الفقد.

لكن ما هو "الشّكل"، أو بالأحرى الأشكال التي يشملها أدب الحداد ؟ وهل لاختيار النّوع الأدبيّ تأثيرٌ على التّعامل مع الحِداد في النّتاج الأدبيّ ؟

تكشف هذه الدّراسة عن فروقات بارزة بين نوع الأدب الرّوائيّ، وأدب السّيرة الذّاتيّة. في الواقع، إذا كان وجود "حِداد بلا نهاية" يُبرهَن في عدّة روايات، فإنّ أدب السّيرة الذّاتيّة يبدو منحازاً أكثر لفكرة التّخطي والإصلاح لهذا الحداد.

وسيتمّ البحث في هذه الفرضيّة من خلال بعض الأمثلة. من المؤكد أنّه إذا أردنا أن نستخلص قاعدة للنّوع الأدبيّ في مجال الحِداد، فإنّه ينبغي إجراء مسح شامل لروايات الحداد المعاصرة، وهو أمر لا نطمح إليه في هذا المقام. إذ الأمر مرتبط بدراسة الاختلافات الجوهريّة التي ترافق مسيرة الكتابة، وليس معالجة القصص. هكذا. ستُجرى هذه الدّراسة من خلال عدد من روايات فيليب كلوديل Philippe Claudel وهي أتخلّى J’abandonne وميز النسيان Meuse l’oubli والأرواح الرّماديّة Les Âmesgrises وكذلك رواية الجرف Falaises لأوليفييه آدم Olivier Adam بالإضافة إلى المنزل الدّافئ Sweet Home لأرنو كاترين Arnaud Catherin .

وكذلك من خلال تناول بعض روايات السّيرة الذّاتيّة مثل المكان La Place، وامرأة Une Femme لأني أرنو Annie Arnaud والرّجل الذّي كان يحبّني بصمت L’Homme qui m’aimait tout bas لإيريك فوتورينو Eric Fottorino.

لا شك في أنّ هذه الأعمال تُظهر نقاط التقاء مؤكّدة بين هذين النوعين من الكتابة، نقاط التقاء تعبيريّة قبل كل شيء. إنّ الكتابة عن الحِداد، مهما كان نوعها، هي كتابة

بصيغة المتكلّم المفرد. كذلك، كثيراً ما يتوجه الرّاوي إلى متلقٍّ غالباً ما يكون هو الفقيد في معظم الأحيان، فالرّاوي في رواية الأرواح الرّماديّة Les Âmesgrises يوجّه قصّته إلى زوجته كليمنس Clémence التي توفيت أثناء الولادة، بينما يتوجّه الرّاوي في "ميز النّسيان" Meuse l'oubli إلى رفيقته بول Paule التي رحلت.

أمّا الرّاوي في أتخلّى J'abandonne، المفجوع لوفاة رفيقة دربه، فهو يجعل من روايته التماساً طويلاً لابنته الصّغيرة ذات السّنتين من العمر. كذلك، يتوجّه الرّاوي في رواية الجرف FalaisesLes إلى أمّه التي انتحرت عندما كان في العاشرة من عمره ملقية بنفسها من فوق جُرف، تماماً. كما يتوجّه الرّاوي الأساسيّ في رواية Sweet Home إلى الأمّ المنتحرة حين كان في الخامسة عشرة من عمره، وتشارك أخته التّوأم والأخ الأصغر في سرد هذه الرّواية المؤلّفة من أربعة أجزاء:" كتاب ليليLily" و"كتاب فينسان Vincent " و"كتاب مارتن Martin " ومن "خاتمة".

وأما في السيرة الذاتية فيستخدم المتكلم الضمير "أنا" في سرده، وكذلك نجد توجّهاً بالكلام إلى الفقيد بشكل عام: يستدعي إريك فوتورينو والده في رواية "الرّجل الذي كان يحبّني بصمت" L'Homme qui m'amait tout bas.

نجد أيضاً الكتابة حاضرة في جميع هذه الرّوايات: بطريقة متوقّعة في السّيرة الذّاتية، حيث لا يُغفل الكُتّاب عن إحالتنا إلى وقت الكتابة ولاسيّما إلى الدّور الذي يخصّصونه للكتابة وبطريقة متوقّعة أقلّ من سابقتها في الرّوايات، حيث يلجأ الرّواة المفجوعون إلى الكتابة بأشكال مختلفة. فيتوجّه راوي "الأرواح الرماديّة" إلى كليمنس. ويُسوِّد راوي "ميز النسيان" صفحات دفاتر صغيرة احتفاءً ببول، بينما يكتب راوي "أتخلّى" رسالة إلى ابنته. أما في روايات أوليفيي آدم، وأرنو كاترين، فالرّواة هم كتّاب أصلاً. يثبت حضور الكتابة هذا "أنّه ما من كتابة لا تتشكّل أو تعمل في ظلّ الموت" (إرنستErnst، 1988، ص. 182).

غير أنّ وراء نقاط الالتقاء هذه، يبدو النّوع الرّوائيّ يُعنى باسترجاع الذّكرى وبالمعاناة، ويُظهر حداداً إن لم يكن من المستحيل تجاوزه فهو على الأقل حرج.

في المقابل، يبدو أن السّيرة الذّاتية تعمل في سبيل نوع من الإصلاح وتتموضع بحزم إلى جانب الحياة. ويمكن إيضاح هذه الفروقات على ضوء خصوصيّة هذين النّوعين الأدبيّين، من ناحية كتابتهما، كما من ناحية تلقّيهما.

الرّواية: حِداد "في المعاناة"

نجد في هذه الرّوايات الإشارات "التّقليديّة" للحِداد: معاناة، وإحساس بالاغتراب عن العالم، وبشيء من الموت، وحتى رغبة في الموت. لن نأتي على عرض هذه الإشارات هنا لنركّز على ما يجعل من الحِداد حِداداً "لا نهاية له" بشكل خاص.

هكذا يتمّ التّعبير عن هذا الحداد الغارق في المعاناة عبر شكل من أشكال الحِداد المعمّم، وأيضاً عبر عدد من الصّور، وكذلك عبر نهاية للرّواية تتّسِم باستحالة الوصول للارتياح.

يمتدّ الحداد، في هذه الرّوايات إلى أشخاص آخرين غير الرّاوي، ما يشير إلى طابعه القهريّ. يعمل الرّاوي في رواية "أتخلّى" في مستشفى حيث يُكلَّف بإعلان خبر وفاة أحد الأقرباء للأهل ثم بإقناعهم بالتبرع بأعضاء المتوفى . تدور أحداث الرّواية على مدى يوم واحد، حيث يجد أمامه امرأة فقدت للتّو ابنتها المراهقة.

كما أنّ رواية "الأرواح الرّمادية" غارقة في الموت. وتتعلّق الحبكة الأساسيّة فيها بجريمة قتل لم تتّضح تفاصيلها وضحيّتها طفلة صغيرة تدعى بل دو جورBelle de Jour أمّا خلفيّة الرّواية فهي الحرب العالميّة الأولى. أحد أبطال القضيّة، يدعى بيير آنج ديستيناPierre-AngeDestinat، وهو رجل يعيش معزولاً عن العالم في حالة حِداد "لا نهاية لها" على زوجته كليليسClésis :" كانت حياة ديستينا تبدو وكأنها تتبع لطقس ثابت، بين قصر الفـV. والمقبرة حيث يزور كل أسبوع قبر زوجته والقصر حيث كان يبقى منكفئاً على نفسه كما لو كان غير مرئي، في عزلة عن العالم الذي نسج حوله، شيئاً فشيئاً، ثوبَ أسطورة متجهّمة". (الأرواح الرّماديّة، ص. 42_43). يقدّم ديستينا مأوى مؤقتاً لمعلّمة شابّة تدعى ليزياLysia ويتعلّق بها كثيراً. تشنق المرأة الشّابة نفسها عندما يَبْلُغها خبر موت خطيبها في الحرب، فيعيش ديستسنا حداداً آخر.

كذلك في رواية "ميز النسيان"، يواجه أشخاص آخرون الحِداد: المرأة التي تأوي الرّاوي والتي توفّي زوجها في الحرب وبائع التّبغ الذي غرق أبناؤه الخمسة، وانتحرت زوجته بعد ذلك بفترة وجيزة. غالباً ما يزور الرّاوي المقبرة أيضاً، حيث يتحاور مع حفّار القبور. القرية غارقة في الموت:" تعلمون، إن فـِـيل Feil هي الآن مدينة حزينة، وكأنّ النّهر هو الوحيد الذي لا يزال يتحرّك قليلاً، وأما نحن فأموات كبيوتنا". (ميز النسيان، ص. 46).

أخيراً في رواية "الجُرف"، هنالك أنواع أخرى من الحِداد تطارد الرّاوي: الحِداد على نيكولا Nicolas، صديق الطّفولة الذّي انتحر بسبب والده العنيف، وأيضاً الحِداد على ليـــا Léa، الشّابة التّي التقاها في باريس، والتي انتحرت هي الأخرى.

يمكن أن يُعبَّر أيضاً عن عدم تجاوز الحِداد وتخطيه من خلال بعض الصّور. من هنا، صورة الطّفولة المُلحّة. يكتب الرّاوي في "الأرواح الرّماديّة" وهو يتهيّأ للتّحدث عن موت كليمنس :" تجاوزت الخمسين من عمري لكنّني أشعر كما لو كنت صبياً يملؤه الرّعب". (الأرواح الرماديّة، ص.170)

كذلك، يقول الرّاوي، في رواية "الجرف"، مع اقترابه من الثّلاثين:" كنت أنا نفسي أجهل عمري، كانت حياتي قصيرة جدّاً ولم أكن قد عشت إلا القليل، لم أكن سوى طفل، كنت في الحادية عشرة من عمري، وكانت أمّي قد ماتت، كان العالم ملفوفاً بالصّقيع وكنت أرتجف، كنت بحاجة إلى أن يعانقني أحدهم ويهدّئ من روعي، إلى أن يهدهدني ويدفئني قليلاً". (الجرف، ص. 136-137)؛ وكذلك يردّد فينسان: "كبرنا أنا وليلي لكنّنا بقينا هذين الطّفلين، متحدّان في فقد أمّي كما في اليوم الأوّل في أحشائها." (المنزل الدّافئ، ص. 103).

تضاف إلى صورة الطّفولة هذه، صورة الفراغ الذي يتعذّر ملؤه، كما يشرحها الرّاوي في "الجُرف :" أنا ليل أسود، أنا حافّة جرف، حياة غارقة، مطلّة على الفراغ وبلا دوار" (الجرف، ص.129). يمكن لهذا الفراغ أن يصبح ثقباً أو تجويفاً:" الثّقب الذّي أحدثه (موت أمي) في داخلي" (الجرف، ص.171)، "كالثّقب الذي تحدثه أمي في بطني، كذلك الذي تحدثه طفولتي: بصمة، هوّة [...]" (الجرف، ص.174).

نجد الفراغ نفسه في "المنزل الدّافئ": "هذا كلّ ما علينا فعله، التّظاهر بإخفاء نصف الفراغ الذّي ألمّ بنا ". (المنزل الدّافئ، ص.76) .

تعدّ صورة السّقوط لصيقة بهذا الفراغ: يكتب الرّاوي في "الأرواح الرّماديّة" وهو على وشك التّحدّث عن الطّريقة التي ماتت بها زوجته:" أصل إلى ذلك الصّباح الكريه، إلى توقف كل السّاعات. إلى ذلك السّقوط الأبديّ." (الأرواح الرّماديّة، ص. 170). يكتشف زوجته ميْتة:" سقطتُ أرضاً. سقطتُ. لا زلت أسقط، لم أعد أحيا إلاّ في هذه السّقطة. أبداً". (الأرواح الرّماديّة، ص. 173).

أخيراً، تُظهر بعض الاستعارات جهود الشّخصيات العقيمة "لإعادة لُحم" حياتهم التّي مزقها وفرقها الموت:" كل هذا يبدو مشوّشاً كانتقال فوضويّ، لكنّه في العمق، على صورة حياتي التي لم تكن مركّبة سوى من قطع حادّة من المتعذّر إعادة لحمها.[...] ما الذي يمكنني فعله سوى استعادة الأغطية القديمة ورتقها قليلاً، أيضاً وأيضاً؟" (الأرواح الرّماديّة، ص. 109).

وعلى هيئة قصور الرّمال التّي كان يشيّدها مارتن في طفولته ـــ " لطالما أعجبني العناد الهادئ لدى مارتن الذي يعرف تمام المعرفة أبنيته المنذورة للخراب" (المنزل الدّافئ، ص. 123) ـــ يكتب فينسان في الخاتمة:" مهما قد نقول، فلن تتمكّن أبنيتنا المحفوفة بالمخاطر من الاستغناء عنها ". (المنزل الدّافئ، ص.212).

إنّ رفض الموت أو بالأحرى إنكاره يسهم في التّعبير عن الحِداد الذي لا نهاية له. هكذا، يرفض الرّاوي في "الجُرف" موت والدته:" لم أكن أبداً لأصدّق أنّ هذا النّعش الخشبيّ الطويل يلمع قد احتوى يوماً جسد أمّي المحطّم . ولا زلت لا أصدّق ذلك". (الجرف، ص. 51). تتحوّل العودة التّقليديّة لصور الفقيد إلى أشباح حقيقيّة:" في السّنوات الأولى، تخطّى ظهورها شبه اليوميّ نطاق الأحلام والكوابيس والذّكريات أو الذّاكرة، ليصل إلى نطاق الهذيان". (الجرف، ص. 45). بعد موت الأمّ بخمس عشرة سنة، يذهب الرّاوي إلى اللّحاق بامرأة تشبهها ويدنو منها.

كذلك نجد الرّفض نفسه لدى فينسان في رواية "المنزل الدافئ:" من المستحيل بالنّسبة إلينا تقبّل حقيقة أنّ تلك اللّيلة الهائجة والدّامعة قد تنقشع، كان يلزمنا سنوات لذلك، سنوات من الغياب، بقيت فيها الحياة والرّغبة على الموعد تماماً، كان يلزمنا سنوات لمجرّد التّحرّك." (المنزل الدّافئ، ص. 88).

في النّهاية، تشير خاتمة الرّوايات في معظم الحالات إلى استحالة تجاوزالحِداد. إذا كان الرّاوي في "ميز النّسيان" قد وجد شكلاً من أشكال التّهدئة، وإذا كان راوي "أتخلّى" قد تراجع عن الانتحار- "يجب أن أعيش لأجلك". (أتخلّى، ص. 104)-، يبقى راوي "الجرف" مسكوناً بغياب أمّه، ويستنتج قائلاً:" كان يبدو لي أحياناً أن المعنى الخفيّ لحياتي يكمن هنا، في الهروب من أبي، والبحث إلى ما لا نهاية عن أمّي الهاربة." (الجُرف، ص. 190) .

وفي رواية "المنزل الدّافئ"، يستمرّ الموت في القرع على الصّدور- "كما الضّجيج الأصمّ الذي كان قد يصدره قرع رؤوسنا على إسمنت حائط لن نتغلّب عليه أبداً". (المنزل الدّافئ، ص. 136)- وتنتهي الرّواية على وقع هذه الجملة الرّهيبة:" لو كان الموتى قادرين على وضع خاتمة ". (المنزل الدّافئ، ص.219)، التي تصف الحِداد الذي "لا نهاية له"، تماماً، لأنّه من دون خاتمة.

وتنتهي الأرواح الرّماديّة بطريقة متطرّفة. إذ لم يستطع الرّاوي تحمّل تربية الطّفل الذي أنجبته كليمنس فقتله:" كان بكلّ بساطة قاتلكِ، قاتل صغير بلا ضمير أو ندم، عليّ أن أعيش معه وأنتِ لم تعودي هنا". (الأرواح الرّماديّة، ص.281). بعد أن "روى" هذه الجريمة كتابياً لكليمنس، انتحر:" هذا كل شيء، لم يعد لديّ ما أقوله. لقد قلت كلّ شيء، اعترفت بكلّ شيء. كان الوقت قد حان لذلك. يمكنني الآن الانضمام إليكِ". (الأرواح الرّماديّة ص. 285) . إنّه ارتداد لما فعله ديستينا المتّهم بقتل بل دو جور:

عندما أتخيّل [...] المشهد الذي حدث، والمشهد الذي لم يحدث، أقول في نفسي إنّ ديستينا لم يكن يخنق طفلة، وإنّما ذكرى، معاناة، وأنّه فجأة بين يديه، تحت أصابعه، كان شبح كليمنس وشبح ليزيا فيرهارين. كان يحاول لوي عنقهما للتّخلص منهما إلى الأبد حتّى لا يراهما بعد ذلك، حتّى لا يسمعهما بعد ذلك أحد، حتّى لا يقترب منهما بعد ذلك في لياليه

وهو لا يستطيع الوصول إليهما، وحتّى لا يحبهما بعد ذلك عبثاً. من الصّعب قتل الأموات. (الأرواح الرّماديّة، ص. 273-274).

فشل الحِداد في هذه الرّوايات ممّا يؤدّي إلى التّشكيك في سلطة الكتابة. هكذا يستنتج راوي "الأرواح الرّماديّة:" مؤلمة هي الكتابة. أدركت ذلك حين شرعت بالكتابة منذ أشهر. إنّها تؤلم اليد والرّوح. لم يُخلق الإنسان لهذا العمل ؟ ثمّ أي فائدة أجنيها من ذلك؟" (الأرواح الرماديّة، ص.233).

وكذلك يكتب راوي "ميز النّسيان:" أعبّئ السّخام الغازيّ بركام من جمل غير ملائمة، لا ذنَب لها ولا رأس [...] تجهد في قول حبّي لبول ومعاناتي دون أن تصل إلى ذلك أبداً". (ميزالنّسيان، ص. 115). لم يتوصّل أيضاً فينسان إلى كتابة الكتاب "المستحيل" (المنزل الدّافئ، ص.115) حيث سيكون بإمكانه كشف سرّ هذه العائلة- مارتن ليس ابن الأب وإنّما ابن العمّ ريموRemo- وبالتّالي التّخلّص من الاستفسار المتعلّق بموت الأمّ.

هكذا، تعرض هذه الرّوايات حِداد الشّخصيات التّي تعيش أبداً في "وحشيّة الفقد" (المنزل الدّافئ، ص. 161). إنّ نبرة على هذا القدر من الألم لا نعثر عليها في السّيرة الذّاتيّة.

السّيرة الذّاتية أو الانحياز إلى الحياة

تتضمّن الكتابة عن الحِداد في السّيرة الذّاتيّة حاجة ملحّة تهدف إلى إعادة إحياء الفقيد، وإلى تجاوز القطيعة التّي أحدثها موته.

كتبت أني إرنو رواية "المكان" بعد موت والدها بسنوات إلّا أنّها بعد هذه الوفاة بأسابيع، قالت لنفسها: "سيكون عليّ أن أشرح كلّ ذلك" (المكان، ص. 23).أصبحت الرّغبة في الكتابة أكثر إلحاحاً بعد موت والدتها فانتقلت بسرعة إلى "الكتابة الفعل": غداً ستكون قد مرّت ثلاثة أسابيع على الدّفن. قبل أمس فقط، تخطّيت الرّعب من الكتابة ودوّنت في أعلى صفحة بيضاء، كبداية كتاب، وليس كبداية رسالة إلى أحدهم، "ماتت أمي". [...] سوف أستمرّ في الكتابة عن أمّي. [...] لست قادرة حالياً على القيام بشيء آخر." (امرأة، ص.21-22).

يكتب إيريك فوتورينوEric Fottorino، ابتداء من الفقرة الثّانية من "الرّجل الذي كان يحبّني بصمت:" لا أدري ما الذي يدفعني إلى كتابة هذه السّطور، وإلى الاستمرار. كلّ شيء مبهم وشديد الوضوح في آن واحد". (الرّجل الذي كان يحبّني بصمت، ص. 11). تظهر الكتابة هنا كضرورة ملحّة بعيدة كلّ البعد عن العزاء الذي يبحث عنه الرّواة عبر الكتابة في الرّوايات التّي تتناولها دراستنا هذه.

كذلك، إذا كانت هذه الرّوايات تستكشف توبوس الموت، أي سرد اللّحظات الأخيرة ووصف الجسد الميت وكلّ الحركات والشّكليات التّي ينبغي تأديتها، فالكتابة تتّجه أيضاً إلى الحياة، بمعنى أنّ الأمر يتعلّق بإعادة الحياة إلى الفقيد، بـ"بعثه". هكذا، في رواية المكان، تركّز أني أرنو على سرد قصّة حياة والدها:" لم يكن يشرب. كان يسعى إلى البقاء في مكانه، وأن يبدو تاجراً أكثر منه عاملاً." (المكان، ص. 45). وهو نفس النّهج الذي يحرّكها في رواية امرأة: "أودّ أيضاً الإمساك بالمرأة التي وُجدت خارج كياني، المرأة الحقيقيّة التي ولدت في حيّ ريفيّ من أحياء مدينة النّورماندي الصغيرة وماتت في قسم الشّيخوخة في إحدى المستشفيات". (امرأة، ص.23). تكرّس صورة الولادة هذا القصد من كتابتها:" يبدو لي الآن أنّني أكتب عن أمّي لألدها بدوري." (امرأة، ص. 43). إنّ كتابتها عن أمّها تجعلها تحتفظ بها على قيد الحياة:" أنا لا أكتب عنها، لديّ بالأحرى انطباع بأنّني أعيش معها في وقت وأماكن هي فيها على قيد الحياة" (امرأة، ص. 68).

ويركّز إيريك فوتورينو هو الآخر على إعادة إحياء والده، فهو أوّلاً يعيد قراءة الرّوايات التي كتبها، والتي استلهم إحدى شخصياتها من والده:" الآن أجده في كتبي. هنا، هو يعيش في الهواء الخفيف للصّفحات التي تُطوى، في رائحة الحبر والورق. [...] أن تطوي صفحة هو عكس أن تجعله يختفي؛ إنّ في ذلك إعادة إحياء، بعث، صوت ما، صوته، طيفه، نظرته، لطف وسط صمته الجَلِف". (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص.76).

يقول المؤلّف إنّ والده حاضر في كلّ مكان، إلا أنّ كليّة الوجود هذه ليست تلك التّي نجدها في الرّوايات التي تناولتها دراستنا، حيث لا يُذكر ظهور الأمّ الميتة إلا بغيابها. هنا، الحضور حياة:" في كل مكان أبي، في كل مكان، في كل وقت، عبر كل الأوقات. [...] أغمض

عينيّ فيظهر، إنه ليس بشبح بل على العكس تماماً". (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص. 49).

في النّهاية، تملك كتابة السّيرة الذّاتية القدرة على الإصلاح بالمعنى الحقيقيّ للكلمة تقريباً، إذ أنّها تأتي لتعويض صمت ولوصل ورتق أجزاء من الحياة. تسلّط أني أرنو الضّوء في رواية "المكان" على جملة لجان جينيه Jean Genet:" أجازف بشرحٍ: الكتابة هي الملجأ الأخير عندما نكون قد خنّا". هذه الخيانة، هي "هذه المسافة التّي حلّت في المراهقة بينه وبيني، مسافة طبقيّة ولكنّها مميّزة ولا اسم لها " (المكان، ص. 23) وهذه الخيانة هي أيضاً الانفصال عن عالم الوالدين، عالم المسَيطَر عليهم لدخول عالم "المسيطِرين": "انتهيت من إخراج الإرث الذي كان عليّ وضعه على عتبة العالم البورجوازيّ إلى النّور ومن صقله عندما دخلت هذا العالم ". (المكان، ص.111).من الممكن أنّه تمّ تخطّي الخيانة في الصّورة التّي تكرّس الأب كـ"معدّ" بين هذين العالمين:" كان [الوالد] يصطحبني من البيت إلى المدرسة على درّاجته، معدّ بين ضفّتين، تحت المطر والشّمس." (المكان، ص. 112).

تقوم هذه الرّواية أيضاً بإصلاح الصّمت الرّابض بينهما:" ربّما أكتب لأنّه لم يعد لدينا ما نقوله لبعضنا البعض ". (المكان، ص. 84). كذلك، تسمح كتابة رواية "امرأة" بالتّوفيق بين صور متباينة لأمّها:" أثناء الكتابة، أرى الأمّ "الطيّبة" حيناً و"السّيّئة" حيناً آخر. وللنّجاة من هذا التّأرجح الآتي من أقاصي الطّفولة، أحاول أن أكتب، وأن أشرح كما لو كان الأمر يتعلّق بأمّ أخرى، وبفتاة قد لا تكون أنا". (امرأة، ص. 62) وأيضاً:" أعرف أنّني لا أستطيع العيش من دون أن أجمع بالكتابة بين المرأة المجنونة التّي صارت إليها أمّي، والمرأة القويّة والمضيئة التي كانتها ". (امرأة، ص. 89). وأخيراً:" في الأسبوع الذي تلا، كنت أرى يوم الأحد هذا، حيث كانت حيّة، الجوارب البنيّة، نبتة الفرسيثية، حركاتها، ابتسامتها عندما قلت لها إلى اللّقاء، ثم الاثنين، حيث كانت قد ماتت، نائمة في سريرها. لم أكن قادرة على الجمع بين هذين اليومين". ثم تخْلُص إلى القول :"الآن، كل شيء مرتبط ببعضه ". (امرأة، ص. 103)

لقد سمحت الكتابة بقول ما لا يُعقل وبالانتقال من الوجود إلى اللاوجود.

عند فوتورينو، تأتي الكتابة أيضاً لإصلاح الصّمت. تعطي مقدمة مونترلان Montherlant تفسيراً:" إنّ الكلمات التّي لم يقولوها هي التّي تجعل الموتى ثقيلين في تابوتهم." هذه الكلمات التّي لم يقلها الأب، والتّي كان من شأنها إعطاء تفسيراً لانتحاره، ولكن أيضاً تلك التّي لم تُقل أصلاً :" كان ينبغي أن نتكلّم معاً. لم نعد نتكلّم منذ وقت طويل ما يُسمّى بالكلام ". (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص.143). وبإعادة قراءة رواياته تبدأ عمليّة الإصلاح:" كلّما كنت أعيد قراءة ما كتبت ارتبطت به أكثر." (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص. 81). إنّ الكتابة هي إعادة بناء :" أتذكّر كل شيء. أبني ما هو عكس القبر، ولكنّه ليس مهداً بل صرحاً من ورق من الأشياء القديمة؛ كان أبي يحبّ الأشياء القديمة والقصص الخرافيّة." (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص. 60). يربط هذا البناء ما قبل الموت بما بعده:" لم ينقطع الخيط لأنّني وجدته سليماً عبر طاقة الكلمات التّي تلد صوراً وأصواتاً تعيد إحياءه" (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص.109). في نهاية إعادة البناء هذه، حتّى وإن كان الرّاوي، كما يذكر "قد حمّل الكثير على الكتابة" (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص. 143) لأنّها لم توضح تماماً "تلك الرّغبة المبهمة في الموت" التي كانت تسكن والده، فقد أنهى الرّواية بوداع هادئ للأب الرّاحل:" رحلت هذه المرّة إلى الأبد. إلى اللّقاء، أبي، سلاماً، لا وداعاً، قد تفوتنا فرصة اللّقاء ". (الرّجل الّذي كان يحبّني بصمت، ص. 148).

هكذا نجد أن في نصوص السّيرة الذّاتية، لا يكون الحِداد من دون نهاية، بل إنّه ينتهي بفضل الكتابة تحديداً.

نهاية الحِداد: مسألة مرتبطة بالنّوع الأدبيّ

تبدو الاختلافات التّي استخرجناها سابقاً مرتبطة ارتباطاً مباشراً بـ"المواصفات" الخاصّة بهذين النّوعين الأدبيين. في مدوَّنتنا، ترتبط الرّواية - ممارسة الخيال- أكثر بالإستيهام، أي قذف مخاوف الكاتب التي هي أيضاً مخاوف القارئ.

من جهتها، تضرب السّيرة الذّاتية جذورها في الواقع، لأنّها تنطلق من موت شخص "حقيقيّ"[1]، ممّا يؤثّر في اختيار النّوع بنفس القدر الذي يؤثر فيه على الدور الذي يخصّصه الكاتب لقصّته. المفارقة هنا أنّ الرّواية تبدو أكثر نرجسيّة من السّيرة الذّاتيّة.

إنّ الرّواية، إذا ما حاولنا تعريفها ببساطة، هي سرد لأحداث خياليّة. وهي أيضاً ثمرة خيال كاتبها الذّي يمكنه إسقاط مخاوفه عليها، والخوف من فقدان الشّخص العزيز هو أكبر أنواع الخوف وذلك منذ الطّفولة. هكذا، فإن خيال فيليب كلوديلPhilippe Claudel ـــ إذا ما تجاوزنا الرّوايات المذكورة ـــ مسكون بموت الرّفيقة أو الابن[2]. كذلك، تصوّر لنا أغلب روايات أوليفييه آدم Olivier Adam شخصيّة رئيسيّة في حالة حِداد[3]. يسترجع هؤلاء الكُتّاب الفقد من عمل لآخر.

ربما يكون الكاتب شخصاً مهووساً بالفقد. بعد إدراكه خوفه من موت أمّه، يختم فرانسوا فيرغانز François Weyergans قصّته، "ثلاثة أيام عند أمّي" Troisjours Chez ma mère، التي تحمل أصداء السّيرة الذّاتية بشكل بارز، قائلاً:" كنت أقول في نفسي أنّ المرء لا يكتب إلا إلى أمّه، وأنّ الكتابة والأمّ مرتبطتان، وأنّ الكاتب يهدي صفحاته ليس إلى تلك التي شاخت، بينما هو في عمر الكتابة والنّشر، وإنّما إلى المرأة الشابّة التي ولدته، تلك التي فُصل عنها يوم ولادته". (2005، ص.257).

ويشرح ميشال بيكارMichel Picard، في بحثه الأدب والموت إنّ "الفقد هو الحدث الأكثر إيلاماً الذي يتعرض له الإنسان" (1995، ص. 167). باستعادته لهاجس الفقد،

---

[1] من المؤكّد أن بعض الرّوايات ترتكز أيضاً على موت أشخاص حقيقيّين لكنّ اختيار النّوع الأدبيّ للتّحدث عن هذا الموت هو لأمر حاسم. إنّ التحدّث عنه من خلال الرّواية أومن خلال السّيرة الذّاتيّة ليس مماثلاً لا بالنّسبة إلى الكاتب ولا بالنّسبة إلى القارئ. يمكننا أن نذكر الجدل الذي وضع كامي لورنس Camille Laurens بمواجهة ماري داريوسكMarie Darrieussecq بخصوص رواية هذه الاخيرة التي تحمل عنوان *مات تو*م *Tom est mort*، إذ اتهمت الأولى الثّانية بسرقة السّيرة الذّاتيّة التي كتبتها والتّي تحمل عنوان فيليب *Philippe*، "نفسيّاً"، خاصّة أنّها لم "تعش" هي نفسها موت ابن من أبنائها.

[2] نجد هذه المواضيع في أعمال أخرى له: *ابنة السّيد لين الصّغيرة* *La Petite fille de Monsieur Linh*، التّي تصوّر لنا لاجئاً قادماً من آسيا يحمل باستمرار بين ذراعيه ابنته الصّغيرة. ويتبيّن لنا في الواقع، في نهاية الرّواية أن ما يحمله ليس سوى دمية فهذا الرّجل لم يتخطّ "حداده" على موت ابنته الصغيرة. أمّا فيلمه الذّي يحمل عنوان*أحبّك منذ زمن طويل* *Il y a longtemps que je t'aime* فهو يروي قصّة امرأة كانت مسجونة، فقدت ابنها وعادت للعيش مع أختها. لا يستقي هذا الكاتب مواضيعه من تجربة شخصيّة- ما من شيء في مقابلاته أو في ما يحيط بالنصّ يجعلنا نعتقد ذلك- إلّا أنّه كما يبدو يسترجع هذا الخوف من الفقد من عمل إلى آخر.

[3] تقصد الرّاوية في رواية *قلب عادي* *Un Coeur régulier*، وهي روايتها الأخيرة، اليابان بعد وفاة أخيها التّي لا تستطيع تخطّيها؛ يقرر راوي *الرّياح المعاكسة* *Les Vents contraires* أن يغيّر سكنه برفقة ولديه بعد اختفاء والدتهما التّي نكتشف في النّهاية أنّها ماتت. الشّخصيّة الرئيسيّة في *أنا بخير، لا تقلق* *Je vaisbien, ne t'enfais pas* هي مراهِقة تنتظر عبثاً عودة أخيها الذّي لا تعرف أنّه قد مات.

يجد الرّوائي صدى لدى القارىء الذّي هو أيضاً فريسة لهذا القلق[1]. ونجد هذا التّحليل مرة أخرى لدى فينسان جوف Vincent Jouve :" وُجدت الرّواية لتعويض نقص ما أو غياب. تنبع كآبة القارئ، وحاجته الى ملء الفراغ من "حنين إلى شّيء مفقود"، وهذا ما وصفه علم النّفس التّحليليّ. تشكّل الأمّ هنا هذا الشّيء المفقود ". (1998، ص. 90).

من ناحية أخرى، تلعب السّيرة الذّاتية دوراً مختلفاً لدى الكاتب والقارئ. إذ تتحدث السّيرة الذّاتية عن موت "شخص حقيقيّ"، وهذا أمر أساسيّ، فالكاتب كما القارئ يواجهان هنا الموت الحقيقيّ وليس الموت الخياليّ. وإنّه لأمر ذو مغزى أن يلجأ بعض الروائيّين إلى السّيرة الذّاتية للتّحدث عن وفاة والدهم أو والدتهم، وأن لا يقوموا بذلك بالالتفاف حول الخيال. تشرح أني أرنو في بداية رواية "المكان"، :" بعد ذلك، بدأتُ رواية كان هو [والدها] الشّخصيّة الرئيسيّة فيها. ظهر شعور بالضيق والاشمئزاز في خضمّ السّرد، وعرفت أنّ الرّواية مستحيلة." (الساحة، ص. 23-24).

تولد السّيرة الذاتيّة، كما تشرحها في الأدب كسكّين La Littératurecomme un couteau، من رحم الألم، الألم الذي وُلد من ابتعادهما في مرحلة المراهقة، وإنّما أيضاً "ذلك الذي شعرت به عندما خسرته بقسوة". (2003، ص. 33). يبيّن إريك فوتورينو جيّداً كيف سرد حياة والده في أعماله الأدبيّة السّابقة وكيف فرضت السّيرة الذاتيّة نفسها عندما تعلّق الأمر بالحديث عن موته[2]. غالباً ما يبدو الموت محرّكاً للسّيرة الذّاتيّة وهذا دليل أنّ تجربة الموت والحِداد الحقيقيّة ترافق الكتابة في فكرتها الأولى، كما في هدفها على حدّ سواء:" إنّ مشروعي أدبيٌّ، إذ إنّ الأمر يتعلّق بالبحث عن حقيقة متعلّقة بأمّي يتعذّر بلوغها بغير الكلمات. [...] لكنّني أودّ البقاء بطريقة ما، تحت الأدب". (امرأة، ص.23).

من ناحية أخرى، تخشى السّيرة الذّاتيّة، في مواجهة الموت الحقيقيّ لكائن عزيز، أن يختفي مع هذا الكائن جزء من ماضيه الخاص. إنّ دور الكتابة إذن هو إنقاذ هذا الماضي، لذا نجد روايات الحِداد مأهولة بالذّكريات، ذكريات الطّفولة تحديداً. ويتعلّق الأمر بالحفاظ

[1] في الواقع، حسب رأي بيكاردPicard، القراءة هي عبارة عن نشاط للمتعة شبيه بـ"نوع من فور/دا معقّد". تدلّ هذه العبارة على لعبة المكّوك التّي وصفها فرويد Freud، حيث يستمتع الطّفل برمي مكّوك ومن ثمّ البحث عنه، وكأنّه يمارس رمزياً لعبة ظهور/اختفاء الأمّ.

[2] يمكننا هنا أن نذكر لو كليزيوLe Clezio، الرّوائي الذيو، ليستحضر شخصيّة والده، يتّجه إلى السّيرة الذاتيّة في*الأفريقي L'Africain*.

على شكل من أشكال الحياة للكائن المفقود، وكذا لنا أيضاً، بما أنّ هذا الكائن يأخذ معه جزءاً من الذّات. من هنا، البعد المرتبط بشدّة بالهويّة في روايات الحِداد: بالتّساؤل عن الميْت، يتساءل كاتب السّيرة الذّاتيّة عن نفسه، ويحاول استخراج "الإرث"[1] المكتسب من الكائن الذي اختفى.

إنّ السّيرة الذاتيّة هي إذن بطريقة ما "فريدة"، مهمّتها سرد الموت- الفريد - للكائن العزيز، ذلك الموت الذي لا يمكن روايته مرتين. تشرح أني أرنو وهي تتحدّث عن والدها في رواية "امرأة": " لا أستطيع وصف هذه اللّحظات، لأنّني تحدّثت عنها سابقاً في كتاب آخر وأيّ قصة أخرى لن تكون ممكنة، بكلمات أخرى، بترتيب آخر للجمل". (امرأة، ص. 73). لا يموت المرء إلا مرّة واحدة، إذا أمكننا القول. في السّيرة الذّاتيّة ممّا يبيّن أنّ الحِداد يجد، على الأقل في هذا الإنتاج الأدبي، نهايةً. هذا التّحليل يقف عند حدّ الحداد على الابن، إذ تُظهر أعمال فيليب فورست Philippe Forest وكذلك "الذي لا عزاء لها" L'Inconsolable لآن غودارAnne Godard أنّه، في حالة فقد الابن، يبدو الحِداد في الواقع "بلا نهاية".

أخيراً، تظهر الرّواية في ما يتعلّق بالحِداد أكثر نرجسيّة من السّيرة الذّاتيّة. إذ تعرِض الرّوايات الخياليّة التّي تناولناها أشخاصاً مسكونين بفقد غير قابل للإصلاح، ولا يتحوّل إلى ثناء على الفقيد. تركّز هذه الرّوايات على الفقدان والمعاناة والمحاولة اليائسة للنّسيان. من ناحية أخرى نجد أنّ كاتب السّيرة الذّاتية، حرصاً منه على إيجاد استمراريّة ما أو وحدة ما قد قطعها الموت، لا يجتر الألم، بل يحاول تحليله، ويبحث، غالباً، عن معنى. يمكن أن يكون ذلك معنى لحياته، لكن أيضاً وخاصة معنى لحياة الفقيد. كما أنه يبحث عن الإفهام: "لم تعد مجرّد كلمات لي فقط، لتحمُّل الفقد، إنّها كلمات ليفهمها الآخرون." (امرأة، ص. 93). يُدرج ميثاق السّيرة الذاتيّة، كما أشار فيليب لوجونPhilippe Lejeune القارىء في النّص فهو أفق الكتابة. وليس من المدهش أن يتلقّى كتّاب السّيرة الذّاتيّة الكثير من الرّسائل البريديّة بخصوص كتاباتهم، يتوجّه قارئ حقيقيّ إلى كاتب حقيقيّ. أمّا ما يقوم به القارئ قبل كل شيء، فهو شكر الكاتب على موهبته، وفيما يختصّ بالسّيرة الذّاتيّة، شكره على

[1] تقترب هذه الرّوايات من رواية القرابة كما عرّفها برونو فيارBruno Viart وفينسانفيرسييVincent Vercier (2005).

قدرته على جعل إمكانيّة التّماثل والتشارك معه والعزاء ممكنة[1]. يحيلنا كاتب الرّواية بطريقة ما إلى مخاوفنا الدّفينة بينما يقوم كاتب السّيرة الذّاتيّة بدفع القارئ إلى الاستمرار في الحياة، وذلك من خلال وضع نقطة نهائيّة لنصّه، أي نقطة نهائيّة للحِداد.

تسترجع الرّواية "فقداً جافّاً لا يعوَّض" (المنزل الدّافئ، ص.93) فيما تسعى السّيرة الذّاتيّة عن طريق الكتابة إلى إصلاح الفقد بالثّناء على الفقيد وبإنقاذ ما قد يختفي باختفائه، حتّى وإن كان هذا التّحليل صالحاً قبل كل شيء للمدوّنة التّي تتناولها دراستنا وأنّه يحتوي على استثناءات، يبدو لنا أنّه من المفيد أن تنسحب على أعمال أخرى لأنّ خصوصيّة كلٍّ من هذين النّوعين الأدبيّين في التّعامل مع الحِداد مرتبطة بمواصفات كلّ منهما. فكاتب السّيرة الذّاتيّة يعقد ميثاقاً متعلّقاً بهذا النّوع الأدبيّ وكذلك ميثاقاً مرجعيّاً ويتعهّد بالصّدق والصّراحة. أمّا كاتب الرّواية، فليس له أي عقد أو التزام، فبوسعه مثلاً أن يكتب عن موت الأمّ بينما لا تزال أمّه على قيد الحياة. وحيث يستعيد كاتب الرّواية ألمه من دون مُحاوِر، وأما كاتب السّيرة الذاتيّة دائماً في أفق كتابته فهناك قارئ- مُدرَج في النصّ بموجب ميثاق مرتبط بالسّيرة- "يتقاسم" معه آلامه وأوجاعه. هكذا، عندما تصف سيمون دو بوفوارSimone de Beauvoir، تلقّي القرّاء لروايتها موت شديد العذوبة UneMort trèsdouce المخصّصة لذكرى والدتها و "كميّة الرسائل الحارّة الكبيرة" التّي وصلتها، تختتم قائلة:

يروي الكُتّاب غالباً تجارب أليمة أو مؤسفة، ليس بحثاً عن الألم أو محبّة في الاستعراض أو الاستفزاز، بل إنّهم يعمّمون هذه التّجارب عن طريق الكلمات، والسماح للقرّاء بالمشاركة في عزاء أخويّ في عمق أحزانهم الفرديّة. إنّها في رأيي إحدى المهمّات الأساسيّة للأدب، وهذا ما يجعله غير قابل للتغير والاستبدال: التغلّب على هذه الوحدة التي نتشاركها جميعاً، والتي مع ذلك تجعلنا غرباء عن بعضنا البعض. (1972، ص.169).

[1] لقد أجرينا دراسة (2011) عن طريقة تلقّي السّيرة الذّاتيّة عبر رسائل القرّاء التّي نشرتها أنّي دوبريAnnie Duperey (*أكتب لكم*، 1993 *Je vous ecris*) و ماري ديسبليشن Marie Desplechim وليدي فيولي Lydie Violet (*الحياة السّليمة La Vie sauve*، 2005).

ملخّص

نقترح في هذا المقال أن نبيّن من خلال أمثلة مستقاة من أعمال فرنسيّة معاصرة أن لاختيار النّوع الأدبي- سيرة ذاتيّة أو رواية – تأثيراً على التعامل مع الحِداد. تمثّل الرواية في الواقع "حِداداً لا نهاية له" حيث يُسترجع الفقد ويبدو تخطّيه متعذراً. في المقابل، تنحاز السّيرة الذّاتيّة للحياة وذلك بالتّركيز على صورة الفقيد بهدف إعادة إحيائه وإنقاذ جزء الماضي الذّي قد يأخذه الموت، وبالتّالي تخطّي الحِداد. يبدو لنا هذا الفرق مرتكزاً على خصوصيّات كلّ من هذين النّوعين، والمفارقة أنّ الرّواية تظهر في النّهاية أكثر نرجسيّة من السّيرة الذّاتيّة.

المراجع

ADAM, Olivier. (2005), Falaises, Paris, Éditions de l'Olivier. (F)

—. (2009), Vents contraires, Paris, Éditions de l'Olivier.

—. (2010), Un coeur régulier, Paris, Éditions de l'Olivier.

—. (2000), Je vais bien, ne t'en fais pas, Paris, Éditions Le Dilettante.

BEAUVOIR, Simone de. (1972), Tout compte fait, Paris, Gallimard, coll. « Folio ».

CATHRINE, Arnaud. (2005), Sweet home, Paris, Éditions Verticales. (SH)

CLAUDEL, Philippe. (1999), Meuse l'oubli, Paris, Balland. (MO)

—. (2000), J'abandonne, Paris, Balland. (JA)

—. (2003), Les Âmes grises, Paris, Stock. (AG)

—. (2005), La Petite Fille de Monsieur Linh, Paris, Stock.

ERNAUX, Annie. (1983), La Place, Paris, Gallimard, coll. « Folio ». (LP)

—. (1987), Une femme, Paris, Gallimard, coll. « Folio ». (UF)

—. (2003), L'Écriture comme un couteau, Entretien avec Frédéric–Yves Jeannet, Paris, Stock.

ERNST, Gilles. (1988), « De la mort au texte », La Mort dans le texte, colloque de Cerisy sous la direction de Gilles Ernst, Lyon, Presses universitaires de Lyon.

FOTTORINO, Éric. (2009), L'Homme qui m'aimait tout bas, Paris, Gallimard. (HMTB)

GODARD, Anne. (2006), L'Inconsolable, Paris, Minuit.

JOUVE, Vincent. (1998 [1992]), L'Effet–personnage dans le roman, Paris, Presses universitaires de France, coll. « Ecriture ».

LE CLÉZIO, Jean Marie Gustave. (2004), L'Africain, Paris, Mercure de France.

LEJEUNE, Philippe. (1996, [1975]), Le Pacte autobiographique, Paris, Seuil, coll. « Points Essais ».

PICARD, Michel. (1995), La Littérature et la mort, Paris, Presses universitaires de France, coll. « Ecriture ».

STRASSER, Anne. (2011), « De l'autobiographie à sa réception : quand les lecteurs prennent la plume », Littérature, n° 162, p. 83–99.

VIARt, Dominique et Bruno VERCIER. (2005), La Littérature française au présent, Héritage, modernité, mutations, Paris, Bordas.

WEYERGANS, François. (2005), Trois jours chez ma mère, Paris, Grasset.

اللَّغة العلميّة العربيّة: الأمس واليوم[1]

تأليف: أ. ليال مرعي

ترجمة: أ. روز كلش

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الفرنسية

[1] أصل هذه الدراسة هو: " La langue scientifique arabe : hier et aujourd'hui "، للباحثة Layal Merhy. و قد نشرت في العدد 9 من مجلة Annales du Patrimoine الصادرة عام 2009 .

ما هو مستقبل اللّغة العربيّة ؟ سؤال يشغل مراكز الأبحاث والمؤسّسات العربيّة ذات التّوجّهات العلميّة واللّغويّة. ومن جهتها، بدأت وسائل الإعلام في الاهتمام بالعلوم وباتت تولي أهميّة خاصّة للتّعريب والتّبسيط العلميّ. هذا ويكتسي تقهقر اللّغة العربيّة كأداة نقل للمعلومات العلميّة أهميّة كبرى، لا سيّما أنّ هذا العامل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتّوازنات الثقافيّة والحضاريّة في العالم العربيّ.

سنتوجّه في مقالنا نحو ماضي اللّغة العربيّة العلميّة، لنعرض فيما بعد وضعها الحاليّ. وننطلق من مسألة أنّه "كلّما ازدهرت حضارة ما، ازدهرت لغتها وتقدّمت، واكتسبت المزيد من القوّة" (1)، لنقول إنّ مستقبل اللّغة لطالما كان مرتبطاً بحالة مستخدميها. لكن هل يفسّر ذلك تدهور اللّغة العلميّة وتراجعها أمام تطوّر المجتمع الدولي؟

و للإجابة عن هذا السؤال سنبدأ بدراسة تطوّر اللّغة العربيّة المستعملة عادةً، مما يضمن رؤية شاملة للعوامل التي تؤدّي إلى تأخّر اللّغة العلميّة.

بالنّسبة إلى أ. التّويجري (2)، يخضع تطوّر اللّغة إلى تأثيرات داخليّة وخارجيّة، ويتجلّى تطور اللغة أوّلاً عبر التّفاعل بين اللّغة والتّنمية الاجتماعيّة، "تحديداً من حيث عمليّات الاشتقاق، وابتداع الألفاظ الجديدة والتّعريب" (3). ويمكن لهذا التّفاعل أن يحدث بشكل طبيعيّ وبطيء، كما يمكن أن لا يلحظه متحدّثو اللّغة التّي تتطوّر. ومن جهة أخرى، يمكن للتطوّر أن يعمل في تغيير اللّغة إثر "الضّغوطات الأجنبيّة التي تأخذ شكل غزو ثقافيّ حقيقيّ". ويؤكّد المرجع نفسه أنّه، في أيّامنا، تعيش اللّغة للمرّة الأولى تطوّراً سريعاً للغاية وزاخراً بالأحداث.

ويعتقد بعض الكُتّاب أنّ تطوّر اللّغة العربيّة لا يخضع لأيّ ضابط: تُهمَل البنى والمعايير والقواعد التّي تضمن حسن استخدام اللّغة، واللّغة تلبّي اعتباطيّاً توقّعات المجتمع والحداثة. بالتّالي، تنسحق اللّغة العربيّة الفصحى، وتُنسى في مواجهة تطوّر بدائل لغويّة جديدة.

التّواصل العلميّ

أصبح التّواصل العلميّ في يومنا هذا، ثمرة التّفاعل بين العلوم والمجتمعات. ويرتكز هذا التطور على استراتيجيّات الإقناع وعلى التّبسيط والبرهنة، وتغيير الرّسائل والتّبادلات المفرطة والمكثّفة ... إلخ.

إنّ الخطاب العلميّ - وهو بشكل عام كيان مركّب - يولي أهميّة رئيسيّة للمصطلحات الدلاليّة، لأنّ معنى المعبّر عنه وبالتّالي الوقائع، غالباً ما يرتبط بأدوات التّواصل هذه. وكما نعلم أصلاً، ينحصر الفرق بين اللّغة العلميّة واللّغة المألوفة في خصائص كلّ نوع، فيمتاز الخطاب العلميّ بالتّسميّات وبدقّة الخطاب والموضوعيّة ... إلخ.

وفي المقابل، تزخر اللّغة المستخدمة عادةً بالغموض، وتعدّد المعاني والصّور البيانيّة ... إلخ . تعد الخطابات العلميّة- وهو نظام مركّب تتكامل فيه اللّغات الطّبيعيّة والرّسميّة والبيانيّة – تعدّ خطابات مقصورة على فئة معيّنة، تبقي كل معرفة علميّة بعيداً عن متناول غير المتخصّصين. أما اليوم، فيتشارك الأخصائيّون معرفتهم مع العامّة، وهذه المشاركة تقتضي ضمناً التبادل بين الحاجات الاجتماعيّة وإقناع الجمهور المستهدَف.

لكنّ العلماء يعيدون بناء المعلومة العلميّة وصياغتها، حتماً، ليضمنوا اكتساب الجمهور وانحيازهم للمعارف. وهم يتكيّفون مع سياق تواصليّ جديد ويتبنّون أساليب خطابيّة مختلفة عن تلك التّي تُستخدم في الكتابات المخصّصة لأقرانهم. إنّهم يدركون بسرعة كبيرة أنّ عليهم إدارة أفكارهم وفرضها وتعميمها. وبالتّالي يبدو من المفيد لهم أن يستخدموا بصورة مستمرّة كلّ الوسائل المتاحة لتقديم اكتشافاتهم وعرضها على فئات مختلفة من المتلقّين. ويُطبَّق ذلك تحديداً، عندما تؤثّر المجالات العلميّة مباشرة باحتياجات المجتمع ومشاكله وتجذب وسائل الإعلام. ولا ترتبط درجة إشراكهم الاجتماعيّ إذن بالأهميّة الجوهريّة للتقدّم المعرفيّ الذي ينتجونه" (4). من ناحية أخرى، يتم تجنيد وسائل الإعلام عندما يكون الإنتاج العلميّ مرتبطاً بأحداث خاصّة، تستدعي الكوارث الطبيعيّة تبسيط

الخطابات التّفسيريّة ونشرها، كما تُتابع عن كثب الاكتشافات التي تسجّل تقدّم المعرفة ... إلخ.

الخطاب العلميّ العربيّ في العصور الغابرة

ابتداء من القرن الخامس عشر، "في فضاء واسع خاضع للتّجزئة الدّاخليّة والمنافسات السّياسيّة، والتّخريب النّاجم عن الغزوات، ضمنت اللّغة العربيّة استمراريّة وتجدّد العلم" (5). قبل هذه الحقبة، شهدت اللّغة العربيّة فترة من الثّراء سمحت لها بأن تصبح لغة علميّة بامتياز بفضل تراكيب أسلوبيّة بسيطة وعلميّة. كان ذلك ثمرة سبعة قرون من البحوث المستمرّة الممكنة نظراً لانتشار اللّغة العربيّة في الفضاء الواسع الذي غزته.

قام بعض العلماء من عرب وهنود وفرس بإعداد وتطوير معارف علميّة رفيعة المستوى، ولم يكن ذلك التطوّر المرموق ليحصل لولا تكييف اللّغة العربيّة، ذات الأصل البدويّ، مع المفاهيم العلميّة. وقد اكتسبت هذه اللّغة قدرتها على إيصال العلوم بفضل الجهود التّي بذلها علماء النّحو واللّسانيّون وواضعو المعاجم (سيبويه) من جهة، ومع ابتكار المصطلحات العلميّة والألفاظ الجديدة، والاقتراض من لغات أجنبيّة أخرى (اليونانيّة، السّريانيّة، البهلويّة) من جهة أخرى.

لطالما كانت العلوم العربيّة "بدويّة" مرتبطة بالسّياسة والدّين، وقد جاءت مكمّلة للعلوم الإغريقيّة التّي ترجمها وحلّلها ونقدها العلماء النّاطقون بالعربيّة. كان الإبداع العلميّ مرتبطاً بالحاجات الاجتماعيّة المتعلّقة بالصحّة (الطّب) أو الدّين (الفلك). أدّى إعداد التّجارب الجديدة واستعمال الطّرق الجديدة وتطوير بحوث حديثة إلى إحداث تغييرات عميقة في العلوم الإغريقيّة، وقد ساهم إدخال الجبر، وابتكار مصطلحاته في تجديد الرياضيّات كما أثّر تطوير الكيمياء في الطّب.

ونركّز في هذه المرحلة، على دور التّرجمة في تكيّف اللّغة مع المفاهيم العلميّة، وقد ساهمت التّرجمة في التّجديد الملحوظ في العلوم، لا سيّما وأنّ ثراء المعرفة قد أدّى إلى تعقيد المفردات. يفسّر د. جاكار D.Jacquart الدّافع إلى التّرجمة إلى العربيّة بالبحث "عمّا كان من شأنه المساعدة على فهم العالم، وعلى صياغة فكر فلسفيّ متّفق مع خيارات

المسلمين"(6). نتج عن هذا البحث ترجمات متعدّدة لنفس النّص، وكذلك مراجعات منتظمة للتّرجمات بهدف بلوغ مستوى عالٍ من الدقّة والوضوح. وبالتّالي، كان المترجم حُنين بن إسحق (7) حريصاً على أن تكون التّرجمة وفيّة للنّص الأصليّ، مع إيلاء أهميّة كبرى لوضوح العبارة العربيّة وللدّقة في النّقل المعرفيّ . يتطرّق د. جاكار D.Jacquart إلى موضوع التّرجمة من اليونانيّة إلى العربيّة، ويشير إلى أنّ كلّ التّرجمات لم تكن تتبع المعايير التي حدّدها حُنين بن اسحق ؛ نجد المحاكاة اللّغويّة والاختصار والإسهاب في بعض التّرجمات. نذكّر أنّ التّرجمة تتضمّن نوعين من النّقل: لغويّ وثقافيّ. وهي تتمثّل في جلب معارف للجمهور المتلقّي عن عالم ليس بعالمه، إلّا أنّه في المسائل المتعلّقة بالعلوم، تؤثّر المعارف المنقولة بالجمهور المتلقّي وهي تنبع أحياناً من احتياجاته.

وخلاصة القول، أنّ عمليّة التّرجمة ترتكز على علم المترجِم وكلّ ما يعرفه عن الكاتب، وعن النّص المراد نقله، وعن حقبة الكتابة، وعن الجمهور المستهدَف...

أثناء دراستنا، تناولنا مقاطع مأخوذة من كتابات علميّة طبيّة، كتبها ابن النّفيس وابن سينا وابن المجوسي (8) تصف التّزاوج والأمراض والأعضاء التّناسليّة، وقد استنتجنا أنّ بلاغة التّبسيط العلميّ تتجلّى في هذه النّصوص. إذ يرمي الكُتّاب إلى شرح التّسميات العلميّة، وإلى استخدام التّشبيه والمماثلة والإسهاب. ونجد في هذه النّصوص القديمة، أنواعاً مختلفة من التّعريفات: التّسمية أو المساواة أو الوصف أو التّفكيك...كما تؤدّي إعادة الصّياغة دوراً أساسيّاً في التّقدّم النّصّي، لا سيّما وأنّ العلوم العربيّة كانت ترتكز على كتابات إغريقيّة. يعيد الكُتّاب إذن صياغة التّرجمة بهدف التّعليق على المفاهيم القديمة أو نقدها، أو لاسترجاع المعلومات التي تشكّل نقطة انطلاق لأبحاثهم. تبدو الكلمات أحاديّة المعنى، وقد بُنيَت حسب اشتقاقات محدّدة، ونادراً ما نجد فيها أثراً لمصطلحات مقترضة من الإغريقيّة أو السّريانيّة. هذا ما يجعلنا نظنّ أنّه قد تمّ تطوير التّعريب (من الإغريقيّة، في ذلك العصر) بحصافة وبدقّة متناهية تقريباً.

لكلّ مفهوم أو موضوع علميّ تسمية خاصّة محدّدة، والألفاظ والمفردات المبتكرة أو الجديدة موحّدة بين كلّ النّصوص. يبدو لنا هذا التّماثل مدهشاً إذا ما قارنّاه بالحقبة المعاصرة، علماً بأنّ العقبات الدّائمة، من ناحية، كانت تحول دون التّنقّل الحرّ للعلماء

وللمعارف، وأنّهم كانوا ينقلون معارفهم من الأساتذة إلى التّلامذة، أو بفضل الكتب. ومن ناحية أخرى، كان تراجع اللّغة العربيّة أمام لغات أجنبيّة أخرى، يجرّد اللّغة من قوّتها وطابعها العلميّ العالميّ. حسب إ. رينان E.Renan (9) قد يكون الإسلام عقبة أمام التّطوّر العلميّ. يرتكز الكاتب على تراجع العلوم العربيّة ليبرّر أفكاره ويؤكّد أنه "عندما لقّحت العلوم المسمّاة بالعربيّة الغرب اللاتيني ببذرة الحياة، اختفت. فبينما بلغ ابن رشد في المدارس اللّاتينيّة شهرة مماثلة تقريباً لشهرة أرسطو، نسيه إخوانه في الدّين". غير أنّ تأثير العلوم والحضارة العربيّة يبدو واضحاً في اللّغات الأوروبيّة التي تقترض بعض الكلمات أو المصطلحات من اللّغة العربيّة. نلاحظ أنّه، حتّى عصر النّهضة، اعتُبرت اللّغة العربيّة من بين اللّغات العلميّة التّقليديّة. ولن نناقش وجهة نظر إ. رينان، الصّحيحة جزئيّاً، لكننا سنحاول فهم النّتائج اللّغويّة لهذا "الاختفاء" العلميّ.

الخطاب العلميّ العربيّ المعاصر

"الويل لمن يصبح غير مُجدٍ لتقدّم البشريّة! سرعان ما يتمّ محوه " (10). هكذا يصف إ. رينان حال العلوم العربيّة بعد انحطاط اللّغة التي كانت تنقلها والحضارة التّي كانت تُطوّرها. مع ذلك، وبصرف النّظر عن دقّة هذا القول، "يعدّ الحذف أمراً لا رجعة فيه لا ينطبق على السّياق العلميّ العربيّ! صحيح أنّ تطوّر اللّغة العربيّة لم يتزامن مع التطوّر اللّغوّي العلميّ العالميّ، لكنّ انتشارها استمرّ، ولطالما كان استخدامها المألوف ذا أهميّة كبيرة. من ناحية أخرى، حسب س. بوجودة، استنتج بعض العلماء أنّ عدداً من الطلبة، في العالم العربيّ وخارجه، لا يكتسبون خلال سنوات دراستهم المعارف العلميّة الضروريّة لتطوّرهم في المجتمعات الحديثة. وربما تُعزى حالة النّقص هذه، في البلدان العربيّة إلى طرق التّدريس. ويطرح س. بوجودة مشكلة الطّرق التّربوية التي تشجّع الحفظ وتهمّش القدرة التّحليليّة لدى الطّلاّب (11). "تهمل هذه الطّرق تنمية التّفكير النّقديّ، والقدرة على حلّ المشكلات والبراعة في إجراء التّحقيقات والقيام بالأبحاث" (12). كثيرون هم الكُتّاب الذين يعتقدون أنّ الجمهور النّاطق بالعربيّة لا يتقن اللّغة العربيّة تماماً، وأنّ ضعفاً لغويّاً ما يستقرّ تدريجيّاً في المجتمعات العربيّة. وهم يعتقدون أيضاً أنّ حالة الفوضى هذه راجعة إلى تدريس المواد العلميّة باللّغات الأجنبيّة. فيتخلّى الطلاّب في المجالات العلميّة عن لغتهم الأمّ، إذ يعتبرونها مهمَلة في مضمار العلوم، ويختارون لغة أجنبيّة تتطوّر بنفس سرعة العلوم.

في المقابل، يركّز الحمزاوي على تأخّر العلوم بسبب التّعريب، إذ يعتقد أنّ أعمال التّرجمة الجماعيّة والمؤسّساتيّة غير كافية، وأنّ ذلك يؤثّر تأثيراً بالغاً على التّقدّم العلميّ، لا سيّما وأنّ اللّغة العربيّة تحلّ تدريجياً محلّ اللّغات الأجنبيّة، وأنّ ذلك يُنتج جهلاً معرفيّاً في صفوف الباحثين والأساتذة الجامعيّين في البلدان العربيّة الذين يُخضعون أبحاثهم وأطروحاتهم للتّرجمة ليتمكّنوا من نشر نتائج دراساتهم في دول أجنبيّة (13). نلاحظ أن الدّول المتقدّمة تدرّس العلوم بلغتها الخاصّة، وتحافظ بذلك على التّطوّر الطّبيعيّ للغتها وتراثها. وفي العالم العربيّ، تنخرط مصر وسوريا وبعض البلدان الأخرى في هذا التطوّر، بحيث تحاول الحفاظ على التوازن والمساهمة في التّقدّم العلميّ الدّوليّ. حتّى وإن كان الانفتاح على اللّغات الأجنبيّة يضمن التّقدّم المعرفيّ والتّقنيّ، فإنّ استخدام اللّغة الأمّ يبقى ضروريّاً لاستعادة المهارات اللّغويّة المفقودة.

إنّ تأخّر اللّغة العلميّة العربيّة لا يُعزى فقط إلى تعدّد المصطلحات الأجنبيّة التي تفرض نفسها والتّي تعدّل استخدام اللّغة، بل أيضاً إلى استهتار المجتمعات العربيّة التي لا تحشد طاقاتها بشكل كامل للحفاظ على تراثها وهويّتها الثقافيّة. ولا يُخفي مستخدمو اللّغة ميلهم إلى استخدام اللّغات الأجنبيّة باعتبارها ملائمة لاكتساب المعارف العلميّة. لا يتقن العلماء العرب اللّغة الإنجليزية تماماً؛ مع ذلك نجدهم ينشرون باللّغة الإنجليزيّة (أو الفرنسيّة) ويهملون لغتهم مع أنّهم يكتبون بسهولة أكبر بكثير بالعربيّة. نذكّر أنّ اللغة العربيّة متاحة ومرنة بما فيه الكفاية لإعادة إنتاج خطاب العلوم، تحديداً من حيث الصّرف الاشتقاقيّ الذي يشكّل الكلمات ويحوّلها وفقاً للمعنى المراد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ حالة عدم الإنتاج العلميّ في العالم العربيّ ناجمة أيضاً عن عدم تطوّر اللّغة لأنّ كلّ مجتمع لا يمكنه أن يتطوّر إذا كانت أداة التّواصل الخاصّة به، أيّ اللّغة، لا تجاري تطوّر الإنتاج العالميّ. لذلك، يجب على الوسائل الحديثة- السّريعة في نقل المعارف أن تفكّر باللّغة قبل استخدامها. هكذا، يحدث التّوازن بين اللّغة والتّرويج كما ينتظم التّطوّر اللّغوي ويجري بخطى واثقة وإن كان ببطء.

يشهد العالم العربيّ اليوم انطلاقاً جديداً للتّرجمة، فنحن نعيش في عصر المعلومات والعلوم المتقدّمة والتّكنولوجيا والاتّصال؛ وتزداد الحاجة الاجتماعيّة ويصبح اكتساب المعارف ضروريّاً، كما يغدو نقل المعلومات أمراً لا مفرّ منه.

ويعتقد بعض الباحثين واللّسانيّين أنّ التّعريب هو الخيار الوحيد لإخراج العالم العربيّ من تأخّره العلميّ.،وهم يقارنون حركة التّرجمة الحاليّة بتلك التّي حدثت في العصور الوسطى الغربيّة. كما في العالم العربيّ في القرن التّاسع، فظهرت اليقظة في مجال العلوم في أوروبا في حقبة من الازدهار الاقتصادي والسّياسيّ. ومنذ تأسيس الجامعات (في القرن الثالث عشر) لم يعرف التّقدّم العلميّ الغربيّ فترات انقطاع طويلة. كما يعتقد البعض بعمق أنّ خلاص اللّغة العربيّة يكمن في تعدّد التّرجمات التّي تنقل المعارف العلميّة الغربيّة وفي تطوير مراكز علم الألفاظ وعلم المصطلح بهدف ابتكار وحدات لغويّة علميّة جديدة بدون الحاجة للجوء إلى الاقتراض والمحاكاة. كذلك، يُرجى من العلماء صياغة تقاريرهم بالعربيّة ونقل نتائج أبحاثهم إلى نظرائهم بالعربيّة أيضاً. مما يحدّ من تسرّب المعلومات ويدفع البلدان غير العربيّة إلى التّرجمة من العربيّة، مع العلم أنّ العالم العربيّ يعاني من هجرة الأدمغة ومن ضياع المعلومات النّاتج عن انتقال العلماء إلى البلدان الأكثر تقدّماً والمنتجة للعلوم.

دور وسائل الإعلام

تؤثّر وسائل الإعلام تأثيراً عميقاً في المجتمعات، إذ إنّ لها أثراً على الثّقافة والقيم الاجتماعيّة واللّغة الشّائعة التّي يستخدمها الشّعب. يبتكر الوسطاء الذين ينقلون المعلومات، شفرتهم الخاصّة، إذ يصيغون اللّغة بهدف نشر شكل لغويّ سهل ذي جمال" زائف" مهمّشين المعايير والاستخدامات الأصليّة للّغة. وتجري أحياناً "عصرنة" هذا الشّكل المختلف والجديد من خلال الاقتراضات، ويجري "تشويهه" أحياناً أخرى باستخدام اختصارات جديدة، أو ألفاظ منحوتة تدمج العربيّة بلغات أجنبيّة أخرى. بهدف التّصدّي للظّاهرة الإعلاميّة التّي ازدهرت في القرن التّاسع عشر، اقترحت أعمال عديدة تقنيّات تعبير وكتابة للحفاظ على اللّغة العربيّة التّقليديّة.

على الرّغم من ذلك، اجتاح وسائلَ الإعلام استخدامٌ مفرط للّهجات القوميّة، مما أدّى إلى ركود اللّغة العربيّة التّقليديّة وانطوائها. نشير إلى أنّ "شفرة" وسائل الإعلام تشكّل لغة مرجعيّة تؤثّر على التّعليم اللّغوي، وتحوّل اللّغة العربيّة التّقليديّة. ونلاحظ أيضاً أنّ هذه اللّغة نفسها تحلّ تدريجيّاً محلّ اللّغة العربيّة الفصحى، وتتسبّب في تدهورها. إنّها تبتعد عن العربيّة الفصحى على مستوى البنى، ولا تتبع، مع ذلك معايير اللّهجات. كما أنّها تعاني من تشوّهات لفظيّة وعدم انتظام بنيويّ ودلاليّ متباين مع البنى الأصليّة للّغة العربيّة الفصحى.

ويعترض أ. ع. التّويجري على أن تُقدّم هذه اللّغة نفسها "على أنّها المعيار، بينما تصبح العربيّة الصّرفة الاستثناء" (14). مع ذلك، نجدها تنتشر بسرعة قصوى وتتحوّل إلى لغة ثقافة وإدارة ودبلوماسيّة وتبسيط علميّ وتعليم أكاديميّ. يمكننا حالياً التحدّث عن أربعة متغيّرات للّغة العربيّة التّقليديّة: اللّغة العربيّة الفصحى المطابقة لمعايير وأصول اللّغويات؛ اللّغة العربيّة الفصحى المعاصرة التّي أنتجها التطوّر، وهي تقع بين العربيّة الفصحى الرّفيعة والعربيّة المعاصرة الموحّدة، ويحمل هذا المتغيّر السّمات الأصيلة للعربيّة الفصحى؛ اللّغة العربيّة الحديثة الموحّدة في وسائل الإعلام والمبسّطة والمحوَّلة؛ اللّغة العربيّة التّي نسمّيها المختلطة، والتي تشكّلت عبر الجمع بين اللّغة المحكيّة والنّموذج الحديث. ويشهد هذا المتغيّر الرّابع الذّي يُعدّ هجيناً توسّعاً سريعاً في العالم العربيّ، إذ يساهم في التّقريب بين وسائل الإعلام وعامّة الشّعب ويسهّل نقل المعارف نظراً لبساطته وانتشاره. وفي المقابل، قد يكون الحدّ من استخدام اللّهجات القوميّة لأهداف إعلاميّة أو حواريّة معقولاً، لا سيّما أنّ اللّغة العربيّة الفصحى المعاصرة أو العربيّة الحديثة الموحّدة غنيّتان بما يكفي لنقل الأيديولوجيّات والأدب والفنون والعلوم... إلخ.

كذلك، ستبقى اللّغة العربيّة الفصحى دائماً مرجعاً يحترمه مستخدمو اللّغة في أدائهم اللّغوي. إنّ اللّغة العربيّة هي إذاً مجموعة مركّبة تتضمّن عدّة متغيّرات تلبّي كلّ الاستخدامات الاجتماعية، من الأكثر تعقيداً وترفاً إلى الأكثر عاميّة وشعبيّة. وعلى الرّغم من هذا التّنوّع، يتمسّك العرب بسلامة لغتهم، ويعيشون في مجتمع لغوّي متجانس بفضل استخدام العربيّة الموحّدة الحديثة. ويسمح انتشار وسائل الإعلام السمعيّة- البصريّة وتعدّد

شبكات الصحافة المكتوبة ومواقع الشبكة العنكبوتيّة بنشر هذا المتغيّر الذي يحرز تقدّماً ويزداد قيمة.

في هذه المرحلة، نتساءل: أي لغة عربيّة لنقل العلوم؟

هل هي العربيّة الحديثة المستخدمة في وسائل الإعلام ؟ خاصّة وأنّ وسائل الإعلام تشكّل الوسيلة الأهمّ لنقل المعارف ؟ هل هي العربيّة الفصحى المعاصرة ؟ أي العربيّة السّهلة والمعتدلة، والتي تحافظ على خصوصيّات العربيّة الفصحى بحفاظها على الأشكال الأصليّة لتركيب الجملة، والتي لا تقبل الاختزال وإعادة الصّياغة، ولاستقبال الألفاظ الجديدة عن طريق الاشتقاق والقادرة على مجاراة التّطوّر العلميّ والتطوّرات اللّغويّة الدوليّة باستمرار...قد يكون هذا المتغيِّر نموذجاً للغة علميّة تصل إلى عامّة الناس وتغزوهم، خاصّة إذا تبنّتها وسائل الإعلام. كما نعتقد أيضاً أنّ هذا المتغيّر من شأنه أن يقاوم التّأثيرات الخارجيّة والتّهديدات التّي تشكّلها وسائل الإعلام والاقتراضات المفرطة.

وفي المقابل، كثيرة هي الفوائد التّي تقدّمها وسائل الإعلام للّغة العربيّة، تحديداً، الانتشار الواسع الذي تحظى به اللّغة بفضل توسّع وسائل الإعلام الجماهيريّة، متبوعاً بالاهتمام الخاص الذي تثيره خارج العالم العربيّ. مع ذلك، تقع مسألة الآثار والتّأثيرات الإعلاميّة في صميم الجدل الذّي يشغل المجتمعات العلميّة. تخضع التوترات بين منتجي المعارف وناقليها للكثير من التّحليلات والتّعليقات. وقد تنتج هذه التوترات عن كون العلماء يملكون أدوات تجديد مشرعَنة وجديرة بالثّقة، بينما يعيد الصّحفيّون بناء المعلومة انطلاقاً من إدراكهم الخاص للواقع. يجدرإذن إيجاد توازن بين اللّغة التّقليديّة واللّغة الحديثة الموحّدة التّي تنقلها وسائل الإعلام لمعالجة المخالفات، والقيود التّي تعطّل تطوّر اللّغة.

آفاق لمستقبل اللّغة العربيّة

في عالم فتحت فيه العولمة كلّ شبكات الاتّصال، وسمحت بالتّبادلات من كلّ نوع، تُوسّع اللغة العربيّة آفاقها وتتخطّى حدود العالم العربيّ لتبرز في كل مكان تقريباً. لا يمكننا إنكار الفوائد التّي تجلبها العولمة للّغة العربيّة، انطلاقاً من التّوسّع الجغرافيّ- بفضل الشّبكة العنكبوتيّة، وعلوم المعلوماتيّة التّي تقدّم وسائل حديثة للتّحليل والتّخزين وتحديث

البيانات، دون أن ننسى أدوات التّواصل التّي تسهّل الاتّصال بين الاختصاصيين واللّسانيّين – وصولاً إلى النّشر الاجتماعيّ عبر الوسائل الإعلاميّة والأكاديميّة التّي تسمح بنقل وترسيخ المعارف وتساهم في تطوّر اللّغة.

نذكّر أنّه، عقب ندوات عُقدت في بلدان عربيّة مختلفة، تمّ اتخاذ قرارات وتوصيات للحفاظ على اللّغة العلميّة العربيّة، ولكنّها لم تُنفّذ بالكامل. تصبح هذه الضّراوة النّظرية المتبوعة بغياب التّطبيق العمليّ واضحة في عدّة بلدان عربيّة؛ وقد بذلت بعض الدّول جهداً في إنشاء برامج جامعيّة معرّبة، قد توضع جانباً لأسباب ضمنيّة: أيكون ذلك بسبب عدم الموافقة التّامّة للمدرّسين والطّلبة بما يخصّ التّعلّم باللّغة العربيّة ؟ أو بسبب النّقص في الضّبط والتّنسيق داخل المجتمع الواحد ؟ أو بسبب الاقتناع، الذّي يبرّره البعض، بالكتابة والنّشر باللّغات الأجنبيّة بغية تسهيل التّواصل والتّطوّر المعرفيّ في عصر عولمة وانفتاح ؟

نحن مقتنعون، للأسف، أنّ استخدام لغة أجنبيّة يبقى ضروريّاً، في العالم العربيّ، إلى حين وضع نظام تبسيط علميّ وتعريب وضبط، تعترف به كلّ الدّول العربيّة، وإلى أن تصبح الإصدارات أو نتائج أعمال التّعريب في متناول الجميع في المجتمعات العربيّة.

وقد أُطلق أيضاً برنامج توجيه دوليّ مبتكر- بتمويل مشترك من مركز أبحاث التّنمية الدّوليّة (كندا) وإدارة التّنمية الدّوليّة " (المملكة المتّحدة)- عام 2006م بهدف تعزيز الصّحافة العلميّة في الدّول النّامية (أفريقيا والشّرق الأوسط). يهدف هذا المشروع إلى تحسين المهارات التّحليليّة والتّقنيّة لدى الصّحفيّين، وسيساعد على التّعريف بالصّحافة العلميّة وعلى رفع قيمتها.

كذلك نشرت الألسكو، في سياق أكاديميّ، على موقعها الإلكترونيّ نماذج لألعاب تربويّة سمعيّة- بصريّة، يسهل من خلالها اكتساب المعارف في مجال الطّاقة المتجدّدة. وسيتمّ توصيل هذه الألعاب إلى مراكز تدريبيّة في العالم العربيّ.

كما نشرت الجمعيّة قواميس ثنائيّة اللّغة، تهدف إلى توحيد المصطلحات العلميّة.

وفقم .ر. الحمزاوي، عُرّب 132904 مصطلح بين العام 1973م والعام 2002م. ولا يمكننا معرفة ما إذا كانت هذه المصطلحات تُستخدم في جميع البلدان العربيّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ استخدام التّكنولوجيّات الجديدة كوسائل للتّعلّم ما زالت في بدايتها في العالم العربيّ، رغم محاولات الإصلاح المحدودة بسبب نقص الموارد الماديّة والبشريّة.

وأخيراً، نعتقد أنّ تنميّة العلوم والتطوّر السّريع للّغة في العالم العربيّ، لن يكون ممكناً إلا إذا عملت الدّول، أولاً: على تقليص هجرة الأدمغة، والحدّ من نزعة الشّباب إلى مغادرة العالم العربيّ والاستقرار في البلدان الأجنبيّة لمتابعة دراستهم ومواكبة التّطوّر العلميّ العالميّ. وثانياً: من الأمور الأساسيّة في تنمية العلوم والتطور اللغوي ابتكار أنظمة تربويّة حيويّة، يتمّ تحديثها بانتظام؛ ووضع بنك بيانات وأتمتة استخدام اللّغة العربيّة، وأيضاً استخدام محرّكات بحث على شبكة الإنترنت باللّغة العربيّة، ورقمنة سجلّات التّراث العربيّ ونشرها عبر الشّبكة العنكبوتيّة.

المراجع

1 – A. O. Altwaijri : L'avenir de la langue arabe, ISESCO, 2004, p. 80.

2 – Directeur général de l'Organisation islamique pour l'Éducation, les Sciences et la Culture (ISESCO).

3 – A. O. Altwaijri : op. cit., p. 86.

4 – J.– C. Beacco : Ecritures de la science dans les médias, in Rencontres discursives entre sciences et politique dans les médias, F. Cusin, Presses de la Sorbonne Nouvelle, Paris 2000, p. 20.

5 – D. Jacquart : L'épopée de la science arabe, Découvertes, Gallimard, Paris 2005, p. 13.

6 – Ibid., p. 36.

7 – Traducteur issu d'une famille nestorienne de Hira en Mésopotamie.

8 – Les écrits observés sont extraits de : "Almujiz fit–tub" de Ibn Nufais, "Ash–shifa" de Ibn Sina et "Al–kitab al–malaki" d'Al–Majusi. Ces extraits figurent dans : S. Kataya : Fit–turath at–tubbi al–arabi, ISESCO, 2005, ch. 19.

9 – E. Renan, cité par D. Jaquart : op. cit., p. 116.

10 – Idem.

11 – Observer les pédagogies suivies dans l'ensemble du Monde Arabe est difficile. Les études menées dans certains pays montrent la nécessité d'adopter de nouvelles méthodes d'enseignement.

12 – S. Boujaoude : L'enseignement scientifique et technologique dans le monde arabe au XXIe siècle, Bulletin international de l'enseignement scientifique et technologique et de l'éducation environnementale de l'UNESCO, Vol. XXVIII, No. 3 – 4, 2003, p. 3.

13 – M. R. Alhamzawi : Al–'arabyawatahaddyat al–'ulum al–'asrya, fi maydan at–ta'rib, ISESCO, 2002.

14 – A. O. Altwaijri : op. cit., p. 89.

نحو مقاربة بيو ثقافيّة للرِّوايات[1]

تأليف: مارك لابران

ترجمة: أ. روز كلش

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

كلية اللغات والترجمة – قسم اللغة الفرنسية

1 أصل هذه الدراسة هو: " La langue scientifique arabe : hier et aujourd'hui "، للباحثة Layal Merhy. و قد نشرت في العدد 9 من مجلة Annales du Patrimoine الصادرة عام 2009 .

(أشكر زملائي كيم بلانك وألان شافن وإنسوك فيبير ومارتن وينكلر على نصائحهم القيّمة).

أثار إصدار كتاب "أصل الأنواع" L'Origine des espèces (1859م) الكثير من التّأويلات والنّزعات في تاريخ الأفكار، وذلك منذ الانضمام الحماسيّ للاكتشافات المتعلّقة بنظرية بالتّطوّر، وصولاً إلى علم تحسين النّسل المثير للجدل، ومروراً برفض منهجيّ من قبل بعض معاصري داروين Darwin. حتّى في يومنا هذا، لا يرى البعض في هذه التّطبيقات على الأدب سوى نوع من النّقد التّاريخي غير المعلن بدلاً من مقاربة علميّة حقيقيّة بحدّ ذاتها. ولا يزال موقف اللامبالاة سائداً لدى المنظّرين في الأدب (سول Saul، ص. 112 و125).

غير أنّه من الملفت أن بعض نقاد الأدب قد قَولبوا أعمالهم بما يتماشى مع نظريّة التّطوّر. ويعد إيبوليت تين (1828-1893) Hippolyte Taine من بين الأوائل الذين تأثّروا بشكل مباشر بداروينDarwin إذ كان قد اقترح شكلاً فسيولوجيًّا للنّقد الأدبيّ يأخذ في الاعتبار العِرق (بمعنى "بصمة الرّوح القوميّة")، والمحيط (البيئات الطبيعيّة والتاريخيّة) والوقت، "وينتج عن ذلك سيكولوجيا علميّة، يمكن للمرء دراستها كخبير نبات، أو كخبير بعلم التّشريح. وهي تهدف إلى إيجاد سرّ الآليّة الفكريّة لدى الكاتب" (برغيز Bergez، ص. 15).

في نفس الحقبة وفي أعقاب الطبعانيّة (المذهب الطبيعيّ)، كان زولا Zola هو من اعتمد على نطاق واسع في روايته الروغون ماكار Les Rougon-Macquart على الوراثة، وبالتّالي على التّطوّر، إلى حدّ ما.

إلاَّ أن "الدّاروينيّة" كما كان يراها المثقّفون من غير المتشدّدين علميًّا في نهاية القرن التّاسع عشر، قد أنتجت نوعاً من التّنافر، حيث اختلط الانحراف الإيديولوجيّ بالعلوم الطّبيعيّة حتّى أنّ مفهوم " الصّراع من أجل البقاء" أصبح يُنظر إليه على مستوى الفرد بدلاً من النّوع، وهو أمر لا معنى له على الإطلاق. وقد أشار دانيال غروجونسكي Daniel Grojnowski إلى ذلك في تقديمه لكتاب "البحث في التطوّر الأدبيّ" L'enquête sur l'évolution littéraire لجول أوري Jules Huret (1891): "وإذ يفكر، كأحد أتباع الدّاروينيّة، يتصوّر ج. أوري الحقل الثّقافيّ كفضاء تنازع يشهد انتصار الأكثر تكيّفاً، والأكثر قوّة وضراوة." (ص.20).

وإذ كان شديد التّأثّر ببرونتيير Brunetière الذّي كان هو نفسه من أتباع مذهب التّحوّل لدى لامارك Lamarck ، قاد أوري Huret ، الأقرب إلى سانت- بوف-Sainte Beuve منه إلى داروين Darwin، أبحاثه دون الرّجوع إلى "التّطوّري" إلّا لمجاراة موضة استخدام مصطلحات غريبة بطريقة علميّة. وفي بداية القرن العشرين، بدأ بعض المثقّفين ممن هم في الطّليعة يتّخذون مواقف متفاوتة بالنّسبة إلى نظريّة التّطوّر. وكان ذلك حال فاليري Valéry الذي شعر بالثّورة التي يمكن لنظرية داروين إحداثها في نظرتنا للعالم[1].

كذلك كان الحال بالنّسبة إلى برغسون Bergson، الذّي درس، في نفس الحقبة، في كتابه التّطوّر الخلّاق L'Évolution créatrice(1907)، الاتّجاهات الدّاروينية الجديدة، مميّزاً بين الذّكاء البشريّ والذكاء والبيولوجيّ.

وربما كبحت الانحرافات الأيديولوجيّة التّي ارتبطت بها الدّاروينيّة في فترة ما بين الحربين الاستكشافات المرتبطة بهذا الفرع من المعرفة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. فلم تكن هذه النّظرية، على كل حال، بارزة في برنامج النّقد الأمريكيّ الجديد، أو الصّوريّة لدى مدرسة براغ Prague. ومنذ بداية التسعينيات- خاصّة في العالم الأنجلو- سكسوني- بدأ فرع جديد من فروع المعرفة بالتشكُّل فعليّا ويقترح هذا الأخير نمطاً جديداً لقراءة النّصوص الأدبيّة، يسمى أحياناً "البيوشاعريّة"، أو " الدّاروينيّة الأدبيّة" وقد ظهر مع صدور العمل الرّئيسيّ لجوزيف كارول Joseph Caroll الذّي يحمل نفس العنوان، والمرتبط مباشرة بالتّطورات الأخيرة لعلم النّفس التّطوّري.

وتطرح هذه المقاربة الجديدة تشكيكًا في بعض الطّرق النّقدية التي طغت على الخطاب الأكاديميّ خلال جيلين متتابعين، من البنيويّة إلى التّفكيكيّة. ولا تعدّ الاكتشافات الحديثة في علم الأعصاب، وفي علم النّفس المعرفيّ غريبة عن هذا المجال العلميّ الجديد، إذ أنّه لم يسبق لنا قطّ أن كنّا على دراية أفضل بالعمل الحقيقيّ للمخّ البشريّ (سول،Saul ص. 300).

1 "إن هذا يحيلنا مباشرة إلى داروين. لا أحبه ولا يعنيني. لكن لا يمكن لأيّ مؤرّخ أن ينكر وجوده. فكّر في أنّه لو كان على حقّ، فإنّ التّاريخ بمجمله قد يتغيّر. أقصد كلّ التّفكير التّاريخيّ. ومن المؤكّد أنه قد أضاف شيئا ما. " (فاليري، رسالة إلى صديقه أندريه لوبي [1906]، في 1960، ص. 1544-1545).

والأمر واضح إذ يرمي هذا النّمط الجديد للتّفكير إلى دمج البيولوجيّ بالأدبيّ، والوراثيّ بالوجوديّ. والواقع أنّه ينبغي الانطلاق من البيولوجيّ قبل النّظر في الاجتماعيّ، لأنّ الكائن البشريّ، إلى جانب كونه اجتماعيًّا جدًّا، هو أوّلاً حيوان حامل لبعض السّلوكيّات في جيناته.

مع نهاية القرن العشرين، وصل نوع نظريّ من الرّاديكاليّة إلى شكل من الحتميّة الثّقافيّة جعلت الفرد نتاجاً لثقافته كما لو أنّه ينطلق من الصّفر عند الولادة. وإذا كانت ثقافة المحيط الذي ولدنا فيه تشكّل بطريقة أو بأخرى نمط حياتنا في المجتمع (عوامل علم اللاوراثة)، فإنّها لن تكون قادرة على إزاحة مخزون وراثيّ خاص بنا، ليس كأفراد، وإنّما كنوع. تضع النّشوئيّة في الصّدارة كل ما هو بيولوجيّ فينا، وخاصّة كل ما هو مندرج تحت الطّبع الوراثيّ الذّي يرمز إلى "السّمات الفرديّة النّاتجة عن التّفاعل بين بيئة أي كائن حي، وطرازه العِرقيّ" (ووركمان، Workman ص. 335). نشهد هنا في الحقيقة حركة معاكسة تماماً للعمل المجزّأ الذي كانت تقوم به المعارف المختلفة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في النّصف الثّاني من القرن، ونرى نتيجة كثرة التّخصّصات انحرافات ملحوظة كما هو الحال فيما وراء الخطاب الأدبيّ، إذ تُستحضر الرّياضيّات أحياناً للتّعتيم عليه. وقد أنتج ذلك، بالتّأكيد، إخفاقات كان لها أيضاً تأثير إيجابيّ وهو تهجين الخطاب وعودة النّقد التّاريخي وظهور النّقد الوراثيّ، تحت دفع الأعمال المؤسِّسة لبيير- مارك دو بيازي Pierre – Marc de Biasi على مخطوطات فلوبير Flaubert .

يكمن أحد أسس هذه المقاربة المجدّدة في توحيد المعارف "Consilience" . والمصطلح ليس بجديد؛ فقد اخترعه العالم الفيلسوف الإنجليزيّ، ويليام هيويل William Whewell عام 1840م (غولد gould، ص. 192). وسيكون عالم الحشرات الشّهير ومؤسّس البيولوجيا الاجتماعيّة، إدوارد أو. ويلسون Edward O.wilso من سيعطي زخماً وألقاً جديداً لهذا المصطلح، باستخدامه كعنوان لأحد مؤلفاته (1998م؛ " وحدانيّة المعرفة "L’unicité du savoir"). بالنّسبة إلى ويلسون الذي يغيّر بعض الشّيء في المفهوم الأصليّ للمصطلح، يشير توحيد المعارف إلى تداخل التّفسيرات السّببيّة بهدف جمع حقول المعرفة (العلوم البحتة، والإنسانيّة، والاجتماعيّة) وتحقيق انسجامها، بدلاً من فصلها وجعلها متنافرة وفقاً للاتّجاهات السّابقة. يتّعلق الأمر، بالنّسبة إليه، بتحّد نهائيّ للفكر البشريّ: جعل العلوم والإنسانيّات تتلاقى في "روح واحدة" مرتكزاً في ذلك على الفكر الاختزالي، علماً

أن البيولوجيا الاجتماعية هي فرع المعرفة الأساسيّ للعلوم والإنسانيات. يبرزهــ.ج. ويلز H.G.Wells وجول فرن Jules Vernes شكلاً من أشكال توحيد المعارف بامتياز.

إن مفهوم توحيد المعارف هو مفهوم شامل وتوليفيّ، فهو يطمح إلى التقاء جميع العلوم لقراءة وقول وضعنا الإنسانيّ ولفهم ما نحن عليه، وما سنؤول إليه. وربما ستسمح لنا قراءة جيناتنا بجمع كل شيء بدلاً من المضي في تقسيم المعارف في مناطق مغلقة. إن اختلافاتنا الثّقافيّة والعرقيّة والاجتماعيّة ليست سوى وهميّة: نحن جميعاً أبناء عم بعيدون للوسي Lucy، الكائن القديم الذّي عاش في أستراليا واستعمل النّار والحجر، والذّي عُثر على بقاياه عام 1974م في أثيوبيا. وأكثر من ذلك أيضاً، حسب ستيف أولسون Steve Olson، قد يكون جميع سكّان الأرض الحاليّون متحدّرين من قرابة 20000 فرد كانوا يعيشون في منطقة القرن الأفريقيّ، منذ حوالي الــ200000 سنة (أولسون،Olsonص. 28).

ويتّفق علماء الأنثروبولوجيا رغم الجدل الكبير الذي أثاره هذا الرقم، على أنّنا، جميعاً ـــ حسب هنيّة الجبلة الموجودة في كل جزئيّة حمض نوويّ بشريّ ـــ نتحدّر في الواقع من نفس الأسلاف. وبالطّبع، وفقاً لمناطق الكرة الأرضيّة، ومن خلال حركات الهجرة البشريّة والتمازج العرقيّ، تطوّرت الشّعوب مظهرة أحياناً سمات مميِّزة من السّهل التعرّف عليها. وبما أنّنا لا نشكّل إلا نوعاً واحداً يجب إلغاء مصطلح "عرق"، الذي ليس له أيّ أساس علميّ. وكان كلود ليفي-شتراوس Claude Levi-Strauss قد استشعر ذلك في عصره، من خلال دعوته الدّائمة إلى عدم الخلط بين عرق وثقافة:

أيضا عندما نتحدّث [...] عن مساهمة الأعراق البشريّة في الحضارة، ألسنا نعني بذلك أن المساهمات الثّقافيّة لآسيا أو لأوروبا، لأفريقيا أو لأمريكا تستمدّ شيئاً من أصالتها من كون هذه القارات، بشكل عام، مأهولة بسكّان من أصول عرقيّة مختلفة. وإذا كانت هذه الأصالة موجودة - وهو أمر غير مشكوك فيه- فهي ترجع إلى ظروف جغرافيّة وتاريخيّة واجتماعيّة، وليس إلى قدرات متميّزة مرتبطة بالتّكوين التّشريحيّ أو الفسيولوجيّ للسّود أو الصّفر أو البيض (ليفي-ستروس، ص. 10-11).

نحو مقاربة تطوّريّة للأدب

ليس النّص الأدبيّ بشكله العام هو وحده المقصود، بل يتعلق الأمر بفهم الظّاهرة العالميّة التّي تتمثّل في سرد القصص. وقد برهنت أحد الأعمال الحديثة لبراين بويد Brian Boyd ـــــ وهو أخصّائي يعترف به نبكوفNabokov ـــــ بشكل ملفت، على ما يمكن أن ينتجه توحيد المعارف في الدّراسات الأدبيّة: في أصل القصص (2009) On the origin of stories. ولم يكن صدور هذا الكتاب في الذّكرى الخمسين بعد المائة لأصل الأنواع L'Origine des espèces وليد الصّدفة. فإذ يرتكز بويد Boyd على مبادئ اجتماعيّة بيولوجيّة وتطوريّة في دراسته للأدب، فهو يستكشف أشكالاً جديدة للقراءة، متخليّاً بعض الشيء عن التّحليل السّميولوجيّ[1] الصّرف. وهو يقترح – لعدم توفّر ما هو أفضل حاليّ – كلمة "النّقد التّطوّري" "Evocriticism" (بويد، ص. 384) للإشارة إلى هذا النّوع الجديد من علوم الأدب. بعد البدء بجزء أول نظريّ، يدرس بويد Boyd على سبيل التّطبيق نصّين ليس بينهما تقارب في شيء: الأوديسة L'odyssée لهوميروس Homère و Horton Hears A Who!لـ د.سوس Dr. Seuss الشّهير (1954). في النّصّ الأوّل، يبحث بويد Boyd عن سرّ الجاذبيّة المستمرّة لهذا السّرد الذّي يبلغ عمره ثلاثة آلاف عام. لمَ لا يزال الإنسان مهتماً بقصّة عودة أوليس Ulysse إلى دياره بعد عشرين عاماً من الترحال، الذي لا يتطابق في شيء مع نمط حياتنا المعاصر (قيم فرديّة أو أخلاقيّة أو حربيّة أو فلسفيّة) ؟ أما في النّصّ الثّاني، يبيّن بويد Boyd أنّ ألبوم سوس Seuss المخصّص للأطفال هو تصوير مجازيّ للإذلال الذّي عاشه اليابانيّون بعد هزيمتهم عقب الحرب العالميّة الثّانيّة (هيروشيما، نجازاكي). النّصّ الأوّل هو دراسة نشوئيّة تطوريّة للسّلالة (أصل تطوريّ للجماعة) أمّا النّصّ الثّاني فهو دراسة نشوئيّة تطوريّة منذ الإخصاب (أصل تطوريّ فردي) ، مما يبرر تقاربهما لإظهار تباينهما على نحو أفضل.

ثمّة ثلاثة مبادئ كبيرة تحكم هذه الطّريقة: (أ) الفنّ هو "آلة داروينيّة" (بويد،Boyd ص.121) موجودة لأسباب بيولوجيّة؛ (ب) يتوافق الخيال مع تجربة معرفيّة شخصيّة ؛ (ج) الرّوايات، في تنوّعها، هي أوراق رابحة رئيسيّة في عمليّات اتّخاذ القرار. بما أنّ الخياليّ يخدم الواقعيّ ويساعد على التّأثير فيه – من منظور تطوّريّ – يصبح الفنّ، وتحديداً،

1يجد بعض منتقدي الدّاروينيّة الأدبيّة خللاً في تجاهل المستوى الجمالي، لأنّ جميع الكتب وضعت في نفس المستوى (انظر آدامز، ص.155-170). أليس هذا ما انتُقد عليه البنيويّون ؟

الأدب، عاملاً فعّالاً لتسهيل قابليّة الإنسان على التكيّف ولتحفيز قدرته على التّفكير (غوتشول وويلسون، Gottshall et Wilson ص. 169). بالنسبة إلى التّطوّريّين، يعدّ الدّماغ، بكل تعقيده، "مكيَّفا": إذا كان الإنسان قادراً على القيام بنشاط فكريّ معقّد لا يمكن لأيّ حيوان أن يساويه فيه، فإن ذلك يعد ثمرة تكيّف ما، حتى وإن كان هذا التّكيّف يُعزى بدون شكّ إلى صدفة تطوريّة. لكن لماذا تطوّر دماغنا على هذا النّحو؟ [1]

فلندفع بهذا التّساؤل إلى ما هو أبعد بقليل: لماذا غالباً ما يشدّنا ويجذبنا الخيال أو الرّوايات الخياليّة أو الاستيهاميّة أو المثاليّة أو حتّى الخارقة (والّدينيّة)، أكثر مما تشدّنا وتجذبنا الرّوايات الوثائقيّة أو العلميّة أو الإخباريّة البحتة، المكتوبة منها أو المصوَّرة ؟ ولم اخترع البشر الآلهة والأديان (انظر بوييه،Boyer 2001)؟

كلّ قارئ هو محلّل بالقوّة حتّى وإن كانت أدواته حدسيّة قبل أن تتّخذ شكلاً معيّناً. يصرّ التّطوريّون على وصف العمليّات المعرفيّة التّي تحصل أثناء القراءة، ويدعمهم في ذلك بشدّة علماء الأحياء المختصّون بالجهاز العصبيّ الذّين يظهرون، بالموازاة، كيف أنّ الدماغ يتفاعل مع محفزّات خاصّة. بإمكاننا إذن، بفضل التّصوير بالرّنين المغناطيسيّ والتّصوير المقطعيّ بالإصدار البوزيترونيّ، رسمَ خريطة لعمل القشرة الدّماغيّة، وكذلك توضيح الأهميّة الحيويّة التّي يوليها الإنسان للقيم المتمثّلة في الألعاب والفنّ والإبداع والنّشاط الدّماغي الخياليّ البحت في مواضع المنافسة والتّعاون والرّغبة بالاعتراف بقدراته والحصول على وضع اجتماعيّ معيّن. إنّ كشف هذه المظاهر جميعها هو ما تسعى إليه المقاربة البيو ثقافيّة للرّوايات، بغية تسليط الضّوء على الخصائص الإنسانيّة لهذه السّلوكيات. فقد تبيّن أنّ هذه الخصائص الإنسانيّة تتجاوز من دون أن تنفي، "الثّقافي" الذي يحمله كلٌ منا.

إنّ الخيال الذي نستوعبه منذ نعومة أظفارنا يحرّك فينا بعض الخصائص الحيويّة، ويحضّر بذلك جهازنا العصبيّ المعرفيّ لمواجهة مواقف مبرمجين عليها (الانتقاء الطّبيعيّ والجنسيّ، على سبيل المثال)، ولكن أيضا مواقف لم يسبق لنا أبداً التّعرض إليها (الخوف من الفراغ، ومن الغريب والنّفور حيال الأفاعي والعناكب مثلاً) والتّي ينبغي أن نعيشها للمرّة

[1]سؤال برّر الدّراسة المثيرة للإعجاب التي قام بها عالم الأنتروبولوجيا التّطوّري تورنس ديكون (1997)، الذّي أظهر أن دماغنا قد كيّف تدريجيّا (بتوسيعها) منطقة الفصّ الجبهيّ للدّماغ لإشباع الحاجات العصبيّة المعرفيّة المرتبطة باكتساب اللّغة واتّقانها.

الأولى لتنشيط الجين الحامل لها. وهذا ما يطلق عليه التّطوريّون تحديداً تسمية "نظريّة التّنبيه الوقائيّة" (ووركمان، Workman ص. 263).

إذا كان من الصّعب تحديد متى تمّت فعليّاً التّغييرات الكبرى في عمليّة تطوّرنا، لقلّة الآثار البايو أنثروبولوجيّة، إلا أنه قد أمكن التوصّل إلى أن الممارسات المتعلّقة باللّعب والفنّ تسبق بكثير مجيء اللّغة التّي تعدّ حكراً على نوعنا البشريّ. وقد برهن علماء الأنثروبولوجيا أن سرد القصص قد بدأ بطرق تواصل كالرقص أو الإيماء أو التّعبير بالحركات أو حتّى الوشم أو الرّسومات على الجسد: هكذا وُجدت آثار استخدام التّراب الصّلصاليّ على الجسد منذ أكثر من 120000 عام (بويد، Boyd ص.77)، بينما يعود تاريخ الرّسوم الجداريّة في مغارة شوفيه Chauvet (فرنسا) إلى حوالي 30000 سنة. وغنيّ عن القول إذن أن ظهور وتطوّر اللّغة قد ضاعف تدريجيّاً القدرات السّرديّة.

وتعود الفكرة المبتكرة والذّكية المتمثّلة في ربط ولادة اللّغة بممارسة عمليّة التّفلية من القمل لدى القردة إلى عالم الأنثروبولوجيا وعالم النّفس البريطانيّ روبن دانبر Robin Dunbar. إذ أنّ التّفلية من القمل لا يمكن ممارستها بشكل منفرد. وإذا ما تخطّينا أسبابه الصّحيّة البحتة، فإننا نعرف أيضاً أنه شكل من أشكال التّواصل الفعّال بين فردين، وهو قريب في بداياته – حسب رأي دانبر Dunbar – من النّميمة ("gossip"). علاوة على ذلك، "تصبح عمليّة التّفلية من القمل مقياساً جيّداً للإخلاص ويمكن أن تُقابل بالمساعدة عند التّعرض للاعتداء" (ناديل، Nadel ص. 14).

وقد تعيّن إيجاد وسيط آخر للتّوجه في نفس الوقت إلى عدة أفراد، من هنا كان ظهور اللّغة، التي يُفترض أنها بدأت بهمهمات وتنحنح وصيحات متقطّعة (دانبر Dunbar Grooming, Gossip,1997). وإذا كنّا لا نزال عاجزين عن تحديد وقت ظهور قواعد اللّغة، ولو بشكل تقريبيّ، فإننا مع ذلك على يقين أنّها تسبق إلى حد بعيد وصول الكتابة.

يتساءل التطوريّون عن سبب وجود ما يجعل من الإنسان الحيوان النّاطق الوحيد، مع ما يترتّب على ذلك من نتيجة مباشرة، تكمن في ميله إلى سماع أو قراءة القصص وبالتّالي سردها. حتّى وإن كانت ألسنيّة سوسورSaussure قد غيّرت حديثاً إدراكنا للّغة عن طريق

تصوّرها لها على أنّها وسيلة تواصل بشكل أساسيّ، إلاَّ أن علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بيّنوا أن أغلب أحاديثنا اليوميّة هي من قبيل الثّرثرة والنّميمة.تُستعمل اللّغة أحياناً للفت الانتباه فقط، وهي إحدى وظائف اللّغة التّي عرّفها جاكوبسون في السّتينيات والتّي تقوم باختصار على إعطاء معلومات غير ذرائعيّة وليست ذات صلة بحاجاتنا الحقيقيّة كالبحث عن الغذاء والأمان. غير أنّ تصوّر هذا النوع من أنواع الخطاب يتغيّر إذا اعتبرنا أن الأمر متعلّق أوّلاً بسرد الحكايات، الحقيقية أو المؤلّفة.

يصبح الطّفل منذ عمر الرابعة أو الخامسة قادراً على استنتاج ما يفكّر به الآخر بشكل صحيح والتّمييز بثقة بين القصّة الحقيقيّة والمؤلّفة. وهذا تطبيق مباشر لـعلم النّفس الحدسيّ Workman(Theory of mind، ووركمان ص 115 الذّي لا ينطبق على الأطفال المصابين بالتوحُّد. ابتداء من هذا العمر تتطوّر لدى الإنسان نزعة غريزيّة جامحة للقصص المحكيّة، وعلى وجه الخصوص، تلك التّي من نوع "تصرف-كما- لو"، وهي ما يطلق عليها جان ماري شايفرJean-Marie Schaeffer (ص. 41 وما يليها.) اسم التّظاهر المرح. كيف يمكن للسّرد أن يُعتبر ظاهرة تكيّف مع البيئة، وليس منتجاً ثانويّاً للقدرة على الكلام ؟

كان داروين هو أول من قال إنّ الفنّ، بأي شكل من أشكاله - نظراً لكلفته الباهظة بشكل خاص وحتّى غرابته في بعض الأحيان - هو عامل خفيّ يصبّ في مصلحة الانتقاء الجنسيّ (ميلر Miller ، 2001، ص.260-261). في الواقع، إذا كان شخص ما قادراً على تكريس هذا القدر من الطّاقة لأمر معروف على أنّه عديم الفائدة للبقاء اليوميّ، فإنّ ذلك لهو خير دليل على أنّ هذا الشّخص متميّز جينيّا، قادر على هدر الجهد الذّي يصعب على الآخرين استخدامه لتحقيق مهمّات منفعية بحتة (المأوى، المأكل، الرّعاية الأساسيّة). وهو يشكّل إذن شريكاً مهمّاً في الفترة التّناسليّة أي في السّن الأمثل للتّكاثر. نحن نملك آثاراً لتحف فنيّة تعود للعصر الحجريّ (فؤوس مزيّنة، تماثيل بشريّة أو حيوانيّة صغيرة) ونعرف أنّها لم تصنع بهدف منفعيّ، نظراً لكثرتها في نفس الموقع. وها نحن نفترض أن هذه المظاهر الفنيّة بعيدة عن كونها على هذا القدر من المجانيّة أو عن كونها جماليّة فحسب، كما كان يمكنها أن تبدو لنا على الفور. نحن هنا نتعامل مع خلاف بين التّطوريّين.

إذ يميل عالم النّفس التّطوّري جوفري ميلر Geoffrey Miller، مثلاً، إلى النّظرية الدّاروينيّة في الفنّ بوصفها استراتيجيّة انتقاء جنسيّ. في حين يعتبر ويلسون Wilson الفنّ (والدّين) نتاجاً لدماغ متكيّف تكيّفاً زائداً نوعاً ما. كل شيء يحدث كما لو كان على الفكريّ أن يخترع الفنّ لتعويض تعقيده الفطريّ (كارول، Carroll ص. 20-21).

إذا ما قبلنا بفرضيّة أنّ الفنّ بشكل عام هو نوع من التكيّف ويعزّز بقاء وتكاثر الأصلح، وهي مبادئ داروينيّة بامتياز، فماذا إذاً عن السّرد على وجه الخصوص، وبالتّالي عن الممارسة الأدبيّة ؟

نحن نريد بتأليف (أو كتابة الخيال)، قبل كل شيء مشاركة القصص التي تُروَّج فيها خيارات ومنظومات لمجموعة المشاعر والانفعالات مع مستمعين آخرين أو مع قرّاء محتمَلين. ما وراء الاستراتيجيّات السرديّة المدركة لدى المؤلّف هنالك أيضاً رغبة في المشاركة والتّعاون تعزّزها المكانة الاجتماعيّة الممنوحة لهم من قبل قرّائهم، مما يزيد من وضوحهم، ويروي في الوقت نفسه عطشهم إلى الاعتراف بهم. وفقاً لجوفري ميلرGeoffrey Miller، إن مؤشرات القدرة والميل إلى سرد القصص بطريقة ضليعة أو ناجحة تقوم مقام وظائف فكريّة فوقيّة بالنّسبة إلى التكيّفات الأساسيّة للإنسان مع بيئته الطبيعيّة (ميلر، 2001Miller، ص.105) وهي بهذا الصّدد تمثل نمطاً من أشكال زيادة القيمة التكيّفيّة. بالتّأكيد، لتحقيق هذه الوظيفة، يلزمنا قصص حقيقيّة أو مؤلّفة أو ذات خيال متجدّد أو روايات تشدّنا أو تدهشنا أو تصدمنا أو تشوّشنا أو تخيفنا أو تبهرنا...

يشدّد جوفري ميلرGeoffrey Miller على هذه الهيئة للّغة بكل أشكالها (لغة شفوية أو مكتوبة، رواية أو فيلم)، إذ أنه يعتبرها مؤشراً تكيُّفياً حقيقيّاً في الانتقاء الجنسيّ. وهو يأخذ مثالاً إيضاحياً على العرض الشّفهيّ ("verbal display") المستويات الخطابية الـخمسة لقصة سـيرانو دو بيرجيراكCyrano de Bergerac: 1) الكاتب الحقيقي لقصّة التاريخ الهزلي لدول وإمبراطوريات القمر L'Histoire comique des états et empires de la lune(1657)؛ 2) مسرحية إدمون روستان Edmond Rostand ، سيرانو دو بيرجيراك Cyrano deBergerac (1897)، 3) شخصية سيرانو Cyrano في كامل حيويّتها المغرية التي تهدف إلى كسب قلب روكسان؛ 4) المترجم الإنجليزيّ للمسرحيّة

(أنطوني بيرغيس Anthony Burgess، فقد قرأه ميلر لأنّه إنجليزي)؛ 5) جوفري ميلر (2001، ص. 378) هو نفسه الذّي يروي كل هذه المستويات في كتابه The Mating Mind. ويمكن لهذه السّلسلة أن تطول على يد كاتب هذه السّطور الذي بدوره يعلّق عليها، ثم على يد قارئ هذه السّطور، وربّما على يد آخرين قد تُنقل إليهم. قد تنطبق مستويات خطابيّة مماثلة، تؤدي جميعها وظائف تكيّفيّة، على أعمال كبيرة من الماضي، متجاوزة الجهاز النصّي البحت المعتمد.

إنّ قراءة تطوّرية ستنسف الإطار الجامد للنّصّ، وستعطي قيمة لخصوصيّة متلقّي العمل الأدبيّ، وستطرح كذلك العديد من وجهات النّظر (loci) والمستويات الخطابيّة، كما في مثال سيرانوCyrano، دون التّركيز على السّيميولوجيا النّصيّة بحدّ ذاتها. يصبح النّص أحد الأقطاب التكيُّفية لمجموعة متماسكة تؤخذ جميع مكوّناتها بالاعتبار (الفرد، الكاتب المبدع، الرّاوي، الملقي أو المتلقي، القصّة المحكيّة، القارئ، النّاقد). ولا يتعلّق الأمر بالتّأكيد باسترداد معادلات تبسيطيّة من قبيل الكاتب= الرّاوي، وإنّما بجعل هذه الأقطاب متداخلة مع بعضها البعض ومنسجمة في ضوء احتياجات التّكيّف. إنّ الجودة التّي يسمح ببلوغها تحليل نصّي بحت تبقى صالحة تماماً وضروريّة في المنظور التّطوريّ، لأنّه لا يمكننا أبداً استنفاذ ما يمكن تحليله في النّصوص التّي تواجهنا. وهذا تماماً ما يشكّل أوّل دوافع هذه المقاربة التّي لا تتمثّل بإنشاء وجهات نظر استدلاليّة (كاتب-شخصيّة- قارئ) بقدر ما تتمثّل بوضع تأويلات للمواقف المرتبطة بالقصّة المرويّة، وذلك بفضل علم النّفس الحدسيّ على وجه الخصوص (كارول، Carroll ص. 165). إنّ ما هو سائد هنا، هو أن هذه القدرة البشريّة على استنتاج ما يفكّر فيه الآخر تنطبق أيضاً على وجهات النّظر (loci) الثّلاث المذكورة أعلاه بين قوسين: القارئ يخمّن ما يفكّر به الكاتب والعكس بالعكس، ويستدلّ كذلك منطقيّاً على ما "تفكّر" به الشّخصيات، سواء أكان ذلك من جانب واحد أو فيما بينها.

نحو منهجيّة بيو ثقافيّة

بعد إلقاء الضّوء على هذه الخطوط العريضة لعلم النّفس التّطوري، هل يمكننا التّحدث عن منهجيّة بالنّسبة إلى قراءة النّصّ الأدبيّ ؟ من الواضح أنها طريقة تجريبيّة ومبنيّة على مراقبة الوقائع دون افتراض النّتائج المتوقّعة. ويتّفق الباحثون، في هذا المجال، على أنّ

التّطوّريّة على عتبة المرحلة التّربويّة، أي مرحلة إنتاج الكتب المخصّصة للتّعليم الجامعي (كارول، Caroll ص. 19). هذا يعني أنّ ثمّة جهداً يُبذل حالياً من أجل نشر هذه الاكتشافات الحديثة نسبيّاً، ولكن هذا الفرع من فروع المعرفة لم يصل بعدُ إلى مرحلة النّضوج، بحيث يمكنه أن يظهر كنظريّة مُشكَّلة. ونحن نشهد أيضاً ظهور تيّارين متباينين: الأوّل عام ويمثّله تحديداً بويد Boyd وكارول Caroll وغوتشال Gottschall وويلسون E.O.Wilson ، والثّاني محصور، كما يتصوّره خاصّة باس Buss وكوسميدس Cosmides وتوبي Tooby (انظر شير Scher وروشير Rauscher). مع ذلك، فإنّ النّقاشات القائمة حاليّاً تجعل من المحتمل أن تكون هذه المرحلة المقبلة (النّظريّة) في طريقها إلى التّشكّل. وقد شكّكت النّظرية التّطوّريّة بعدد من النّظريات استناداً إلى تناقضها الجوهريّ (ما بعد الحداثة) أو إلى فراغها البيولوجيّ (عقدة أوديب). وتبقى الإشكالية الكبرى التي ينبغي حلّها، وهي ربّما الحتميّة الثقافيّة التّي تظهر الحريّة البشريّة وكأنّها وهميّة. والأمر هنا لا يتعلّق بإنكار العامل الثّقافيّ كشيء مكتسب، وإنّما بالاعتراف بأنّه هنالك أوّلاً وقبل كل شيء طبيعة بشريّة، وأنّ تصرّفاتنا مشروطة في جزء منها بهذه الطّبيعة. ذلك لا يفسّر بالطّبع كلّ شيء، فكوننا نملك رجلين للمشي لا يحدد سلفاً المكان الذي سنذهب إليه ما إن نبدأ بالمشي.

طرح جان ماري شايفرJean-Marie Schaeffer في مطلع القرن الماضي مسألة معرفة سبب تعطّش الإنسان للخيال، لكنّ وجهة نظره لم تخرج عن إطار الأدب. كان يبرز فيها البيولوجيّ أحياناً، لكنه ليس سبيلاً مستكشَفاً عمداً من قبل الكاتب ولا يصبّ دائماً في صالح مفاهيم كال"ميم" meme أيّ عنصر الوراثة الذي أحدثه ريتشارد داوكنز Richard Dawkins كنظير للجينات، وهو تناظر يعتبره شايفرSchaeffer "شديد التبسيط" (شايفر، ص. 121). غير أنّه ليس بوسعنا إنكار ثراء ودقّة كلامه، خاصّة على مستوى ما يسمّيه تصميم الألعاب الخياليّة الذي يتوافق مع الرّهانات التّطوّريّة.

يقترح جوزيف كارولJoseph Caroll مثلاً بنية أساسيّة تتضمّن خمسة مفاهيم ضروريّة وكافية للبدء بقراءة تطوريّة: (أ) الطبيعة البشريّة كسلّم دوافع منظّم (ويحتل دافع بناء التّصوّرات الخياليّة مكاناً بارزاً في هذا السّلّم)؛ (ب) "وجهة النّظر" أو ما يتعلّق بموضوع المعنى حسب ثلاثة مراكز متميّزة للوعي: مركز الكاتب، والشخصيات، وجمهور

القراء المُستشعَر؛ (ج) اللّجوء إلى مسلّمات إنسانية كإطار عام مرجعيّ يطرح على ضوئه الكُتّاب هويتهم الخاصّة وكذلك بناهم الفرديّة التي تحمل معنى؛ (د) مجموعة من الفئات المخصّصة لتحليل الفروقات الفرديّة المرتبطة بالهويّة؛ (ه) تقسيم معنى أدبيّ معيّن إلى ثلاثة أبعاد: (الأول) الموضوع (مضمون مفاهيميّ)، (الثاني) النّبرة (الجو الانفعاليّ) و (الثالث) التّنظيم الشّكليّ (وهي فكرة تمتدّ من البنى الكليّة كالحبكة الرّوائية، والتّسلسل السّردي إلى البنى الصغيرة كالعبارة الموسيقيّة، وقائمة الكلمات والمقاطع الصّوتيّة1.)

إنّ هذه القراءة هي التّي سمحت لي بتحرير مقال عن عمل مارتن وينكلر Martin Winckler. يهدف الكتاب إلى إبراز ما يثير لدى مارك زافران Marc Zaffran ضرورة التجمّل باسم مستعار لكاتب اقتُبس اسمه من عمل جورج بيريك Georges Perec (وينكلرWincler) واختراع شخصيّة طبيب مستوحاة بشدّة من تجربته الشّخصيّة، والتي تظهر في عدّة روايات (برونو ساش Bruno Sachs)، كل ذلك سعياً إلى إضفاء الشّرعيّة على نشاطه الكتابيّ، وأملاً في بلوغ الشّهرة الأدبيّة. إنّ هذه الأقطاب الثّلاثة متماسكة لدرجة أنّ التّمييز التّام بينها، وإن طُبّق نوعاً ما على المستوى السّرديّ، لا يخلو من خطر الانحرافات. هكذا مثلاً، نعرف إلى أيّ درجة تُشكّل الأخلاق الطّبيّة فكرة مهمّة ومهيمنة. فكيف يمكننا تصوّر أن شخصية برونو ساش Bruno Sachs الذّي يعدّ حامل راية هذه الأخلاق لا تتبنّى عقيدة مارك زافران Marc Zaffran نفسه؟ يكمن الجواب في كون روايات مارتن وينكلر Martin Winckler "الطّبيّة" واقعيّة في تصوّرها، إذ أنّه من الضّروريّ أن يؤمن الكاتب والشّخصيّة المحوريّة بالقيم نفسها وإلا نتج عدم ترابط تام، أو أسوأ من ذلك،

5 (a) human nature as a structured hierarchy of motives (within which the motive of constructing imaginative representations holds a prominent place); (b) “point of view”, or the location of meaning within three distinct centers of consciousness—that of the author, the characters, and the implied or projected audience; (c) the use of human universals as a common frame of reference in relation to which authors identify their own individual identities and their own distinct structures of meaning; (d) a set of categories for analyzing individual differences in identity; and (e) the distribution of specifically literary meaning into three chief dimensions: (i) theme (conceptual content), (ii) tone (emotional coloring), and (iii) formal organization (a concept that ranges all the way from macrostructures like plot and narrative sequencing to microstructures like phrasing, word choice, and sequences of sounds). » (Carroll, p. 188, je traduis)

محاكاة تهكميّة شنيعة ليست بالتّأكيد هدف كاتبها (انظر لابران Lapprand، 2012).

لا يمكن لأحد إنكار أنّ وراء أصولنا العائليّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والعرقيّة رغبة كبيرة بسماع الحكايات وقراءتها. على هذا الصّعيد لم يتغيّر شيء بالفعل منذ الإلياذة والأوديسة لهوميروس، وصولاً إلى هاري بوترHarry Potter وميلينيوم Millenium . وعلينا نحن اليوم النّظر في ذلك أمام كلّ نصّ أدبيّ مهما كان مصدره. لا حصر للتّأويلات ولا حدود لها تماماً كالخيال البشريّ. إن استهلاكنا الرّوائيّ لهو حاجة حيويّة، تكيُّفيّة وبالنّتيجة تطوّريّة بعمق. ولحسن حظّنا أنّ شهرزاد لم تتوقّف بعد اللّيلة الواحدة بعد الألف. وقد استمرّت حكاياتها بعبور القرون والحدود، ولم يتغيّر سوى لونها وطبقتها الخارجيّة وراويها فقط. طالما أن الإنسانيّ موجود، سيكون المعرفيّ موجوداً، وبالتّالي السرديّ. إنّ الأمر يتعلّق باختصار ببقاء دماغنا أي بقاء نوعنا.

البيبليوجرافيا

تُدرج هذه البيبليوجرافيا، من دون أن تكون شاملة، مجموعة مختارة من الأعمال الأساسيّة في مجال علم النّفس التّطوّريّ. النّسخة الفرنسيّة مذكورة في حال الحاجة إليها. وقد وضعنا في فئة خاصة الأعمال التّي تُعنى مباشرة بالمجال الأدبيّ.

Ouvrages généraux

ADAMS, Jon. (2011), « Value Judgments and Functional Roles: Carroll's Quarrel with Pinker », dans Nicholas SAUL et Simon J. JAMES (dir.), The Evolution of Literature: Legacies of Darwin in European Cultures, Amsterdam, Rodopi.

BERGEZ, Daniel et al. (2002), Méthodes critiques pour l'analyse littéraire, Paris, Nathan Université.

BLACKMORE, Susan. (1999), The Meme Machine, Oxford, New York, Oxford University Press. Traduction française : La Théorie des mèmes : Pourquoi nous nous imitons les uns les autres, Paris, Max Milo, 2006.

BOYER, Pascal. (2001), Et l'homme créa les dieux : Comment expliquer la religion, Paris, Gallimard, coll. « Folio essais ».

BRYSON, Bill. (2007), A Short History of Nearly Everything.New York, Broadway Books, 2004. Traduction française : Une histoire de tout, ou presque..., Paris, Payot.

BUICAN, Denis. (2008), L'Odyssée de l'évolution, Paris, Ellipses.

BUSS, David. (1999), Evolutionary Psychology: The New Science of Mind, Boston, Allyn and Bacon.

DARWIN, Charles. ([1859] 2009), On The Origin of Species by Means of Natural Selection, New York, The Modern Library, présentation d'Edward J. Larson (nombreuses éditions en français de L'Origine des espèces et dans d'autres langues).

DAWKINS, Richard. (1975), The Selfish Gene, Oxford University Press. Traduction française : Le Gène égoïste, Paris, Odile Jacob, 1976.

DEACON, Terrence. (1997), The Symbolic Species, New York, Londres, W. W. Norton and Company.

DUNBAR, Robin. (1997), Grooming, Gossip, and the Evolution of Language, Cambridge (Mass.), Harvard University Press.

—. (2004), The Human Story: A New History of Mankind's Evolution, Londres, Faber and Faber.

— et Louise BARRETT (dir.). (2007), The Oxford Handbook of Evolutionary Psychology, Oxford, Oxford University Press.

FISHER, Helen. (1992), Anatomy of Love, New York, Ballantine Books, traduction française :Histoire naturelle de l'amour, Paris, Robert Laffont, 1994.

GOULD, Stephen Jay. (2003), The Hedgehog, the Fox and the Magister's Pox: Mending the Gap between Science and the Humanities, New York, Three Rivers Press.

HURET, Jules. (1999), Enquête sur l'évolution littéraire, Paris, José Corti.

LÉVI–STRAUSS, Claude. (1961), Race et Histoire, Paris, Éditions Gonthier.

MILLER, Geoffrey. (2001), The Mating Mind: How Sexual Choice Shaped the Evolution of Human Nature, New York, Anchor Books.

—. (2009), Spent: Sex, Evolution, and Consumer Behavior, New York, Viking.

NADEL, Jacqueline et Jean DECETY. (2002), Imiter pour découvrir l'humain : Psychologie, neurobiologie, robotique et philosophie de l'esprit, Paris, PUF.

OLSON, Steve. (2002), Mapping Human History: Genes, Race, and Our Common Origins, Boston, New York, Houghton Mifflin Company.

PINKER, Steven. (2002), The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature. New York, Viking Penguin, traduction française : Comprendre la nature humaine, Paris, Odile Jacob, 2005.

RAYMOND, Michel. (2008), Cro–Magnon toi–même ! : Petit guide darwinien de la vie quotidienne, Paris, Seuil, coll. « Points Sciences ».

SCHER, Steven J. et Frederick Rauscher (dir.). (2003), Evolutionary Psychology: Alternative Approaches, Boston, Dordrecht, New York, Londres, Kluwer Academic Publishers.

SMAIL, Daniel Lord. (2008), On Deep History and the Brain, Berkeley, Los Angeles, Londres, University of California Press.

VALÉRY, Paul. (1960), OEuvres II, Paris, Gallimard, coll. « Bibliothèque de la Pléiade ».

WILSON, Edward O. (1998), Consilience: The Unity of Knowledge, New York, Akfred A. Knopf, traduction française : L'Unicité du savoir : de la biologie à l'art, une même connaissance, Paris, Robert Laffont, 2000.

WORKMAN, Lance et Will Reader. (2004), Evolutionary Psychology: An Introduction, Cambridge, Cambridge University Press, traduction française : Psychologie évolutionniste : Une introduction, Bruxelles, De Boeck, 2007.

Ouvrages plus spécifiques aux approches évolutionnistes du narratif ou de l'art

BOYD, Brian. (2009), On the Origin of Stories: Evolution, Cognition and Fiction, Cambridge (Mass.), Londres, Harvard University Press.

BOYD, Brian. (2009), On the Origin of Stories: Evolution, Cognition and Fiction, Cambridge (Mass.), Londres, Harvard University Press.

CARROLL, Joseph. (1995), Evolution and Literary Theory, University of Missouri Press.

—. (2004), Literary Darwinism: Evolution, Human Nature, and Literature, New York, Routledge.

DUTTON, Denis. (2009), The Art Instinct, New York, Berlin, Londres, Bloomsbury Press.

GOTTSCHALL, Jonathan. (2003), "The Tree of Knowledge and Darwinian Literary Studies", Philosophy and Literature, vol. 27, nº 2, p. 255–268.

— et David Sloan Wilson (dir.). (2005), The Literary Animal: Evolution and the Nature of Narrative, Evanston (Illinois), Northwestern University Press.

LAPPRAND, Marc. (2012), Trois pour un : Une lecture évolutionniste de l'oeuvre de Martin Winckler, Québec, Presses de l'Université du Québec.

SAUL, Nicholas et Simon J. James (dir.). (2011) The Evolution of Literature: Legacies of Darwin in European Cultures, Amsterdam, New York, Rodopi.

SCHAEFFER, Jean–Marie. (1999), Pourquoi la fiction?, Paris, Seuil.

TOOBY, John et Leda COSMIDES. (2001), "Does Beauty Build Adapted Minds? Toward an Evolutionary Theory of Aesthetics, Fiction and the Arts", SubStance, vol. 30, nº 1–2, p. 6–27.

ملخّص

بدأت مقاربة نقديّة جديدة بالظّهور في المجال المعرفيّ. بالنّسبة للأدباء، هل ستساهم المقاربة البيولوجيّة الثّقافيّة في تجديد علميّ؟ التّحدّي المتُمثّل هنا يكمن في الرّبط بين عدة معارف منفصلة بطبيعتها، إذ يتعلّق الأمر بدمج علم الأحياء والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بالعلوم الإنسانيّة، لاسيّما الأدب: وهذا هو ما يعرف بدمج المعارف. وهذا يتطلّب الاعتراف المسبق بالدّور التّكيفيّ الذّي لعبته الرّوايات ولا تزال تلعبه في تطوّر الإنسان العاقل .

بعد لمحة عامّة عن استقبال داروين في الأوساط غير العلميّة، يعرض هذا المقال الوضع الحاليّ لما اتُّفق أن يسمّى بالمقاربة البيو ثقافيّة أو البيو شعريّة. وتثير هذه المقاربة الأسئلة الأساسيّة التّي تواجه هذا التّخصّص، دون الادّعاء بأنّها ستجيب عنها بأكملها، ولكن تأمل أن تظهر كلّ المنفعة التّي يقدّمها هذا الحقل الجديد من البحث العلميّ. نجد في الملحق المراجع الأساسيّة المتعلّقة بهذا المجال.

المقالات المترجمة من اللغة الألمانية

أما زالت دراسة المصاحبات اللغوية رائجة؟

مفهوم المصاحبات اللغوية وإمكانيات تطبيقه فى طرق التدريس المختلفة[1]

تأليف: أنّا ريدر

ترجمة: أ. د. محمد السيد سليمان العبد

جامعة عين شمس

كلية الألسن – قسم اللغة العربية

[1] أصل هذه المقالة:

Anna Reder: Kommen Kollokationen in Mode?
Kollokationskonzepte und ihre moegliche Umsetzung in der Didaktik.In :Linguistik Online,47,3/2011.

مدخل

يفترض السؤال المطروح فى العنوان أن الاهتمام بالمصاحبات اللغوية يتنامى تناميا مستمرا. هل مازال هذا الفرض قائما حتى الآن ؟ألم يصبح الكلام عن المصاحبات اللغوية شائعا ومعتادا منذ زمن طويل؟

إذا قمنا بالبحث فى الأدبيات المتخصصة فى دراسة المصاحبات اللغوية،فسوف نجد أمامنا عددا كبيرا من تلك الأدبيات التى اختصت بدراسة هذا الموضوع .لقد تناول هاوسمان "Hausmann "(1984) ظاهرة المصاحبات اللغوية فى الثمانينيات من القرن العشرين،واستطاع أن يقدم للقارئ أطروحته النى تقضى بأن تعلم الثروة اللفظية Wortschatz ليس إلا تعلما للمصاحبات اللغوية.ومنذ ذلك الحين يتوالى- على نحو دائم - ظهور دراسات عن المصاحبات اللغوية.

وقد رصدت زيادة ملحوظـة فى الإصدارات العلمية عن هذا الموضوع مع بداية الألفية الثالثة
(cf.Z.B.Darr2005;Hausmann2007;Lutge2002;Reden2006;Scherfer2001;Siepmann 2003;Steinbugel 2005).

إن أي عينة مختارة من المراجع المتخصصة في هذا الموضوع ،تثبت- بما لا يدع مجالا للشك- أن المصاحبات اللغوية ما فتئت تدرس دراسة مكثفة في مجالات بحثية عدة، مثل: علم المعاجم، وصناعة المعجم، واللغات المتخصصة، وعلم لغة المدونات، فضلا عن البحوث المتعلقة بتدريس اللغة.

بناء على ما سبق، فإن دراسة المصاحبات اللغوية مازالت تلقى رواجا. وهذا هو ما يمكننا أن نستنتجه بمجرد تأمل المسار البحثي في المصاحبات. وبالنظر إلى الممارسات الفعلية لعملية التدريس، فإننا نطرح السؤال التالي نفسه: إلى أي مدى يمكن تطبيق نتائج الأبحاث في طرق التدريس المختلفة؟.

من هذا المنطلق، سوف تحاول هذه الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية: ما سلبيات تطبيق المفاهيم المختلفة للمصاحبات اللغوية تطبيقا فعليا على عملية التدريس وما

إيجابياتها؟، وإلى أي مدى تسمح المصنفات الدراسية بنمو الوعى بالمصاحبات اللغوية لدى الدارسين؟

التفسيرات المختلفة للمصاحبات اللغوية وتطبيقاتها

لابد لنا أولا من أن نبدأ بتناول أحد العوامل التي تعوق تطبيق المعارف النظرية التي تنتج عن البحث في ظاهرة المصاحبات اللغوية فى عملية التدريس الفعلية. وهنا يبدو أن عدم وجود تعريف موحد للمصاحبات اللغوية يمثل مشكلة بحثية لا حل لها. ولعل من أهم العوامل المؤدية إلى صعوبة التعريف هو شدة تعقيد الظاهرة اللغوية من ناحية، وانتهاج طرق بحثية مختلفة من ناحية أخرى. من ثم، فإن لمصطلح المصاحبات اللغوية تفسيرات عدة في مختلف المراجع المتخصصة. وتختلف تلك التفسيرات وفقا لاختلاف المجالات البحثية. وسوف نتناول فى الجزء القادم بعض التعريفات وإمكانيات تطبيقها على طرق التدريس المختلفة.

المصاحبات اللغوية بوصفها توافقا لفظيا: الكلمات المفردة وحدات لبناء مختلف التعبيرات لدى الدارسين:

من المنظور الدلالي تعد المصاحبة اللغوية مفهوما مجردا هو أنها عبارة عن توافق؛ أي توافق دلالي بين الكلمات. وإذا نظرنا مثلا إلى قولنا:

أثبتت الدراسات أن الأساليب الخاطئة في التعلم يمكن أن تؤدى إلى تعطل التفكير بالمخ.

في هذه الجملة نستطيع أن نرى أن الكلمتين المستقلتين في الدلالة : "الدراسات" و"أثبتت" في الجملة الرئيسة متوافقتان توافقا تاما، وأن الكلمتين "أساليب التعلم" و"الخاطئة"(في الجملة الفرعية) متوافقتان أيضا. يتوافق الفعل "يؤدى" بحرف الجر المصاحب له "إلى" توافقا تاما مع عبارة "تعطل التفكير". وهذه العبارة بدورها تتقبل وجود كلمة "المخ" بجانبها.

إذا طبقنا هذا المفهوم المجرد للمصاحبات اللغوية الذى يتخذ من العلاقة بين الكلمات محورا له في عملية التعلم، فسوف تواجهنا مشكلة كبرى هي أن هذا المفهوم يعتمد اعتمادا

أساسيا على الكلمات. إنه يوحى للمتعلم بأن التعبيرات تتكون من كلمات مستقل بعضها عن بعض، اذ يكفى اختيار الكلمات التي تتوافق فيما بينها دلاليا ووضع بعضها بجانب بعض. بيد أن هذا الأمر يبدو معقولا. إن المشكلة تكمن في ان التوافق الدلالي semantische Vertraeglichkeit بين الكلمات يقتصر غالبا على لغة دون أخرى. إن ما يبدو معتادا في إحدى اللغات قد يكون غريبا في لغة أخرى. خذ مثالا على ذلك الكلمتين (اقصى جهد Hoechstleistung) و(يبذل erbringen) اللتين تتوافقان توافقا تاما في الألمانية، ولكنهما غير ذلك في لغة أخرى كالمجرية، حيث يتوافق(أقصى جهد) مع فعل آخر هو – في المقابل الألماني- (يقدم anbieten).

وفى حالات أخرى، نجد أن التوافق يمكن أن ينقل على حاله من لغة إلى أخرى. وخير مثال على هذه الحالات العبارة الألمانية (يحفظ النظام Ordnung halten) التى تقابلها في اللغة المجرية كلمة (rendettart).

هذا المفهوم الدلالي للمصاحبات اللغوية له أيضا أثران سلبيان في عملية التعلم. أما أحدهما فإن الاعتماد على الكلمات المفردة- من حيث هي وحدات بنائية- يحتاج إلى مزيد من الوقت؛ فنحن إذا تجاوزنا مستوى الكلمة فسوف نجد أن بناء الجملة هو الأسرع. وأما الأثر السلبى الآخر، فهو أن المتعلم سوف يحمل على عاتقه أن يدرس - إلى جانب الكلمة ذاتها- دلالتها التقريرية ودلالتها التضمينية، وأن ينظر إلى معنى كل كلمة حال كونها جزءا من مصاحبة لغوية. ولابد للمتعلم أيضا أن يعرف إن كان هذا التوافق فى اللغة الأجنبية مطابقا للتوافق في التعبير المقابل في لغته الأم أم لا.

وهذا الأمر يتطلب بالطبع جهدا معرفيا هائلا على المستوى اللغوي، وهو جهد لا يفضى بالضرورة إلى ناتج مكافئ له؛ وذلك أننا نجد دائما في النصوص التي يعدها المتعلمون اختبارات خاطئة للكلمات ترجع – في أغلب الظن- إلى الجهل بمعاني الكلمات في حال كونها جزءا من مصاحبة لغوية. وينطبق هذا على التعبير الشائع لدى دارسي قواعد لغة بعينها كالمجرية والذى يتضح جليا في واجبات درس التعبيرات الاصطلاحية، حيث يلقى المرء غالبا مثل هذه التعبيرات الاصطلاحية في النصوص الدراسية. في مثل تلك الحالات، لا يضع الدارس في حسبانه أن الفعل (يلتقى مع sich treffen) بمعنى (يلتقى مع الآخرين)

على الأشخاص فحسب؛ وذلك أن هذه القواعد التوافقية تبدو له غريبة على مستوى لغته الأم.

ان الخطأ الذى ورد بالمثال الذى ضربناه آنفا يثبت ان الدارس غير مدرك للفرق التوافقي بين الفعل (يلتقى مع sich treffen) بصورة منفردة بدون مصاحبات. وسوف يدفعه هذا إلى أن يطبق عليه العلاقات التوافقية للفعل المقابل له فى لغة أخرى مثل المجرية. المجرية لا تفرق بين أن يلتقى الإنسان بأشخاص أو بأشياء. وهنا من المفترض ان تستخدم الأفعال (يلتقى بأشخاص) و(يقابل او يجد) على نحو سليم، وذلك إذا تعلم الدارس هذه الافعال فى مصاحبات لغوية لا أن يتعلمها مفردة. كذلك فإن تعلم الدارس المصاحبات اللغوية شائعة الاستخدام بوصفها وحدات متكاملة مثل (يلتقى مع الاصدقاء)أو (يقابل تعبيرات اصطلاحية) سوف يسهم في تخفيف حدة التداخل بين اللغات.

المصاحبات اللغوية من حيث هي تراكيب شائعة الاستخدام : التراكيب شائعة الاستخدام بوصفها وحدات لبناء التعبيرات لدى الدارسين:

في الجزء السابق من هذه الدارسة ناقشنا-على نحو بيّن- عدم جدوى تطبيق المفهوم الدلالي للمصاحبات اللغوية في عملية التدريس؛ وذلك أن هذا المفهوم المجرد من شأنه أن يفضى إلى اكتساب الثروة اللغوية على مستوى الكلمات فحسب.

من ناحية أخرى، فإنه من الصعوبة بمكان أن يتم التعامل مع مصطلح "التوافق" في عملية التعلم بوصفه مفهوما دلاليا؛ وذلك أن النصوص تحتوى على تراكيب متعددة الكلمات، شائعة ومعتادة، مثل: المرأة المعيلة) وتراكيب أخرى إبداعية غير معتادة مثل (المرأة المنعزلة) على نحو ما نجد في النص التالي:

"أشعر الآن بشيء من الغضب الذى لا أستطيع أن أفصح عنه مع أي أحد؛ فأمي المنعزلة لا أراها إلا خمس دقائق في الصباح الباكر، وهى تعود مساء في وقت متأخر مستنزفة من فرط التعب ولا تروم إلا راحتها".

تعد هذه التراكيب المعتادة مدخلا جيدا لعرض قواعد التوافق الخاصة بكل كلمة. أما التراكيب غير شائعة الاستخدام والتي تعد في الحقيقة مخالفة لقواعد توافق الكلمة، فإنها لا تصلح لاستنتاج علاقات التوافق الخاصة بالكلمة. من أجل ذلك، فإن التراكيب غير المعتادة يمكن أن ينظر إليها باعتبارها ثروة لغوية مؤقتة لفهم النص ليس إلا. ولا ينبغي لنا أن نلقى لها بالا بعد ذلك.

كيف يستطيع متعلم اللغة إذن أو متعلم لغة أجنبية أن يقرر إن كان التركيب اللغوي Wortkombination تركيبا شائعا متداولا ؟ وكيف يستطيع استخدامه فى الممارسة اللغوية؟ تقدم طرق البحث المختلفة في السياق النصي بعض العون في تحديد كون التركيب شائعا أو غير شائع. في النظرية السياقية Kontextualismus يتم تفسير مفهوم المصاحبات اللغوية بالنظر إلى تواترها؛ فالكلمات التي تظهر ظهورا ملحوظا وقد صاحب بعضها بعضا في النصوص تعد مصاحبات لغوية. وبالبحث عبر بوابة لايبزج Leipzig الالكترونية للثروة اللغوية عن الكلمات التى تصاحب غالبا الفعل (يثبت) belegen، يسفر البحث في المدونة اللغوية عن أن كلمة (دراسات) Studien هي الأكثر ارتباطا به (1159)،كما يسفر عن أن كلمة (دراسات) Studien غالبا ما يقع معها الفعل ذاته.

إذن فإن مفهوم المصاحبة اللغوية من المنظور السياقي يركز تركيزا أساسيا على عملية التلازم Kookurenz؛ فالسياقيون ينطلقون من قاعدة إحصائية، ويفسرون المصاحبات اللغوية الخاصة بكلمة ما بأنها الكلمات التي تظهر غالبا مع هذه الكلمة ظهورا ملحوظا.

ولعل من مميزات تطبيق هذه الطريقة في فهم المصاحبات اللغوية في عملية التدريس أنها تتيح للدارسين الفرصة في أن يميزوا المصاحبات اللغوية فى المدونات اللغوية الالكترونية بأنفسهم؛ فعلى سبيل المثال يسفر البحث على أساس التواتر والتكرار Frequenz عن كلمة (مصطلحات Termine) عن أن الفعل (يدون eintragen) هو الذى يظهر معها فى السياق غالبا. وبناء على هذا، يستطيع الدارسون أن يستخرجوا التراكيب الشائعة من المدونات اللغوية الالكترونية لضمها إلى الثروة اللغوية التي يستخدمونها بالفعل. وفى حال كتابة النصوص تستطيع البيانات المتاحة عن المصاحبات اللغوية في المدونات اللغوية الالكترونية أن تمدّ الدارسين بالكلمات الملائمة لتكوين المصاحبات اللغوية. والمثال التالي من تعبيرات

الدارسين يستطيع أن يبين كيف يمكن للبوابة الالكترونية للثروة اللغوية التابعة لجامعة لايبزج أن تساعد المستخدمين من خلال البيانات المتاحة عن المصاحبات اللغوية:

"لدي النية في تجريب بعض استراتيجيات تعلم المفردات".

هنا لا يوجد شك في كون هذا التعبير مفهوما وصحيحا من الناحية النحوية، ولكنه لا يعبرّ تعبيرا كاملا عن المقصود من الكلام في الحال التي يكون الدارس فيها راغبا في أن يتحدث عن قوة نيته. ومن الممكن للدارس أن يصوغ بنفسه هذه الجملة صياغتها المثلى بمساعدة البيانات المتاحة عن المصاحبات اللغوية في البوابة الالكترونية للثروة اللغوية، حيث إن استخدام كلمة (نية Absicht) فى البحث سوف يسفر تحت بند "أهم الكلمات المصاحبة من جهة اليسار" عن أن الكلمات التالية هى الأكثر مصاحبة لها:

ال (5189)1، ضمير الملكية للغائب المذكر هاء (1015) ، أداة النفي لا (697)2، ضمير الملكية للغائب المؤنث (ها) (686) ، مخادع (663)، مع (448)، كامل (379)، قوية (369)، شريرة (363)، ضمير الملكية للمتكلم (الياء) (319)، ال (300)3 ، شرير (238)، ال (230)4

(http://wortschatz.uni-leipzig.de/"Absicht", Stand: 15.05.2010)

ومن بين الكلمات المصاحبة المحتملة تعد الصفة "قوية" هي الأنسب، وبهذا يصل الدارس بمساعدة البوابة الالكترونية للثروة اللغوية إلى الصياغة المحسنة التالية:

" لدي النية القوية لتجريب بعض استراتيجيات تعلم المفردات"

ومن هنا نجد أن إحصاء مرات التكرار والتحري الأوتوماتيكي عن الكلمة من شأنه أن يساعد الدارس على تعلم المصاحبات اللغوية بالمفهوم السياقي وصياغتها.

ولكن هل هذه هي الحال دائما؟ هل في المدونات اللغوية الالكترونية دائما وسيلة

[1]نرجو مراعاة أن أداة التعريف في اللغة الألمانية تقع دائما على يسار الكلمة على العكس من اللغة العربية
[2]نرجو مراعاة الأمر نفسه
[3]نرجو مراعاة الأمر نفسه
[4]نرجو مراعاة الأمر نفسه

فعالة لمساعدة دارسي اللغة الأجنبية في استخدام المصاحبات اللغوية؟ الإجابة إلى حد ما: نعم، وذلك أن بعض المحاولات الفعلية تشير إلى أن دارسي اللغة الألمانية في المستوى المتقدم يستطيعون التعامل بفاعلية مع مجموعة المقترحات المتاحة لتكوين شتى المصاحبات اللغوية. إن الأمثلة التالية التي من شأنها أن توضح كيفية التعامل الفعال مع المصاحبات اللغوية في عملية التدريس تعود إلى أحد السيمينارات التي ألقيتها في مادة "صناعة المعجم" (Lexikographie) وذلك في الفصل الدراسي الصيفي للعام الدراسي 2009/ 2010 بجامعة بيكس Pecs.

ينبغي لنا هنا أن نعرض نوعين من الصعاب: أما أولهما فهو أن الدارس لا يستطيع أن يقوي المعنى في المثال المذكور أعلاه، إلا إذا استخدم مهارته اللغوية في إعادة التعرف على الكلمة المعنية من بين المقترحات المتاحة. فإذا كان الدارس لا يمتلك القدر المناسب من المعرفة بالثروة اللغوية، فإن القائمة الطويلة للمقترحات المحتملة سوف تشكل عبئا عليه، كما أنه من الضروري أن يكون الدارس متمكنا من استراتيجيات البحث في البوابة الالكترونية؛ لأن البحث الأوتوماتيكي لا يقتصر على الكلمات مستقلة الدلالة فحسب، وإنما يتضمن أيضا الكلمات تابعة الدلالة. ولأن الكلمات تابعة الدلالة لا تمت بدورها بأى صلة مع المراد من عملية البحث – وهو تقوية معنى "النية"- فلا مانع من أن يتجاوزها الدارس.

و أما النوع الثاني من الصعاب التي تواجه الدارس في عملية البحث عن الكلمات المصاحبة في البوابة الالكترونية، فإنه يتمثل في أن البحث الآلي يعتمد- بناء على معيار التكرار- على الكلمات المفردات فقط. وهو لا يستطيع بالإضافة إلى ذلك التمييز بين المعاني المختلفة للكلمة المعنية. ومن ثم يجد الدارس نفسه أمام سياق واحد تظهر فيه الكلمة المعنية بمعنى واحد فقط. ولمزيد من توضيح هذه المشكلة سنتناول المثال المذكور آنفا مرة أخرى (أملك النية) Absicht haben. إن الفعل (يملك) haben له سياق آخرذو قيد نحوي يقتضي وجود مفعول به فقط، ولهذا لابد من استبعاد الصفة المصاحبة (كاملة) voller من المقترحات على رغم أنها – من حيث هي أحد المقترحات- تسبق الصفة (قوية) feste ، ولكنها ليست مفعولا به، بل هي جزء من التركيب (عن قصد كامل) mit voller Absicht . صحيح أن الصفة (كاملة) وردت في نهاية القائمة من حيث إنها ملائمة من الناحية النحوية ولكن وضعها في نهاية القائمة يدل على أن مرات تكرارها قليلة (volle

24). وعند اختيار الصفة الأكثر استخداما، فإن الدارس لا يحتاج فقط إلى المعرفة بالمجال الدلالي حتى يستطيع التعرف على الكلمة مرة أخرى، ولكن عليه أيضا أن يضع السياقات المختلفة في اعتباره.

يدلنا المثال (النية القوية) feste Absicht على أن البحث عبر البوابة الالكترونية للثروة اللغوية عن المقترحات المتاحة للكلمات المصاحبة للتراكيب المكونة من صفة واسم ناجح للغاية؛ لأن الكلمة الأساسية والكلمة المصاحبة لها متلاصقتان. وفي بعض النماذج البنائية الأخرى والتي تكون العناصر المكونة لها غير متلاصقة يجد الدارس صعوبة أشد عند البحث عن المقترحات المتاحة للكلمات المصاحبة؛ وذلك أن عليه بعد ذلك أن يبحث عن الكلمات المصاحبة المناسبة في وسط "خضم هائل" من المتلازمات.

وهناك أيضا بعض الأسئلة التي لا تستطيع البوابة الالكترونية الإجابة عنها. ويعد السبب المباشر في ذلك أن المصاحبات اللغوية الموجودة متعلقة إلى حد بعيد بالنصوص التي تحتوي عليها المدونة اللغوية. فإذا بحثنا -على سبيل المثال- عن الفعل المناسب لكلمة (استراتيجيات التعلم) Lernstrategien أوإذا أردنا أن نتأكد من أن الأفعال (يستخدم) gebrauchen-einsetzen أو (يطبق) anwenden عادة ما ترتبط بكلمة (استراتيجيات التعلم) Lernstrategien ، فلن يظهر البحث في البوابة الالكترونية أية تلازمات. فالمدونة اللغوية المتاحة بالبوابة الالكترونية لا تحتوي على هذه الكلمة إلا فيما ندر.من أجل ذلك، فإن إدخال كلمة (استراتيجيات) Strategie في خانة البحث لن يجدي أيضا. فالأفعال (يستخدم) gebrauchen-einsetzen أو (يطبق) anwenden لن تظهر ناتجا للبحث. ومن ثم لن يحصل الدارس على تأكيد لأية مقترحات. وسيكون من الضروري في هذه الحالة إجراء بحث موسع في النصوص الأخرى التي تتيحها لنا محركات البحث حتى نثبت مدى التلازم بين (استراتيجيات التعلم) Lernstrategien والأفعال المذكورة سابقا. من ناحية أخرى، تقدم لنا أيضا المدونات اللغوية العامة التابعة لمعهد اللغة الألمانية Institut für deutsche Sprache مجالا آخر للبحث الالكتروني.

المصاحبات اللغوية يوصفها تعبيرات اصطلاحية: التعبيرات الاصطلاحية من حيث هى وحدات لبناء التعبيرات المختلفة لدى الدارسين :

المفهوم السياقي للمصاحبات اللغوية (أو التلازم المتكرر للكلمات) يجرى عرضه تلقائيا – على نحو ما شرحنا آنفا – على البوابة الالكترونية للثروة اللغوية، ولذلك يمثل البحث عن الكلمات المصاحبة في هذه الصفحة أداة فعالة لدى معلمي اللغة الألمانية.

ولنعد مرة أخرى إلى المثال: (يطبق استراتيجيات التعلم) Lernstrategien verwenden/anwenden/ einsetzen/ gebrauchen/.إذا أخذنا (استراتيجيات التعلم) Lernstrategien أساسا للبحث، فلن يسفر البحث في البوابة الالكترونية للثروة اللغوية عن الفعل (يطبق) anwenden كلمة مصاحبة. إن البحث عن الكلمات المصاحبة للكلمات المنفردة لا يكلل دائما بالنجاح، ولذلك لا يبقى لنا سوى أن نتخطى مستوى الكلمة، وأن نتعامل مع المصاحبات اللغوية على أنها وحدات لغوية متعددة الكلمات، بمعنى ألا نبحث عن الكلمات المصاحبة للكلمة أساس البحث (استراتيجيات التعلم) Lernstrategien، ولكن نبحث مباشرة عن مرات تكرار المصاحبة اللغوية (نطبق استراتيجيات التعلم) Lernstrategien anwenden, verwenden, gebrauchen, einsetzen. فبالبحث عن المصاحبة اللغوية (نطبق استراتيجيات التعلم) Lernstrategien anwendenفي إحدى المدونات اللغوية الالكترونية، سنجد أننا لوأدخلناها في جوجل بين علامتي تنصيص ،سوف نحصل على عدد كبير من النتائج 1330. وتحتل المصاحبة اللغوية (يستخدم استراتيجيات التعلم) Lernstrategien anwenden المركز الثاني ب333 نتيجة، ثم يليها المصاحبة اللغوية (يستخدم استراتيجيات التعلم) Lernstrategien verwenden ب177 نتيجة، وأخيرا المصاحبة اللغوية (يستخدم استراتيجيات التعلم) Lernstrategien gebrauchenبنتيجتين فقط. ومن هنا، فإنه لا مانع من استبعاد الخيارين الأخيرين على أساس كونهما خيارين محتملين ولكن غير معتادين. إذن فإن البحث في محركات البحث الالكتروني لا يخلو من المشاكل. إن هذه النتائج لا يمكن اعتبارها أرقاما مطلقة ولكنها فقط مجرد مؤشرات (Konecnz 2010: 84). وقد أشار"بوبنهوفر/ بتاشنيك" (Bubenhofer/Ptashnyk) إلى أنواع أخرى من المشاكل:

" تتمثل عيوب استخدام محركات البحث المتوفرة في أنها غير مصممة خصيصا للبحث اللغوي، كما أن اللوغاريتمات المستخدمة في البحث غير معروفة لدينا بشكل تفصيلي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه من الممكن أن تتم إدارة قاعدة البيانات بشكل سيء. فالمسؤولون عن محركات البحث لا يذكرون شيئا عما يخص شمولية المدونة اللغوية المستخدمة، ولذلك فإنه لا يمكننا تقييم عدد نتائج البحث بالقياس إلى حجم المدونة اللغوية. كما أن تركيب المدونة اللغوية يختلف باستمرار بطبيعة الحال.(2010: Bubenhofer/Ptashnyk:16)". وعلى هذا، فإنه من الطبيعي أن تتغير دائما أعداد نتائج البحث بتغير وقت إدخال المصاحبة اللغوية مجال البحث (يطبق استراتيجيات التعلم) Lernstrategien anwenden في محرك البحث جوجل، ولكنها تظل دائما مرتفعة على أية حال. إن أعداد النتائج تخضع للتغير طوال الوقت ؛ لأن هناك احتمالا بأن يتم الوصول إلى النص نفسه من خلال أنواع مختلفة من الوثائق عبر شبكة الإنترنت. ومن هنا يتم حصر النص نفسه أكثر من مرة.

لقد أظهر البحث عن المصاحبة اللغوية (يطبق استراتيجيات التعلم) Lernstrategien anwenden عددا من النتائج التي لا يستهان بها. وهو بهذا يعكس خاصية من أهم خواص التعبيرات الاصطلاحية، ألا وهي الثبات. ويعد شيوع الاستخدام أحد مظاهر الثبات (Burger 2007:16). وفي مجال التعبيرات الاصطلاحية يتم تعريف المصاحبات اللغوية على أنها عبارات ثابتة ولكنها غير بلاغية (Burger2007: 38). فهي إذن ليست عبارات حرة ولكنها تراكيب. ولكن كيف يمكننا الحكم على المصاحبات اللغوية بالثبات ؟ الإمكانية الأولى قد جرى بالفعل تناولها، وهي اعتبار المصاحبة اللغوية ثابتة إذا ما كانت شائعة الاستخدام، حيث إنه من الممكن التأكد من ثبات المصاحبة اللغوية من خلال حصر مرات استخدامها حصرا إحصائيا بالطريقة نفسها التي تم توضيحها بالفقرة السابقة في مثال (يطبق استراتيجيات التعلم) Lernstrategien anwenden.

وربما كنا على حق إذا ما سألنا أنفسنا: "هل كل ما يتكرر استخدامه يمكن أن يعدّ تعبيرا اصطلاحيا؟" (Donalies 2009: 13)، ومن ثم، فإن المصاحبات اللغوية تحتاج إلى خصائص أخرى من جملة ما تعرفه التعبيرات الاصطلاحية من خصائص ليتم تمييزها عن العبارات الحرة. هذا ما أشار إليه "بورجر" (Burger2007: 17–25) تحت اسم خاصية الثبات من المنظور البنائي وعلم اللغة النفسي.

ويقاس ثبات المصاحبات اللغوية من منظور علم اللغة النفسي من خلال قياس الوقت

الذى يستغرقه حدوث رد الفعل تجاهها. لقد أثبتت التجارب أن أصحاب اللغة يستطيعون التعرف على المصاحبات اللغوية بشكل أسرع من العبارات الحرة. فالمصاحبات اللغوية يتم الاحتفاظ بها في الموسوعة العقلية للمتكلم على هيئة وحدات متماسكة أو يتم بناء علاقة مفاضلة بين الكلمات المكونة للمصاحبة اللغوية (Schönefeld 2001).

إن الثبات من منظور علم اللغة النفسي أو الاحتفاظ بالمصاحبات اللغوية على هيئة وحدات متماسكة لا يحدث عادة لدى دارسي اللغات الأجنبية. فالدارس يحفظ بالفعل المصاحبات اللغوية الخاصة بلغته في موسوعته العقلية، ولذلك عليه أن يقوم ببناء علاقات عقلية جديدة لاستيعاب المصاحبات اللغوية في اللغة الأجنبية. ولذلك فإننا نتفق على أن المصاحبات اللغوية التي ليس لها مقابل في اللغة الأم تستلزم من الدارس مجهودا اكبر في التعلم. وبالتالي فإن الدارسين يعانون بسبب المصاحبات اللغوية كل حسب لغته الأم أو اللغات الأجنبية الأخرى التي يجيدها. فدارسو اللغة الألمانية من المجريين "يشعرون بالارتياح" تجاه المصاحبة اللغوية (يحفظ النظام) Ordnung halten لأن مقابلها في اللغة المجرية يطابقها حرفيا. أما المصاحبة اللغوية (يبني شيئا)Struktur in etwas bringen فتبدو بالنسبة لهم غريبة؛ لأنهم تعودوا في لغتهم الأم التعبير عن هذا المعنى باستخدام فعل واحد. ومن هنا يتضح لنا أهمية التمارين الخاصة بالتدرُّب على المصاحبات اللغوية من منظور تقابلي لتعويض النقص في الثبات اللغوي النفسيّ في الموسوعة العقلية لدى الدارسين الأجانب.

أما النوع الثاني من ثبات التعبيرات الاصطلاحية؛ وهو الثبات البنائي، فهو يختص بشكل عام بالقيود النحوية وما خرج عن القواعد النحوية ؛ أي أنه يقتصر على مستوى اللغة (cf. Burger 2007: 20–25).و لا تتسم المصاحبات اللغوية عادة بالخروج عن القواعد النحوية، كما أنها لا تتميز بقيود معينة على مستوى النحو والصرف، ولكن قد تظهر بعض القيود فيما يتعلق بالمستوى الدلالي والمعجمي. والمقصود بهذا عدم إمكانية استبدال كلمة بكلمة أخرى مرادفة لها.

Bringe Struktur in deinen Lehrstoff (كون مادتك التعليمية)

ففي الاستراتيجية المقترحة لا يمكن- على سبيل المثال- استبدال الفعل (يحضر) bringen بفعل آخر مرادف له، ولكن هذه القيود المعجمية الدلالية لا تعد سمة دائمة للمصاحبات اللغوية. فالنصيحة التالية تعد مثالا مناسبا على هذه الظاهرة:

(ابدأ بتمارين سهلة: فالمخ كالموتور يحتاج إلى التسخين أولا حتى يؤدى أعلى أداء).

Beginn mit leichten Übungen: Wie ein Motor braucht dein Gehirn eine Aufwärmephase, bis es Höchstleistungen bringt.

فالفعل bringen (بمعنى يجلب، وهنا بمعنى يؤدى) في المصاحبة اللغوية السابقة من الممكن أن يستبدل بالفعل (ينتج) erbringen دون أن تختل شروط المصاحبة اللغوية. كذلك الحال فيما يخص المصاحبة اللغوية (أثبتت الدراسات)Studien belegen ؛ لأن الفعل (اثبتت) belegen يمكن استبداله بالفعل (أكدت) beweisen وإن كان ظهوره أقل (لقد أسفر البحث عن كلمة "الدراسات" في البوابة الالكترونية للثروة اللغوية عن ظهور المصاحبة اللغوية (أثبتت الدراسات) Studien belegen 979 مرة وظهور المصاحبة اللغوية (أكدت الدراسات) Studien beweisen 96 مرة).

وتتميز المصاحبات اللغوية – من منظور التعبيرات الاصطلاحية بوصفها مجالا بحثيا - بخاصية أخرى وهي "عدم المجازية" والتي تسهم بشكل عام في التمييز بينها وبين التعبيرات الاصطلاحية الأساسية Idiome والربط بينها وبين العبارات الحرة (cf: Hausmann 2007).

ولأن المصاحبات اللغوية ظاهرة مركبة، فإن معناها يتكون من مجموع معاني الكلمات المكونة لها، ولذلك فإن المصاحبات اللغوية تقف على الحدود بين العبارات الحرة والتعبيرات الاصطلاحية المجازية Idiome (أنظر الصورة 1)

العبارات الحرة ← المصاحبات اللغوية← التعبيرات الاصطلاحية المجازية

الصورة 1: درجات المجازية

وعند تطبيق هذه الرؤية الاصطلاحية للمصاحبات اللغوية في عملية التدريس الفعلية، فإننا نحصل على ميزة التعامل مع المصاحبات اللغوية باعتبارها وحدات لغوية ثابتة. ومن ثم ينبغي لنا تشجيع الدارسين على حفظها بوصفها وحدات لغوية أيضا. وبناء على ذلك، فإنه لا يجوز شرح الاسم (دراسات) Studien والفعل (أثبتت) belegen كل على حده ثم المواءمة بين هذه وتلك، بل ينبغي تدريس المصاحبة اللغوية كاملة (أثبتت الدراسات)Studien belegen. إن من نتائج تعلم المصاحبات اللغوية وحدات متكاملة اتساع مجال البحث في الوحدات متعددة الكلمات polylexikale Einheiten.ولكن أغلب

الظن أن حفظ المصاحبات اللغوية المختلفة في الموسوعة العقلية البشرية سيصبح أسهل لاسيما تلك المصاحبات اللغوية التي ليس لها مقابل معادل لها تماما في اللغة الأم.

ولكن ستظهر مشكلة عند شرح المصاحبات اللغوية بهذه الطريقة، ألا وهي أنه لا يوجد نموذج أمثل للمصاحبات اللغوية. ومن ثم ستختلف الآراء حول تحديد إمكانية اعتبار بعض العبارات مصاحبات لغوية. في مثل هذه الحالات من التردد لا مانع من اللجوء إلى تأمل الموضوع من منظور تقابلي. فالعبارات التي ليس لكلماتها مقابل مطابق لها حرفيا في اللغة الأم يمكن اعتبارها مصاحبات لغوية بلا أدنى شك. ومن الممكن تبرير شرح المصاحبات اللغوية باعتبارها وحدات متكاملة بأن مخاطر تداخل الظاهرة مع غيرها من الظواهر اللغوية مخاطر جدّ جسيمة.

وبناء على ذلك، فإنه من الممكن اعتبار العبارة (يسجل المواعيد) Termine eintragen بالمقارنة باللغة المجرية في المثال التالي مصاحبة لغوية :

(سجل مواعيد الامتحانات كلها في النتيجة)

Trage in einem Kalender alle Prüfungstermine ein

وذلك أن مقابل الفعل (يسجل) eintragen في اللغة المجرية هو الفعل (beir) وهو مطابق للفعل الألماني مطابقة تامة.

ومن الممكن أيضا تحديد مجال المصاحبات اللغوية على أساس تقابلي؛ حيث يعد المنظور التقابلي ضروريا جدا لدى الدارس؛ لأنه يرجع دائما إلى لغته الأم في الموسوعة العقلية الخاصة به وسيلة للفهم. ولكن كون التحويل له وقع سلبي أو إيجابي هو من الأمور التي لا يمكن التنبؤ بها في كل مرة، ولا يمكن علمها بوصفها وحدات متعددة؛ فقد تتدخل لغة أجنبية أخرى في المقارنة كما هي الحال في تعلم اللغات بالاستعانة بلغة ثالثة وسيطة.

وجماع القول أنه قد تم إثبات ضرورة تدريس المصاحبات اللغوية من حيث هي وحدات متعددة الكلمات. هذا إذا ما اعتبرناها تعبيرات اصطلاحية. والهدف من ذلك هو تطوير الثبات اللغوي النفسي في الموسوعة العقلية لدى الدارسين.

الكتب التعليمية والمصاحبات اللغوية

كشفنا في هذا المقال عن أن المصاحبات اللغوية قد تم تناولها بعمق في العديد من فروع علم اللغة . وقد حاولنا أيضا في الجزء السابق عرض كيفية الاستفادة من المعارف اللغوية في عملية اكتساب اللغة. وهناك بعض الأسئلة الهامة التي تطرح نفسها إذا ما وجهنا تفكيرنا شطر الدارسين بالدرجة الأولى. والهدف في النهاية هو تجهيز موسوعته العقلية لتقبل المصاحبات اللغوية. ولكن ما رأي الدارسين في المصاحبات اللغوية؟ هل يعتبرون المصاحبات اللغوية عبارات ثابتة تعامل على أنها وحدات لغوية متكاملة؟ إن الممارسة الفعلية للتدريس قد أثبتت أن دارسي اللغة الألمانية لغة أجنبية - مثلهم كمثل كل دارسي اللغات الأجنبية الأخرى - مراقبون للكلمة Word-watcher بطبعهم أكثر من كونهم جامعين للوحدات Chunck-Sammler " :Handwerker/Madlener 2009) (6.هذه المقولة تنطبق أيضاعلى المصاحبات اللغوية كما أثبتت بعض الدراسات التطبيقية (cf. Reder 2008a,Reder 2008b). وإنه ليس من الغريب أن يتعرف دارس اللغة الأجنبية على الكلمات المنفردة على أنها وحدات لتكوين الثروة اللغوية على النحو المتعارف عليه في المواد التعليمية الشائعة. إن معظم الكتب الخاصة بتعليم اللغة الألمانية لغة أجنبية تتناسب مع نوع الدارسين المراقبين للكلمة. ويتميز اختيار الكلمات بهذه الكتب بتجنب المصطلحات. وأنا لا أكاد أعرف كتابا عالميا لتدريس اللغة الألمانية لغة أجنبية يعرف الدارسين بمصطلح المصاحبات اللغوية. ومن العيوب الأخرى فى هذه الكتب أنها غالبا ما تسجل الكلمات منفردة بمسرد الكلمات. بعض الكتب الأخرى تسجل التعبيرات الاصطلاحية وصيغ التواصل الاجتماعي تحت عنوان "تعبيرات"، ولكن نادرا ما تسجل المصاحبات اللغوية.

وليس من الإنصاف أن نلوم القائمين على تأليف الكتب الدراسية لعدم تداولهم مصطلح "المصاحبات اللغوية" وعدم تسجيلهم للمصاحبات اللغوية بالمسارد؛وذلك أنه لا يوجد مفهوم موحد للمصاحبات اللغوية في علوم اللغة.

إن تطبيق المفاهيم المختلفة للمصاحبات اللغوية في تدريس اللغات الأجنبية، وتطبيق العبارات المعتادة (Hausmann 1984) أو المزاوجات اللفظية القابلة للتوقع من خلال السياق في الممارسة الفعلية ، لا يكاد يخلو من المشاكل. وبالتوجه إلى الدارسين نجد أن الهدف هو أن يحفظ الدارس المصاحبات اللغوية من حيث هي وحدات متكاملة في موسوعته العقلية. ومن هنا يبدو أنه من المفيد في اكتساب اللغة أن يتم تناول المصاحبات اللغوية على

أنها تعبيرات اصطلاحية، ومن هنا فإن هذا المقال يتبنى المفهوم الاصطلاحي للمصاحبات اللغوية كما يتبنى تطبيقه في كتب تعليم اللغة الألمانية لغة أجنبية. ولا يجب تجاهل المنظور التقابلي في هذا الصدد؛ لأن الدارس يحتفظ في الموسوعة العقلية لديه بالمصاحبات اللغوية الخاصة بلغته الأم. المصاحبات اللغوية غير المتطابقة ستتطلب – في أغلب الظن – المزيد من التدريب في كل من اللغة الأم واللغة الأجنبية. ولتحقيق ذلك، فإنه من الممكن استخدام المواد التعليمية المحلية بشكل فعال؛ فهي تتميز بقدرتها على استيعاب الفئة المستهدفة واستيعاب اللغة الأولى للدارسين. ومن الممكن أن تحتوى على تمارين للتدريب على المصاحبات اللغوية المختارة من منظور تقابلي. ويفضل هنا تطبيق نموذج المراحل الثلاث في تدريس المصاحبات اللغوية. هذا النموذج نجده مطبقا في "كتاب تدريب القدرات اللغوية" (Reder/Jaszenovies 2010). ويعد التدريس السياقي للمصاحبات اللغوية (بربط النقاط بعضها ببعض) Punkte miteinander verbinden مثل (يضع القلم) Stift absetzen من أفضل الأمثلة. هذه المصاحبات اللغوية تقدم للدارس في سياق أحد النصوص التحفيزية. وعلى الدارس استخراجها ومقارنتها بما يقابلها في اللغة الأم. مثل هذه المصاحبات اللغوية يتم التدريب على استخدامها في بعض الجمل محددة السياق. وتتضمن مرحلة التمرين أيضا الإنتاج الموجه للنصوص، وتنتهي العملية التعليمية بمناقشة الاستراتيجيات التعليمية المتعلقة بالمصاحبات اللغوية.

ومن الأشياء الهامة التي يجب وضعها في الاعتبار عند اختيار أنواع التمارين أن الواجبات بشكلها التقليدي والمعروف من الممكن أن تؤثر تأثيرا سلبيا في التدريب على المصاحبات اللغوية. ولنأخذ أحد النصوص التحفيزية عن أحد استراتيجيات التعلم التي طبقناها مع مجموعة من الدارسين لتوضيح هذه الظاهرة. سنسأل هنا: كيف يمكن تقييم الواجب التالي من حيث كونه وسيلة للتدريب على المصاحبات اللغوية؟ (لخصوا النص بأسلوبكم الخاص). إذا كان الهدف هو أن يتعلم الدارسون المصاحبات اللغوية غير المعروفة لديهم، فسيكون من الأفضل تلخيص النص ولكن ليس بأسلوبهم الخاص. فلا بد أن يقوم الدارسون باستخراج الكلمات المفتاحية والمصاحبات اللغوية الجديدة أولا، أو أن يتولى المعلم هذه المهمة. فالهدف يتركز على استخدامهم وليس تجنبهم. ومن الممكن أن يمثل الواجب التالي أحد الأنشطة السابقة على كتابة الملخص:

(انصح صديقك كيف يمكنه أن ينجح في التعلم. استخرج من النص الكلمات والمصاحبات اللغوية "الكلمات مع مصاحباتها الثابتة").

مسرد المصطلحات الإنجليزية

Accusative	حالة النصب
Affect	البعد العاطفي أو الانفعالي
Affricates	الأصوات شبه الاحتكاكية
Agent	فاعل
Agentive nouns	اسم الفاعل
Alienation	غربة
Alliteration	الجناس الاستهلالي
Analogy	التشبيه أو القياس
Appositive	البدل
Appraisal theory	نظرية التقييم
Appreciation	البعد الجمالي
Approximants	الأصوات التقاربية
Auditory iconicity	الأيقونية السمعية
Automatic semantic annotation system	نظام التوسيم الدلالي الآلي
Cacophonous effect	التنافر الصوتي
Chiastic construction	المقابلة العكسية
Coca-colonization	استعمار الكوكا
Coda	الصوامت في نهاية الكلمة
Cognitive	المعرفي
Concordance	الكشاف السياقي
Configuration	التشكيل العام للصور
Consonants	الأصوات الصامتة
Content words	الكلمات ذات المحتوى الدلالي
Coordinating sentence	جملة تامة
Coronal or back consonant	الأصوات الصامتة التاجية أو الخلفية
Corpus linguistics	لسانيات المدونات النصية
Definite ❋ indefinite	معرفة ❋ نكرة
Diagram	الصورة البيانية
Experiencer	صاحب الخبرة
Figuration	الصور
Fricative	الصوت الاحتكاكي

Functional words	الكلمات النحوية أو الظيفية
Generic space	الفضاء المعرفي الدلالي
Genre	النوع الادبي
Glide	الأصوات الانزلاقية
Globalization and the Claims of Postcoloniality	العولمة ودعاوى مابعد الاستعمار
Globalization as Hybridization	العولمة كوسيلة للتهجين
Glocality	العولمحلية/ النزعة «العالمية – المحلية»
Glottal	حنجري
Homonym	المشترك اللفظي
Hyperreal	الحقيقة الافتراضية
Iconic	أيقوني
Image	صورة
Images–schemas	خطاطات الصور
Input ⁎ output	المدخل⁎ المخرج
Instrument	أداة
Isomorphic correspondence	التوافق التماثلي
Isomorphism	التماثل أو التشاكل
Isotopy,	النظائر
Item	الدال
Judgment	البعد الأخلاقي
Key word	كلمة البحث
Key word in context (KWIC)	كلمة البحث في سياقاتها
Keyword	الكلمة البارزة
Kinetic iconicity	الأيقونية الحركية
Laterals	الأصوات الجانبية
Lexeme,	المعنى اللغوي المعجمي
Lexical couplet	الأزواج المعجمية
Lexicons	المفردات المعجمية
Liquid	الصوت المتوسط أو المائع
Literary criticism	النقد الأدبي
Matrix verb	الفعل الرئيس

Metaphor	الاستعارة
Mimesis	المحاكاة
Modification	وصف
Morpheme	الوحدة الصرفية
Nasals	الأصوات الأنفية
Nasirite	الناصرية(حركة قومية عربية نشأت في ظل حكم جمال عبدالناصر واستمرت بعد وفاته واشتقت اسمها من اسمه وتتبنى أفكار: الحرية والاشتراكية والوحدة)
Neocolonial globalization	العولمة الاستعمارية الحديثة
Nucleus	الصوائت أو الصوامت في منتصف الكلمة
Obstruents	الأصوات المحبوسة أو الانحباسية
Onomatopoeia	المحاكاة الصوتية
Onomatopoeic principle	مبدأ المحاكاة الصوتية
Onset	الصوامت في بداية المقطع الأول في الكلمة
Paradigmatic	المستوى الرأسي أو التراتبي
Parataxis	الإرداف: إتباع عبارات أو أشباه جمل بأخرى من دون حرف عطف (معجم اللغة العربية المعاصرة)
Pastism	الماضوية(النظرة بأن الماضي والحاضر كلاهما مهمين ولابد من بناء الحاضر على الماضي)
Patient	المفعول به
Persuasive discourse	الخطاب الإقناعي
Pharyngeal and uvular fricative	الأصوات الاحتكاكية الحلقية واللهوية
Phenomeme	محاكاة الحدث
Phoneme	وحدة صوتية
Phonetic iconicity	الأيقونية الصوتية
Phonetic metaphor	الاستعارة الصوتية
Phonetic symbolism	الرمزية الصوتية
Phonology	علم وظائف الأصوات
Phonomeme	محاكاة الصوت
Plosive	الصوت الانفجاري
Polysemy	تعدد المعاني

Predicate	المسند (الخبر)
Prototype’	النموذج الأولي
Psychological theories	النظريات النفسية
Quasi–logical	شبه منطقية
Referent	المدلول
Referential meaning	المعنى الإشاري
Scripts, schema, scenarios	تسلسل الأحداث ، ونماذج المخطط العام للنصوص ، والمشاهد
Semantics	علم الدلالة
Sememe.	المعنى اللغوي السيميائي
Semiotics	السيميائية
Signans, Signatum	الدال و المدلول
Sonorants	الأصوات الرنانة
Sound symbolism	الرمزية الصوتية
Stereotypes’	نموذج الأنماط
Subordinating sentence	جملة ناقصة
Superordinate term	الكلمة الجامعة
Syncretism	التوفيقية(محاولة الجمع أو التوفيق بين المعتقدات المتعارضة في الدين أو الفلسفة)
Syntagmatic	المستوى الأفقي أو التعاقبي
Syntax	علم النحو
The blending model	نموذج الربط و الدمج
Theme	الموضوع
Utterance	منطوق
Verb categories: State Activity Achievement Semelfactive Accomplish Active accomplish	تصنيفات الفعل: الحالة النشاط الإنجاز التمام التنفيذ التنفيذ النشط

Voiced	مجهور
Voiceless	مهموس
Wordsmith concordance software	برنامج الكشاف السياقي

مسرد المصطلحات الفرنسية

Analogie	قياس
anthropologue	عالم انثروبولوجيا
Approche bioculturelle	مقاربة بيوثقافية
Arabe classique	العربية الفصحى
Arabe moderne standard	اللغة العربية الحديثة الموحدة
Argumentation	حجاج
australopithèque	مستحاثة الأوسترالوبيثيكوس
autobiographie	سيرة ذاتية
Automatiser	أتمتة
Bagage génétique	مخزون وراثي
biopoétique	البيوشاعرية
Calque	محاكاة
Caractérisation	وصف
Cimetière	مقبرة
Cognitif	معرفي
Communication scientifique	تواصل علمي
Comparaison	تشبيه
Création néologique	ابتداع الألفاظ الجديدة
Critique historique	نقد تاريخي
Darwinisme	داروينية
Darwinisme littéraire	الداروينية الأدبية
Décomposition	تفكيك
déconstruction	التفكيكية
Defunt	فقيد
Dénomination	تسمية
Destinataire	متلقي
Déterminisme cutlurel	حتمية ثقافية
Deuil	حِداد
Discours scientifique	خطاب علمي
Distorsions phonétiques	تشوهات لفظية

Emprunt	اقتراض
Équivalence	مساواة
Eugénisme	تحسين النسل
Evénements fictifs	أحداث خيالية
Evolution	تطور
Evolution de la langue	تطور اللغة
Evolutionisme	نشوئية
Facteurs epigénétiques	عوامل علم اللاوراثة
Fiction	خيال
Figures de style	صور بيانية
Fonction sémantique	وظيفة دلالية
Formalism	الشكلية
Fossoyeur	حفار القبور
Génétique	وراثي
Genotype	طراز عرقي
Hérédité	وراثة
Imagerie par résonance magnétique	التصوير بالرنين المغناطيسي
Imaginaire	خيال
Indicateur adaptatif	مؤشر تكيفي
Inhumation	دفن
Intellect	ذكاء
Intrigue	حبكة
Invasion culturelle	غزو ثقافي
Irrégularités structurelles et semantiques	عدم انتظام بنيوي ودلالي
Langue scientifique	اللغة العلمية
Lexicologie	علم الألفاظ
Linguistique saussurienne	ألسنية سوسور
Littérature du deuil	أدب الحِداد
Methode empirique	طريقة تجريبية
Métissage ethnique	تمازج عرقي
Narcissique	نرجسي

Narrateur	راوي
Narratif	سردي
Narration	سرد
Naturalislme	الطبعانية (المذهب الطبيعي)
néodarwinisme	الداروينية الجديدة
Néologisme	ألفاظ جديدة
neuroscience	علم الأعصاب
Numériser	رقمنة
Ontogénique	تخلّقي
ontologique	وجودي
Outils de communication	أدوات التواصل
Pacte autobiographique	ميثاق مرتبط بالسيرة الذاتية
Pacte référentiel	ميثاق مرجعي
Paraphrase	إسهاب
Perte	فقد
Phylogénique	نشوئي تطوري
Polysémies	تعدد المعاني
Pragmatique	ذرائعية
Procédés de dérivation	عمليات الاشتقاق
Progression textuelle	تقدم نصي
Psychologie cognitive	علم النفس المعرفي
Psychologie scientifique	سيكولوجية علمية
Puissance de l’écriture	سلطة الكتابة
Radicalisme théorique	راديكالية نظرية
Ranimer	أعاد إحياء
Récit	رواية
Réel (le)-reel	الواقع- واقعي
Reparation	إصلاح الذاكرة
ressassement	استرجاع الذكرى
Ressusciter	بعث
Rhétorique vulgarisatrice	بلاغة التبسيط العلمي
Roman	رواية

Rupture	قطيعة
Se suicide	انتحر
Sémiotique textuelle	السيميائية النصية
sociobiologie	بيولوجيا اجتماعية
Stimuli	محفز
Stratégies de persuasion	استراتيجيات الاقناع
structuralisme	البنيوية
Structures stylistiques	تراكيب أسلوبية
Tomographie par émission de positrons	التصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني
Transfert cognitif	نقل معرفي
Transformisme	نظرية التطور
Unités terminologiques	وحدات مصطلحية
Univocité du discours	أحادية تسمية الخطاب
Vulgarisation	تبسيط علمي

مسرد المصطلحات الألمانية

التوافق الدلالي	semantische Vertraeglichkeit
التركيب اللغوي	Wortkombination
النظرية السياقية	Kontextualismus
عملية التلازم	Kookurenz
التواتر والتكرار	Frequenz
صناعة المعجم	Lexikographie
التعبيرات الاصطلاحية	Idiome
الوحدات متعددة الكلمات	polylexikale Einheiten

تمّ بحمدِ اللّه